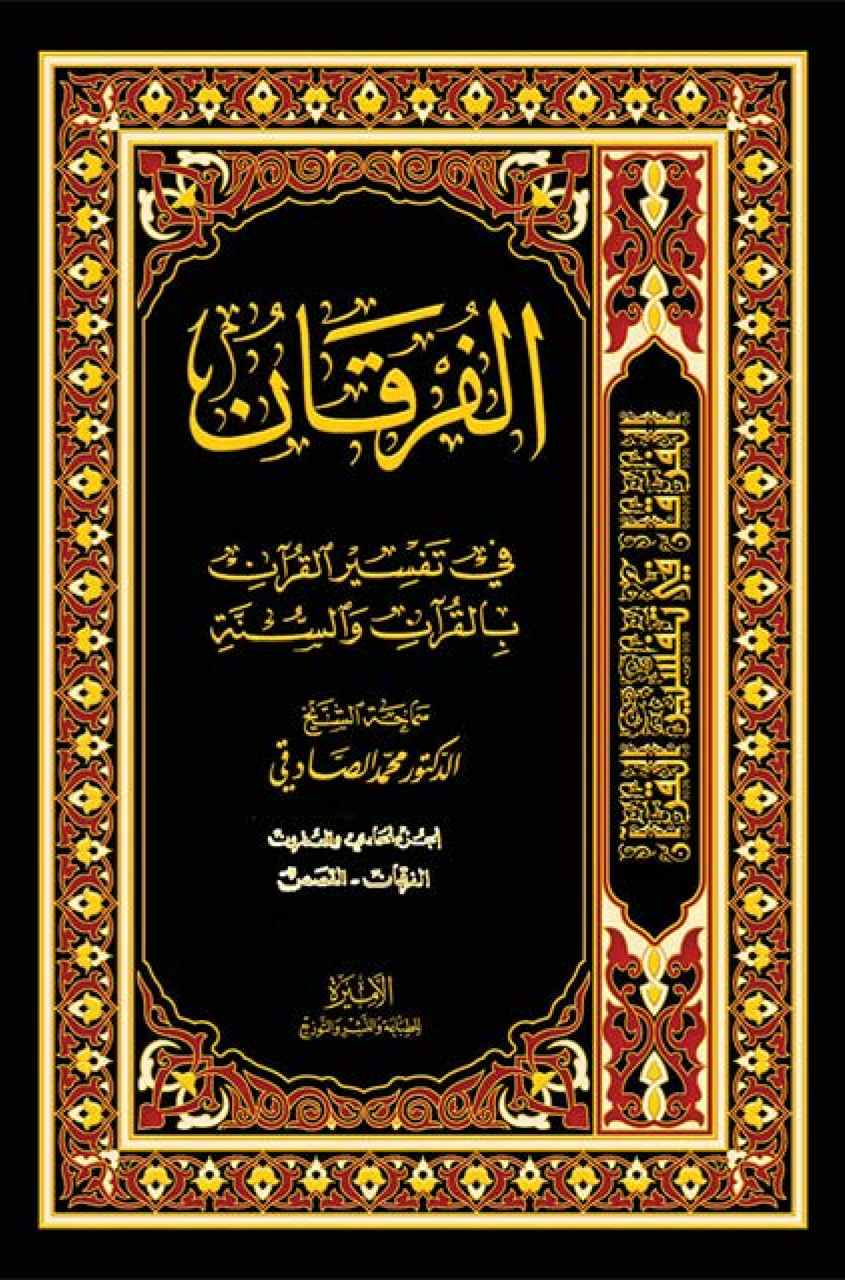

الفرقان
في تفسير القرآن بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء الواحد والعشرون

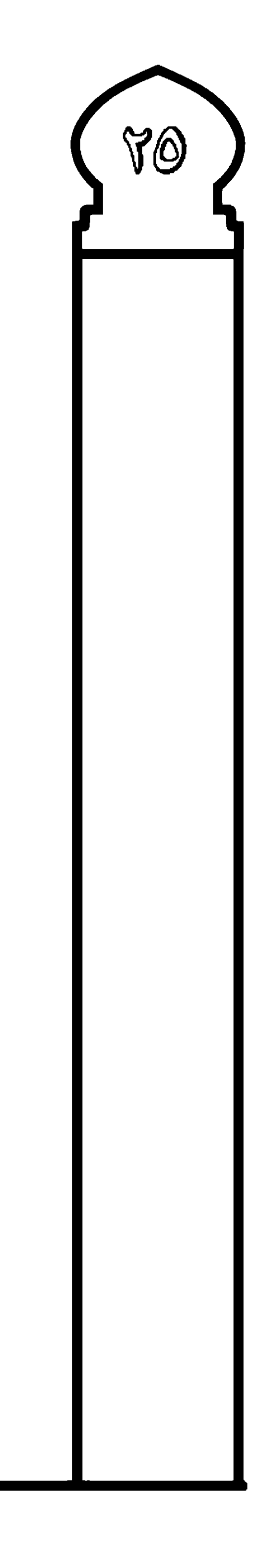
تتمة سورة الفرقان - سورة الشعراء

سورة النمل - سورة القصص

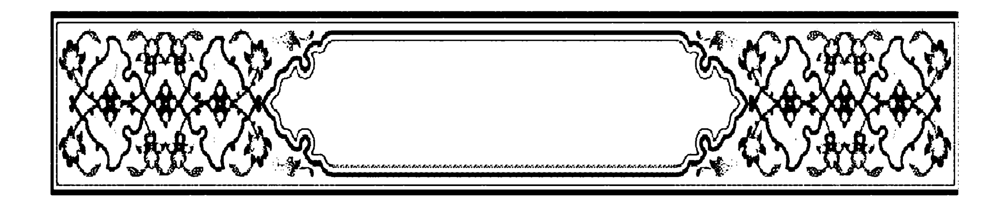


سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



تتمة



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ قد يعم اللقاء في الأولى معرفة له بالوحدانية، فتخصيص العبادة إياه لا سواه، كما الأخرى هي يوم اللقاء المعرفي إذ تزول الحجب إلّا حجاب الذات، ولقاء الجزاء ثواباً وعقاباً فإنه يوم الحساب.

﴿وَقَالَ...﴾ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كما يدعي محمد نزولهم عليه

بالوحي، فلو أن البشر ينزل عليه الملائكة فنحن بشر كما هو بل وأهدى سبيلاً، ولو أنه لا تنزل عليه الملائكة فقد جاء محمد بإفك.

أم إذا كان الوحي وحي مواجهة بمشافهة فلولا نرى ربنا، أم لماذا الوسطاء بشراً أم ملكاً لا يستأصلان مجال الشك في رسالة الوحي، فلولا نرى ربنا، فيوحي إلينا كما أوحى إلى محمد في زعمه.

والجواب كلمة واحدة قارعة ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حيث اعتبروها في قمة الوحي حتى ينزل عليهم الملائكة بالوحي أم في مساماة الربوبية حتى يروا ربهم ﴿وَعَتَوْ﴾ على الحق ووحي الرسالة ورسالة الوحي ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ فرحم الله امرأً عرف قدره وهم ما عرفوه، لذلك هرفوا وخرفوا في اقتراحاتهم المتلاحقة.

هم في ذلك الاقتراحة الحمقاء قالوا ﴿رَبَّنَآ﴾ مسايرة مع الرسول أنه الرب لا سواه، وكما هو ربه كذلك هو ربنا، وكما نحن هو بشر مثلنا، فالمماثلة في البشرية ووحدة الربوبية تقتضي نزول الوحي علينا كما ينزل عليه!

وتقرير آخر ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ليخبرونا أنك رسول الله ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَآ﴾ فيخبرنا أنك رسوله، حيث الوسيط البشرى مشكك لا يعتمد عليه، أو ليست الحكمة الإلّهية تقتضي في هدانا أن يسلك بنا سبيل اليقين؟.

ولكنه مستحيل من ناحية، وهكذا رسالة فتنة حكيمة من أخرى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ وإن حجة الله بالغة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

ثم إنهم سوف يرون الملائكة ولات حين مناص، وفات يوم خلاص:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾:

ذلك هو يوم الموت، بداية الرؤية لملائكة العذاب، فهم يرونهم يومئذٍ بوحي العذاب وواقعه، بديلاً عما تطلبوا من وحي الرسالة أم تصديقها،

فذلك هو نصيبهم من رؤيتهم في ذلك اليوم العصيب ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ رغم ما تطلبوا قبله بشرى الوحي إليهم استكباراً في أنفسهم وعتواً كبيراً.

هنالك هم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للملائكة ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ حجراً عن وحي العذاب وواقعه، والملائكة يقولون - كذلك - لهم ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عن رحمة الله كما هجروها يوم الدنيا، وحجروا على أنفسهم رحمة الله.

ترى وإذا ﴿حِجْرًا﴾ فقد كفى، فلماذا ﴿مَّحْجُورًا﴾؟ إنه مبالغة في الحجر، إنه ليس فقط يكفي كونه حاجراً، بل ليكن الحاجر كذلك محجوراً، حتى تنمحي آثار المواجهة عن بكرتها.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾:

كيف ﴿وَقَدِمْنَآ﴾؟ وما له تعالى من قدم! وأين ﴿مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾؟ وما لهم من صالح الأعمال! وطالحها هباءٌ قبل الإحباط! القدم منه تعالى ليس كسائر الأقدام، وإنما هي كناية لطيفة عن الإقدام، حيث الإقدام الجادّ هو حسب العادة بالأقدام، ثم القادم ليس إلّا عن غياب وليس لله غياب، اللهم إلّا غياباً عملياً عن إحباط أعمالهم قبل الموت، فلأنه عاملهم معاملة القادم من غيبة، إذ كان بطول إمهاله لهم كالغائب عنهم، ثم قدم فرآهم على خلاف ما استعملهم وهداهم فأحبط أعمالهم، وعاقبهم عقاب العاند عن الطاعة، العامد في المعصية، المرتكس في الضلالة.

ثم ﴿مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ بين صالح وطالح، فجعل صالحه هباءً منثوراً، وأظهر طالحه - خلاف ما ظنوه صالحاً - هباءً منثوراً، في حين ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٨.

و﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ هو الغبار الهابي الرقيق «وشعاع الشمس الذي يخرج من الكوة»[(١)] «وريح الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء»[(٢)]، كناية عن البطلان لما عملوا من عمل، فقد أبطل ذلك العمل، فعفّى رسمه وسقّط حكمه، ويطل بطلان الغبار الممحق، والغثاء المفرَّق[(٣)].

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾:

آية يتيمة في مقيل أصحاب الجنة، لا ثانية لها، وهو نوم نصف النهار المسمّى بالقيلولة، وفيه راحة مزيحة للإتعاب و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هنا بازغ منذ الموت حتى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾، فهو يوم البرزخ دون القيامة الكبرى، لا لتكوّر الشمس فيها فلا نهار حتى يكون نصف نهار، إذ فيها شمس أخرى، ولكن لا نوم فيها لا مقيلاً ولا غير مقيل إذ لا تعب فيها يتطلب نومة، ثم الآيات التالية لها تحدث عن قيامتي التدمير والتعمير.

وتراهم ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ من أصحاب النار وخير مستقراً منهم؟ ولا خير في مستقرهم ولا حسن في مقيلهم!

ليس التفضيل فيهما - فقط - بالنسبة لأصحاب النار، بل وبالنسبة للحياة الدنيا، فهما تفضيلان بالنسبة لها حقيقة، وبالنسبة لهم مجاراة، كما «أذلك خير أم جنة الخلد»؟

---

(١) الدر المنثور ٥: ٦٦ - أخرج جماعة عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفُرقان: ٢٣].

(٢) المصدر - أخرجه جماعة عن علي بن أبي طالب عليه السلام في الآية.

(٣) المصدر أخرج سمويه في فوائده عن سالم مولى أبي حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليجاء يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثل جبال تهامة حتى إذا جيء بهم جعل الله تعالى أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار، قال سالم: بأبي وأمي يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حل لنا هؤلاء القوم، قال: كانوا يصلون ويصومون ويأخذون سنة من الليل ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه فأدحض الله تعالى أعمالهم.
أقول: كأنهم المنافقون، حيث المؤمن لا يثب إلى الحرام مهما يبتلى به لمماً أم كبيرة يتوب عنها.

في هذه الضفّة مؤمنون مستقرون مستروحون ناعمون نائمون مقيلاً في ظلال، وفي الضفة الأخرى، كافرون أعمالهم هباء منثور، وهم خواء مضطربون.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾:

فـ «يومئذ» هناك هو يوم لمّا تشقق السماء، ولا نزل الملائكة تنزيلاً، وإنما هو ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ القابضين أرواحهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[1].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ هو يوم القيامة التدمير، بتعاظم الغمام فيها، وانتشارها في نواحيها، انتقاضاً لبنيتها، وتغيّرها إلى غير ما هي عليها من حالتها، كما تظهر في البناء آثار التداعي، وأعلام التهافت، من تثلّم الأطراف، وتفطّر الأقطار، فيكون ذلك مؤذناً بانقضاضه، ومنذراً بانتقاضه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[2].

وترى ما هي تلك الغمام التي تشقق بها السماء؟ علّها ظلل من الغمام في ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[3].

﴿. . . إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾[4] ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[5] ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾[6] كل ذلك بتلك الغمام وما يدريك ما هي تلك الغمام؟

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٤) سورة الانشقاق، الآيتان: ١، ٢.

(٥) سورة الحاقة، الآية: ١٦.

(٦) سورة الرحمن، الآية: ٣٧.

طبعاً ليست هي الغمام الحاملة للماء، بل هي غمام الغمّة، إثر الحملة المدمرة لبناء السماء، أم والغمام والغازات المدمرة لها، فـ «بالغمام» تعم السببية كالثانية، والمصاحبة التابعة كما الأولى.

ولقد كانت السماء بكواكبها يوماً مّا غماماً ودخاناً: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾(١) وعند قيامتها سوف ترجع غماماً ودخاناً كما كان ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾(٢): رجعاً إلى ما كانت.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾:

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ تعني حق الملك والملك الحق مُلك الكون كله، وهو مِلكه - وبأحرى - كله، مُلكاً فمِلكاً حقيقياً في ظاهر الأمر وباطنه، وقد كان العالمون مستخلفين في ظاهر منه لردح من زمن التكليف، ملكة عارية: لهم، عارية عن حق الملك وثابته!

ذلك ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ حيث تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً، ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ الحق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الحق، هو فقط ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ فـ ﴿ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خبران للملك لِصق بعض، أو الحق وصف له وللرحمن خبر.

صحيح أن الملك الحق هو - منذ كان - كان للرحمن، لأنه مالك الملك، ولكن مالكيته ومَلكيته بارزتان يوم الدين مهما خفيتا للأخِفّاء والأخفياء يوم الدنيا، فإن دار التكليف هي دار الامتحان، يستخلف فيه الإنسان لذلك الامتحان.

﴿وَكَانَ﴾ يوم الملك الحق للرحمن ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ وللمؤمنين يسيراً: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٢) سورة الطارق، الآية: ١١.

يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾[1] إذ كانوا يتحسبون أن لهم الملك الحق ظاهرين فوجدوه حقاً للرحمن وهم أمام حساب عظيم عظيم.

ذلك يوم قيامة الإماتة التدمير، ومن ثم يوم قيامة الإحياء التعمير:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾:

﴿ٱلظَّالِمُ﴾ هنا ليس كل ظالم، إنما هو الظلّام حيث ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ فلا تكفيه يد واحدة أن يعض عليها، حيث ظلم بيديه، بكل طاقاته، فلذلك ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ لشدة ما يعانيه من الندم اللادع المتمثل في ذلك العض العضيض، وهو صورة عسيرة من صور ذلك اليوم العسير، على الكافرين غير يسير، حركة معهودة ترمز إلى حالة بئيسة تعيسة، في ندامة عميقة ولات حين مناص، إذ فات يوم خلاص.

وقد وردت في شأن نزولها روايات «كما في عقبة بن معيط، حيث كان يكثر مجالسة النبي ﷺ فدعاه إلى ضيافته فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين، ففعل، فعاتبه صديقه ابن أبي خلف قائلاً له: صبأت! فقال: لا والله ولكن أبى أن يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له، فقال: لا أرضى منك إلّا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك فقال له النبي ﷺ: لا ألقاك خارج مكة إلّا علوت رأسك بالسيف، فأسر يوم بدر فأمر علياً فقتله.

ولا تناحرها ما وردت في شأن غيره ممن لم يتخذ مع الرسول سبيلاً[2] مهما اختلفت الدركات، بترك مختلف البركات.

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ٨-١٠.

(٢) في متظافر الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن السبيل هنا هو علي بن أبي طالب عليه السلام =

فالذي يعرف الرسول برسالته، ثم لا يتخذ معه سبيلاً إلى ربه، هو الظالم بحق الرسول وسبيله، ويحق نفسه في سبيلها فليعض على يديه، متحسراً حسيراً، ومتعثراً كسيراً.

ترى ذلك الرسول، وقد عرفه، أفلا تكفي معرفته سبيلاً إلى ربه، ليتخذ معه سبيلاً، ولا سبيل مسلوكة إلى الرب إلا الرسول بقرآنه المبين، وبرهانه المكين؟ ثم وما هي تلك السبيل؟.

الرسول سبيل إلى الرب، ولكن معرفة هذه السبيل تتطلب دخولاً إلى مدينة علمه من بابها التي عرف بها، حتى تكتمل المعرفة، فتسلك ذلك السبيل دون تزعزع وتلكُّوءٍ، ولكيلا يضله فلان الخليل عن ذلك السبيل.

ولقد تواتر عن الرسول ﷺ قوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[1] «أنا

= وممن رواه محمد بن العباس قال حدثنا أحمد بن أبي القاسم عن أحمد بن محمد السياري عن محمد بن خالد عن حماد عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام وعن محمد بن خالد عن محمد بن علي عن محمد بن فضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر وعن محمد بن إسماعيل بإسناده عن جعفر بن محمد الطيار عن أبي الخطاب عن أبي عبد الله...

وأخرج أبو سعيد في شرف النبوة عن رسول الله ﷺ قال: «أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا فمن تمسك بنا اتخذ إلى ربه سبيلاً» (ذخائر العقبى ص ١٦) - وأخرجه مثله الحافظ الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ٥٧.

(١) يروى عن ١٤٣ مصدراً من أعلام الحديث كلهم من إخواننا السنة، ولقد صححه جمع من الحفاظ وأعلام الحديث، وممن صححه الحافظ أبو زكريا يحيى بن معين البغدادي المتوفى ٢٣٣ والطبري ٣١٠ في تهذيب الآثار، والحاكم النيسابوري ٤٠٥ في المستدرك والخطيب البغدادي ٤٦٣ والحافظ أبو محمد الحسن السمرقندي ٤٩١ في بحر الأسانيد، ومجد الدين الفيروزآبادي ٨١٦ في النقد الصحيح والحافظ جلال الدين السيوطي ٩١١ في جمع الجوامع والسيد محمد البخاري في تذكرة الأبرار، والأمير محمد اليماني الصنعاني ١١٨٢ في الروضة الندية، والمولى حسن الزمان عده من المشهور المستحسن، وأبو سالم محمد بن طلحة القرشي ٦٥٢، وأبو المظفر سيف بن قزاوغلي ٦٥٤، والحافظ صلاح الدين العلائي ٧٦١، وشمس الدين محمد الجزري ٨٣٣، وشمس الدين محمد السخاوي، وفضل الله بن روزبهان الشيرازي، والمتقي الهندي علي بن حسام الدين ٩٧٥، وميرزا محمد البدخشاني، وميرزا محمد صدر العالم وثناء الله باني بني الهندي.

دار الحكمة وعلي بابها»[(١)] «أنا دار العلم وعلي بابها»[(٢)] «أنا ميزان العلم وعلي كفتاه»[(٣)] «أنا ميزان الحكمة وعلي لسانه»[(٤)] «أنا المدينة وأنت الباب ولا يؤتى المدينة إلا من بابها»[(٥)]!.

لذلك نراه ﷺ، يسد الأبواب كلّها إلّا بابه، فلقد «كان لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبواب شارعة في المسجد، قال يوماً: سدوا هذه الأبواب إلّا باب علي عليه السلام فتكلم في ذلك ناسٌ فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد - فإني أمرت بسدِّ هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم، وإني ما سددت شيئاً ولا فتحته، ولكني أمرت بشيء فاتبعته»[(٦)].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه الصحيح ٣: ٢١٤، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١: ٦٤ والبغوي في مصابيح السنة ٣: ٢٧٥ وجمع آخر يربو عددهم على ستين من الحفاظ وأئمة الحديث.

(٢) أخرجه البغوي في مصابيح السنة كما ذكره الطبري في ذخائر العقبى ص ٧٧ وجمع آخرون.

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه الصحيح ٢: ٢١٤ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١: ٦٤ والبغوي عنه كالعجلوني في كشف الخفاء ١: ٢٠٤ وغيره.

(٤) ذكره الغزالي في الرسالة العقلية وحكاه عند الميبدي في شرح الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام

(٥) أخرجه العاصمي أبو محمد في كتابه «زين الفتى في شرح سورة هل أتى».

(٦) أخرجه وما في معناه جماعة من الحفاظ وأرباب السنن عن زيد بن أرقم وعبد الله بن عمر بن الخطاب والبراء بن عازب وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي حازم الأشجعي وجابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وسعد بن أبي وقاص وأنس بن مالك وبريدة الأسلمي وأمير المؤمنين علي عليه السلام كلهم عن رسول الله ﷺ - أخرجه عنهم فيمن أخرجه: النسائي في السنن الكبرى والخصائص ص ١٣ والحاكم في المستدرك ٣: ١٤٥ وصححه، والضياء المقدسي في المختارة، والكلابادي في معاني الأخبار، وسعيد بن منصور في سننه، ومحب الدين الطبري في الرياض ٢: ١٩٢، والخطيب البغدادي في تاريخه، والكنجي في الكفاية ٨٨، وسبط ابن الجوزي في التذكرة ٢٤٥، وابن أبي الحديد ٢: ٤٥١، وابن كثير ٧: ٣٤٢، وابن حجر في القول المسدد ١٧، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر ٧: ١٢، والسيوطي في جمع الجوامع كما في الكنز ٦: ١٥٢، ١٥٧، والهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١١٤، والعيني في عمدة القاري ٧: ٥٩٢، =

ذلك تأشيراً عشيراً لانحصار الباب إليه فيه عليه السلام وانحساره عمن سواه، وليتخذوه مع الرسول سبيلاً إلى الله لا سواه!

فمعرفة الرسول كما يحق التزاماً لسبيل الله، هي السبيل الواضحة إلى الله، فـ «سبيلاً» مع الرسول هي سبيل إليه، وهما معاً سبيل إلى الله.

كيف لا وهو شاهد منه ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[١] وكما يروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «علي مني وأنا منه، لا يؤدي عني إلا أنا أو علي»[٢] «إن علياً مني وأنا منه»[٣] «علي مني مثل رأسي من بدني»[٤] «منزلة

= والبدخشي في نزل الأبرار، وابن أبي شيبة، وأبو نعيم، والحمويني في الفرائد ب ٢١، وأبو يعلى في الكثير، وابن السمان في الموافقة، والجزري في أسنى المطالب، والخوارزمي في المناقب، وأبو نعيم في الحلية، والحافظ البزاز... قال ابن حجر في فتح الباري والقسطلاني في إرشاد الساري ٦: ٨١، أن كل طريق من هذا الحديث صالح للاحتجاج فضلاً عن مجموعها (الغدير للعلامة المغفور له الأميني ٣: ٢٠٢ - ٢٢٩).

(١) سورة هود، الآية: ١٧.

(٢) حديث صحيح رجاله كلهم ثقات - أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤: ١٦٤ - ١٦٥، بأسانيد أربعة، والحافظ ابن ماجة القزويني في سننه ١: ٥٧، والحافظ أبو عيسى الترمذي في جامعه ١٣: ١٦٩ و٢: ٤٦٠ و٢١٣ والنسائي في الخصائص ٢٦ وابن المغازلي في المناقب بأسانيد متوفرة، والبغوي في المصابيح ٢: ٢٧٥ والخطيب العمري في المشكاة ٥٥٦ والكنجي في الكفاية ٥٥٧ والنووي في تهذيب الأسماء واللغات، والمحب الطبري في الرياض ٣: ٧٤ عن الحافظ السلفي وسبط ابن الجوزي في التذكرة ٢٣ والذهبي في تذكرة الحفاظ وابن كثير في تاريخه والسنحاري في المقاصد الحسنة والمناوي في كنوز الدقائق ٩٢ والحمويني في فرائد السمطين ب ٧ والسيوطي في الجامع الصغير وجمع الجوامع وابن حجر في الصواعق ٧٣ والمتقي الهندي في كنز العمال عن (١١) حافظاً والبدخشاني في نزل الأبرار (٩) والفقيه شيخ بن العيد روس في العقد النبوي والشبلنجي في نور الأبصار ١٥٥ كلهم أخرجوه ورووه عن حبش بن جنادة وعمران وأبي ذر الغفاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) رواه البخاري في ٤ من صحيحه عن عمر بن الخطاب وفي الجمع بين الصحاح ٢ من عدة طرق ومنها ما عن جنادة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: علي مني... ورواه ابن المغازلي من عدة طرق بأسانيد.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده وابن المغازلي بالإسناد عنه صلى الله عليه وآله وسلم وابن الأثير في جامع الأصول عن البخاري ومسلم بسنديهما عن البراء بن عازب عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

علي مني منزلتي من الله تعالى»[1].

لا فحسب بل هو نفسه لآية أنفسنا: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

فتارك السبيل مع الرسول ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ قررها الله والرسول.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ فلان الذي خلّ فيّ وأخلّ، وأضلني عن سبيل مع الرسول، أياً كان هذا الفلان، فلان يضل عن رسالة الرسول، فلا سبيل الرسول ولا سبيل مع الرسول! كما أضل ابن أبي خلف عقبة بن أبي معيط، أو فلان يضل عن كامل رسالته حيث يغلق باب مدينة علمه ويفتح أبواباً سدها الله، كمن يصد عن باب مدينة علم الرسول، أم وأي فلان يحول دونك والرسول فيما يفعل أو يقول، مهما اختلف فلان عن فلان، فضلال عن ضلال، أضلّه قطع سبيل الرسول عن بكرتها في نُكرتها.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى﴾ فلان ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ الرسول ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ وذلك خسران مبين وخذلان عظيم ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾.

ومن أخذل من العطشان الذي يأتيه ماء فرات ثم يضله عنه فلان فيموت عطشاناً؟... ومَن أرذل من الذي يؤمن بالرسول ثم يكفر بسبيل صالحة مع الرسول فيضل عن الرسول بعد إذ جاءه.

هنالك سبل مع الرسول إلى الله، من قرآنه كثقل أكبر، ومن عترته كثقل

---

(١) أخرجه الحافظ ابن المغازلي كما في العمدة لابن بطريق ٥٣ بإسناده عن بكر بن سوادة عن قبيصة بن ذؤيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله عنه ﷺ والسيرة الحلبية ٣: ٣٩١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

أصغر، ومن تقوى صالحه اتباعاً للثقلين، وكما الرسول ﷺ هو مجمع الثقلين، مثلث من السبل مع الرسول، كما الرسول سبيل معها، ولكنه هو رأس الزاوية من مربع السبيل إلى الله، فـ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾(١).

كلّ ذلك سبيل معه إلى الله في النهاية، مهما كانت سبلاً إلى رسول الله في البداية، فكلمة واحدة في سائر القرآن ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢) دون سبيل رسول الله أم سواه، ولا يعني ﴿سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٣) إلّا سبيلهم مع الرسول إلى الله وكما قررها الله.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾:

﴿وَقَالَ﴾ علّها عطفاً على «ويوم» حكاية عن قيله يوم العضّ، لأن القرآن هو المحور الأصيل من السبيل مع الرسول ﷺ فهجر القرآن هو هجر الرسول وعترة الرسول.

ثم و﴿قَوۡمِي﴾ لا يخص الظالم الذي يعض على يديه، فإنهم كل من وجبت عليهم الدعوة الإسلامية في طول الزمان وعرضه، فقليل هؤلاء الذين لم يتخذوا هذا القرآن مهجوراً، وكثير هؤلاء الذين اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، وكما نراه طول التاريخ الإسلامي.

ومهما ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ قوله الشاكي عند ربه يوم الأخرى، فهو قائله يوم الأولى، كما نعرفه من طيات شكاواه.

فإن الصلة القرآنية درجات، وهجره دركات حسب ترك الدرجات:

فمنهم من هجروا الإيمان به، فلم يفتحوا له أسماعهم، بل وجعلوا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠.

(٢) يذكر السبيل في القرآن (١١٦) مرة ولا يعني خيرها إلا سبيل الله، أم وسبيل المؤمنين وهي أيضاً سبيل الله.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٥.

أصابعهم في آذانهم، خوفة منهم أن يجتذبهم فلا يملكون لقلوبهم عنه رداً، ثم وهجروا فيه بما هرفوا وخرفوا وألغوا فيه.

ومنهم من أسلم له نفاقاً دون وفاق، إسلاماً في صورته، وكفراً بسيرته وهم المنافقون.

ومنهم من آمن به، سامعين لآياته وقارئين، ولكنهم لا يتدبرون معانيه، ولا يستشعرون مبانيه ومغازيه.

ومنهم من يعتمده الأصل الأوّل والأخير من التشريع الإسلامي، وعلى ضوئه السنة المحمدية، ولكنهم هجروا دراسته، وأخلدوا إلى ما يسمونه علوماً إسلامية، تخيلاً أنها تقدّمهم لتفهمه، وبالمآل نرى الحوز الإسلامية تؤصّل كل دراسة إلّا القرآن، لحد أصبح طالب علوم القرآن ودارسه ومدرسه ومفسره من البطالين في قياسهم، البعيدين عن العلوم الحوزوية، فأصبح القرآن مهجوراً عن حوزاته، لا يدرس إلّا هامشياً دونما تدبر لائق به ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(١)؟ أجل وعلى قلوب أقفالها في إغفالها القرآن وإقفال باب مراسته في دراسته.

فنحن - إذاً - ممن لم يتخذ مع الرسول سبيلاً، حيث هجرنا أعظم السبل معه إلى الله وهو كتاب الله، ومن خلفياته ترك الرسول بترك سنته حيث لا تعرف إلّا عرضاً موافقاً لكتاب الله، فقد تركنا - إذاً - كلا الثقلين، فنحن من الظالمين الذين يشكونا الرسول عند ربه يوم يقوم الأشهاد.

وهكذا راح القرآن يهز القلوب المقلوبة بهذه المشاهد المزلزلة المزمجرة، التي تجسّم فيما يجشّم لهم مصيرهم المخيف وهم بعدُ أحياء يرزقون، وليعلموا أن وعد الله حق.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾:

﴿جَعَلْنَا﴾ هذا جعل تكويني في خلق ﴿عَدُوًّا﴾ لا تشريعاً لعدائه، ولا خلقاً لعداوته، وإنما عدم التسيير في ترك عدائه حيث الدار دار الاختيار في كل خير وشر، دون تسيير وإجبار: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾[1] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤)﴾[2].

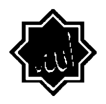
﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي ترى طول الرسالات ﴿جَعَلْنَا﴾ ولكنهم ليسوا ليضروا الله شيئاً، ولا رسل الله ولا المؤمنين بالله ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ برسوله وكتابه تشريعاً، وبما يوفق المؤمنين به تكويناً ﴿وَنَصِيرًا﴾ لهم في معارك الشيطنات ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[3].

إن هدايته تعالى لطلابها ونصرته هنا ذات أبعاد: بُعد الحفاظ على الإختيار، إلّا يُسيِّر أعداء النبوات على ترك عدائهم، وبُعد الحجة البالغة الغالبة على طول خط الرسالات، غير المغلوبة على أية حال، ومن ثم حكمة بالغة هي أيضاً هدى ونصرة للمؤمنين وضلال للكافرين، أن لو كانت

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١١٢، ١١٣.
(٢) سورة الحج، الآيات: ٥٢ - ٥٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٦.

الدعوات الرسالية سهلة ميسورة دون منازع، فهي تسلك طرقاً ممهدة دون خصوم، لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة، مع ما يكسب على ضوئها من منصب عظيم، ولا اختلطت - إذاً - دعاة الحق بدعاة الباطل أكثر مما هو، ووقعت البلابل والفتن أكثر مما هي!.

ولكن بروز الخصوم لهذه الدعوات الرسالية، يضمن كفاحاً لانتصارها، ويجعل آلامها لها وَقوداً، فلا يكافح ويحتمل الآلام والبليات - في الأكثرية الساحقة - إلّا أصحاب الدعوات الحقة، الذين يؤثرون تحقيق الحق على المتاع والدعة الراحة، ولا يتصلب على ذلك الكفاح المرير إلّا أصلبهم عوداً، وأقواهم وَقوداً، وأكثرهم تطلعاً إلى ما عند الله، وعندئذ تمضي دعوة الحق وتمشي في طريقها برجالها الثابتين عليها، الأمناء فيها، المؤدون ضرائبها بكل غال ورخيص، وقد حفزت الشدائد والمخاوف كل طاقاتهم وإمكانياتهم.



﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾:

قالة ضالة مضللة من الذين كفروا عداءً وإجراماً بحق القرآن ونبيه، تأتي مرة واحدة يتيمة بإجابتين اثنتين: و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا هم بين كتابيين ومشركين، المتعودين على كتابات سماوية تنزل جملة واحدة، فالقبيلان قد يعتبران وحي القرآن بدعاً من الوحي ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ كما نزلت سائر كتابات السماء جملة واحدة؟

ومختصر الجواب وعلّه محتصرة: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾.

والفؤاد هو القلب المتفئد بنور تشتعل فيه فتتصاعد كما القلوب الطاهرة، أم بنار عاتمة تتسعَّر فيه: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾[1] ناراً على نار، كما هناك نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

أترى أن فؤاد الرسول ما كان مثبتاً ليحتاج إلى تثبيت بتنزيل القرآن مفرّقاً؟ ولولاه لما نزل إليه وحي القرآن!.

كما أن الأفئدة النيّرة درجات، كذلك لتثبيتها درجات: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وكما تثبّت فؤاده المنير بوحي القرآن المحكم جملة واحدة في ليلة القدر، كذلك يتثبت بوحي القرآن المفصل نجوماً عدة معرفياً وعملياً.

وفي ذلك المكث من تنزيله يثبت قلبه المنير على مكث، وبأحوج إلى ذلك أفئدة المؤمنين: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[2].

هنا تثبيت لفؤاد الرسول كما يناسبه إلى قمم الكمال ولتثبت رسالته إلى المرسل إليهم كافة، حيث هنالك تثبيت لأفئدة المؤمنين إيماناً ومزيد إيمان، ولكيلا يُخيَّل إلى بسطائهم أن الرسول إنما يحدثهم عن نفسه وعقليته:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾[3].

فإنزال القرآن دفعياً ليلة القدر كان بلا وسيط، وتنزيله تدريجياً بذلك الوسيط، تثبيتاً للذين آمنوا، وأصل التدريج في التنزيل ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ لتحور قلوب مؤمنة حول محور فؤاده المنير، إذاعة قرآنية تذيع ما تستذيع، دون ظِنَّة ولا تضييع، ودون فارق في الاستذاعة بينه وبين المرسل إليهم!

(١) سورة الهمزة، الآيتان: ٦، ٧. (٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة النحل، الآيتان: ١٠١، ١٠٢.

فلكلّ من الرسول والمرسل إليهم فائدة وعائدة في تنزيله مفرقاً على نجومه، كلّ كما يناسب حاجيته وحاله.

فكما في قصص الأنبياء تثبيت لفؤاده، وعلى ضوئه أفئدة المؤمنين في حمل أعباء هذه الرسالة السامية: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

كذلك في تدرّج نزوله ككل، أحكاماً وأنباءً غيبته أما هيه، تثبيت لفؤاده المنير، رسولية ورسالية.

فترى قصص الماضين تقص طول العهدين: المكي والمدني، حسب الحالات والمناسبات الرسالية والرسولية، تثبيتاً لفؤاد الرسول والمؤمنين العائشين عبء هذه الرسالة، تخفيفاً عن كواهلهم هنا وهناك، فتراها تتكرر في مختلف الصور، وفي الطول والقصر، اللّهم إلّا قصة يوسف حيث الحكمة اقتضت إفرادها في مجالها المناسب.

﴿وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾ لفظياً كمفتاح لترتيل معنوي، تدرجاً لنزول أمطار الوحي الغزير على أفئدة المؤمنين، وكما يروى عن النبي ﷺ: «إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلاً وبينه تبييناً، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذّه هزَّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكونن هم أحدكم آخر السورة»(٢).

فلتكون القلوب داعية الحركة بدوام البركة، فتتفأد بأنوار المعرفة دائبة، فلا تقف عَجَلة السير فيها، لذلك ﴿وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾ ونزلناه نجوماً.

لقد نزل القرآن لإنشاء أمة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، وليقيم نظاماً دائماً قويماً، والتربية بحاجة إلى تدرّج في موادها، وإلى حركة

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٧٧ - أخرجه الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً عنه ﷺ وأخرجه العسكري في المواعظ عن علي عليه السلام عنه ﷺ.

تترجم التأثر والانفعال إلى واقع المُرام، وليست النفس البشرية لتتحول قفزة من اللّاشيء إلى كل شيء.

لذلك ينزل القرآن منجّماً وفق الحاجات الحية للعالمين، وهي في طريق نشأتها ونموها، حسب الاستعدادات الموهوبة في ظلال المنهج التربوي الرباني الدقيق العميق.

أوامر ونواهي يومية، وإنباءات تلو بعض تتجدد فتُجدِّد الجانب المعرفي والحالة العملية، يتلقاها المسلمون في أحيانها المطلوبة فيها، المحتاج إليها، ليعملوا بها فور تلقيها، كما يتلقى الجندي في ثكنته أو في خط النار ليطبّق واجبة ساعة فساعة، ويوماً فيوماً.

لقد عاش ذلك القرآن العظيم والمعجز العميم طول زمن الرسول، وليكون على حجة وبينة دائبة على طول الخط، ويعلم الناس أنه ليس من عنده، ولو كان لما انتظر في إجابات عن سؤالات نزول الوحي، وليزداد هو والمؤمنون علماً بعد علم، فيعيشوا نظرة الرحمة الإلّهية دائبين ودونما انقطاع.

وأما أن كتابات الوحي السالفة إنما نزلت جملة واحدة لأنها نزلت على أنبياء يقرؤون ويكتبون، ولكن محمداً ما كان يكتب أو يقرأ فقد ينساه، فيطارده قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[1].

ولئن سألت فما هو الفارق بينها وبين القرآن في فرق التنزيل وجمعه؟

أو لم يكن النبيون من قبل بحاجة إلى تثبيت فؤادهم في ترتيل وحيهم، وهم أحوج منه بكثير؟

فالجواب: أن الفارق الأصيل هو أن القرآن آية معجزة بنفسه دون سائر الوحي، فليحشر زمن الرسول على طول، ليعيش آية رسالته ما دام حياً دونما انقطاع، وكما يعيشها المكلفون بعده حتى القيامة الكبرى، وأنه كتاب معرفة

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ٦.

خالدة زائدة على سائر الوحي، فليثبت فؤاد الرسول وأفئدة المؤمنين بترتيله، وسائر الوحي أحكام لا تحمل إنباءات غيبية إلا نذراً قليلاً، وليس فيها نسخ وهو كائن في القرآن، فهو بميّزته في منازل عدة يمتاز بنجومه. . . في تنزيله.

وأن سائر الوحي تحمل أحكاماً تعبدية بسيطة، تعبِّد الطريق للشرعة الأخيرة الخالدة القرآنية.

وعلى الجملة فـ ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ على سند الرسالة في كل سنيّها، وتثبيت لمزيد العلم والمعرفة له، وتثبيت فؤاده على الدعوة به ترتيلاً، وتثبيت وحيه أنه ليس منه، ولو كان لما كان ينتظر الوحي دائباً ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ لك وللمرسل إليهم: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.

لذلك فعلينا نحن العائشين بعد زمن الرسول أن نترتل في القرآن رويداً رويداً، ونرتله على الناس ترتيلاً، دون أن نترسل في آياته كغزير الهاطل فنغرق في خضمِّها، أو نرسل لطلابها فإذا هم غارقون فيها.

ولقد كان رسول الله ﷺ يشارط من يتعلمون القرآن أن يتقنوه علماً وعملاً شيئاً فشيئاً، دون تسرُّع لا في قراءتِهِ ولا في تعلّمه، وإنما ترتلاً وترتيلاً ليأخذ مواضعه من العقول والقلوب والأفئدة، فتثبت عليه الأفئدة، وتتحرك به القلوب، فيصبح أمة القرآن في حركة دائبة بترتيله.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾:

لهم أمثال الباطل، ولنا تفسير الحق، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١).

فحجة القرآن البالغة محلِّقة على أمثالهم الباطلة، دارجة لها إدراج الرياح، دونما إبقاء لها إلّا في ارتتاج.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾:

ذلك لأنهم بكل اتجاهاتهم ووجوههم حشروا يوم الدنيا تأجيل نيران الضلال والإضلال، فيوم القيامة يُحشرون على وجوههم بنفس الوجوه جزاءً وفاقاً فـ ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[1] ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾[2].

حشراً على وجوههم في سحب النار، لأنهم مشوا يوم الدنيا مكبين على وجوههم إخلاداً إلى حياتها: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[3].

وتراهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا﴾ ممن؟ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ ممن هم؟ قد تشير «شرٌّ وأضل» هنا، أنهم قالوا عن الرسول إنه شرّير ضلّيل، فهنا في مجاراة التهكّم هم ﴿شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ فهما في الحق منسلخان عن التفضيل، وفي حوار المجاراة، وتنازل المحاكاة تفضيل، ويكفيهم - إذا كان هناك شر وضلال، أنهم هنالك ﴿شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾!

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿٣٦﴾﴾:

هنا يتقدم إيتاء الكتاب: التوراة، على الإرسال، وهو متأخر عنه وعن غرق فرعون بجنوده؟ لأن الكتاب هو محور الرسالة والرسول داعية له!.

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٢) سورة القمر، الآية: ٤٨.
(٣) سورة الملك، الآية: ٢٢.

وفي ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ تلميحة لطيفة للمعني من «سبيلاً» في ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أنه وزيره علي عليه السلام كما هارون مع موسى، وقد يروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم متواتراً: يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ...﴾ دليل على عدم اختصاص رسالته ببني إسرائيل، بل والقبط المشركين المستكبرين أيضاً ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

«وآياتنا» هنا تعم الآيات الموسوية التسع وسائر الآيات آفاقية وأنفسية، ومن الأولى آيتا الرسالة: موسى وهارون.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾:

و﴿ءَايَةً﴾ هنا للناس كل الناس، سواء من ركبوا السفينة ونجوا، أم من بعدهم وإلى يوم الدين، حيث التناقل التأريخي خلَّد ذكراهم، إضافة إلى آية من السفينة نفسها، شرحناها في «الحاقة».

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ...﴾[1] تبيناً جغرافياً إضافة إلى تبين تأريخي ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾[2].

وعلّ ﴿ٱلرَّسِّ﴾ البئر التي لم تطو، أم نهر كانوا على شاطئه، وهم قوم بعد ثمود نازلين هنا أو هناك، أرسل الله إليهم رسولاً فكذبوه.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.
(٢) سورة ق، الآية: ١٢.

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ منذ نوح وأصحاب الرس ﴿كَثِيرًا﴾[1] ذكر أنحسهم في سائر القرآن بسائر المناسبات:

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾:

﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ التي تبين مواقفهم النكدة من الرسالات ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا﴾ إهلاكاً مستأصلاً بتكذيبهم ﴿تَتْبِيرًا﴾ قاهراً.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾:

ومن سيرهم جغرافياً ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ هؤلاء المكذبون ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ حجارة من سجيل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾[2] فهم أتوا هذه القرية وهي سدوم، حيث مصرع قوم لوط، وهم يمرون عليها رحلة الصيف إلى الشام، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في هذه الرحلات المتكررة؟ بلى ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ فيحسبونهم هلكى لا يرجعون!

---

(١) القرن مائة سنة وكما في الدر المنثور ٥ : ٧١.
أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق محمد بن القاسم الحمصي عن عبد الله بن بسر المازني قال: وضع النبي ﷺ يده على رأسي وقال: سيعيش هذا الغلام قرناً قلت يا رسول الله ﷺ كم القرن؟ قال: مائة سنة، قال محمد بن القاسم ما زلنا نعد له حتى تمت مائة سنة ثم مات، وأخرج ابن مردويه عن أبي الهيثم بن دهر الأسلمي قال: قال النبي ﷺ: القرن خمسون سنة.
أقول: وفي روايات عدة عنه ﷺ أنه أربعون سنة والأولى هي المصدقة بالواقع المعروف لدى الكل.

(٢) سورة هود، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾
إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ
حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ
أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ
يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ
كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾
ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا
وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا
بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ
مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ
لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي
كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا
﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ
بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ
وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا
وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ
رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ

وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ...﴾ حماقى الطغيان المكذبون للرسل ﴿رَأَوْكَ﴾ تدعى رسالة الوحي، وقد رأوك قبله عمراً دون هذه الدعوى، وكانوا يحترمونك واثقين بك، ولكنهم الآن ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ دون أي جديد أو سناد لهزئهم إلّا عُجاب في تباب: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ وهو بشر مثلنا بل وأدنى، إذ لم يؤت مثل ما أوتينا من مال ومنال. ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ التي عشناها طول عمرنا وعاشها آباؤنا الأوّلون، إضلالاً عن حيويَّتنا وتراثنا ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ﴾ و لكنهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ منذ الموت ﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ «يعلمون» - ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؟ أهم المشركون أم رسولنا الصادق الأمين؟

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١) (٢).

هنا وهناك ﴿إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ دون «هواه إلهه» فإلهه الذي تجب عليه عبادته

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) الدر المنثور ٥: ٧٢ - أخرج الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ...

وطاعته، وهو الله الذي يعترف به كإله أصل مهما أشرك به، اتخذ ذلك الإله هواه، فلا يعبده إلّا كما تأمره هواه، فهو - إذاً - يؤلّه هواه فيما يعبد من إله، والشرك بأظافيره هو من مخلفات تأليه الهوى، غير المعقولة بعقل الهدى، وإنما هوى النفس الأمارة بالسوء.

أجل! ولأن كل عبادة وطاعة لمن دون الله، خارجة عن حكم الفطرة والعقل، وكافة الآيات آفاقية وأنفسية، اللهم إلّا ما تهوى الأنفس، فهي كلها من عبادة الهوى ومطاوعتها وطاعتها، وحين يكذبهم - يوم الأخرى - شركائهم من دون الله في عبادتهم إياهم، علّهم يعنون كونهم عبدة أهوائهم، فعبادتهم إياهم هي من خلفيات تلك العبادة، فالهوى - إذاً هي الأصيل المعبود والإله المقصود في كل مسارح الإشراك، والشركاء فروع غير أصلاء! وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع»[1].

وذلك تعبير منقطع النظير، يرسم نموذجاً عميقاً لحالة نفسية بئيسة تعيسة طائشة، حين تتفلت النفس عن كافة المعايير والمقاييس الفطرية والعقلية، وكأنما الإنسان في هذه الحالة هو الهوى وهي هو، فلا عقلية له ولا فطرة ولا أية فكرة، فإنما السلطة الكاملة والشرعية المطلقة هي لهواه.

﴿أَفَأَنتَ﴾ بعد هذه الضلالة المعمقة ﴿تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ وقد ضل هكذا ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا وكالة لك في هداه ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾ لو أن له هدى ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾؟!

هؤلاء الحماقى هم موحدون في تأليه الهوى، إذ لا يتخذ أحدهم إلهاً إلّا هواه، وكما الحصر مستفاد من صيغة التعبير.

---

(١) راجع تفسير الآية في الفرقان ج ٢٥ سورة الجاثية تجد تفصيل البحث حولها هناك.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١].

هنا وهناك تعرّض وتجريح منصف لمكان ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ أو «كثيراً» دون تعميم لكافة المشركين، فمنهم من يسمع أو يعقل فيهتدي، أم وإذا لا يهتدي ويضل فهو لا يكذّب ولا يضُل.

ولأن السمع هو الأكثر فاعلية وقابلية لدرك الحقائق بين الجوارح، والعقل أكثرها كذلك بين الجوانح، ترى كلاً يحتل هناك رأس الزاوية لهندسة الإدراك في بيئة الإنسان.

ثم وبين السمع والعقل عموم من وجه، فقد يسمع ولا يعقل، وقد يعقل دون وسيط السمع، وقد يعقل فيسمع، أو يسمع فيعقل، فالخاوي عن سمع الإنسان وعقله خاوٍ عن ميّزات الإنسان، فهو كالأنعام، فـ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ في انعدام عقل الإنسان وسمعه: ﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[٢] «فلما جحدوا ما عرفوا ابتلاهم بذلك فسلبهم روح الإيمان وأسكن أبدانهم ثلاثة أرواح: روح القوة وروح الشهوة وروح البدن ثم أضافهم إلى الأنعام فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ لأن الدابة إنما تحمل بروح القوة، وتعتلف بروح الشهوة، وتسير بروح البدن»[٣].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٢.

(٣) تفسير البرهان ٣: ١٦٩ محمد بن يعقوب بسنده المتصل عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل فأما أصحاب المشأمة فمنهم اليهود والنصارى يقول الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] يعرفون =

لا فحسب ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام، حيث فقدان سمع الإنسان وعقله في الأنعام قصور دون تقصير، وأين ضلال قاصر من ضلال مقصر؟ ثم البهائم في هدًى من سمع الحيوان وعقله دون تقصير، حيث تعرف بهما الرب وتعبده، ولكن هذا الإنسان الأضل مسامح حتى عن عقلية الحيوان وسمعه كما سامح عنهما كإنسان، فلا تجد في قلبه نور هدى حتى قدر الأنعام، فهو - إذاً - أضل من الأنعام في بعدين بعيدين، ضلالين عن تقصير، مهما كانت الأنعام ضالة عن قصور!

بل وهو أضل من كل شيء فـ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1]!

فسبيل هذا الإنسان في حياته أضل من أيٍّ كائن من جماد ونبات وحيوان، حيث خان كافة أمانات الإنسانية وهن أبين أن يحملنها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2]!

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾:

تعديد لقسم من بدائع الخلقة ورحمات الربوبية البديعة، التي هي مسارح للكون وكلها مصارح أن ليس هنالك بدع في الخلقة مهما كانت كلها بديعة، وكذلك وحي الرسالة الأخيرة ورسول الوحي الأخير، ليس بدعاً، حيث السنة الرسالية هي متصلة الجذور، موحدة المعاني، وحيدة المباني، مهما اختلفت في البعض من صورها أحكاماً ودعاية ودعوة وداعية، في غير جذور.

= محمداً ﷺ والولاية في التوراة والإنجيل كما يعرفون أبناءهم في منازلهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين. . .

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ رؤية معرفية إلى الرب، ورؤية بالبصر والبصيرة إلى أعلام الربوبية، والمخاطب الأوّل هو الرسول ﷺ ثم الذين معه، ومن ثم العالمون أجمعون، حيث هم جميعاً مدعوون إلى تلك الرؤية الربانية.

﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ ظل الشمس وكل ذي ظل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾(١) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾(٢).

والظل هنا هو المتحرك بحراك الشمس وسواها من ذوات الأظلال، تركيزاً على الشمس لأنها الظاهرة بينها للناظرين، إذاً فمدّ الظل هنا هو المدّ الحركي إضافة إلى سائر المد الطولي والعرضي.

﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ ولن يشاء ﴿لَجَعَلَهُۥ﴾: الظل ﴿سَاكِنًا﴾ بسكون الشمس... ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ...﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فالشمس هي دليل الظل وليست هي صاحبة الظل، بل هي مصاحبة الظل لكل ذي ظل تحت ظل الشمس.

ثم هذا الظل الممدود لا يدوم، حيث الشمس في إشراقتها في كل أفق لا تدوم، بل ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾: الظل ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ بقبض الشمس الدليل عن كل أفق إلى آخر، مما يدل على حراك الشمس وكروية الأرض.

الشمس بأظلالها - هنا - قد تعني شمس الحياة الحقيقية، حيث أظلت في الحياة الدنيا ظلالاً، ثم تقبض ظلالها قبضاً يسيراً، وهكذا تكون الحياة الدنيا.

ثم ومشهد الظل الوريف الظريف بمختلف المظاهر حسب مختلف الآفاق وذوات الأظلال، ليوحي إلى النفس بنظرة للشمس الشارقة على

(١) سورة النحل، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٥.

الأجسام، وهي شمس الهداية الربانية، وهي دين واحد بأظلال عدّة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ. . .﴾[1].

فشمس الهدى واحدة من الرب، وهي دليل أظلالها في الشرايع الخمس، كلما قبض ظلٌّ ظهر ظلٌّ آخر، وذلك القبض المتواتر للأظلال سنة دائبة حتى الظل الأخير في الشرعة المحمدية، وكما للشمس ظل أخير في إشراقتها الأخيرة.

قبض يسير في زمنه، يسير في القدرة الربانية، غير عسير في أية مجالة، فليعتبر ناظر إلى هذه الشمس بأظلالها، أن شمس الهداية الربانية نظيرتها، تجاوب كتابي التشريع والتكوين، رائعاً بارعاً لكل ناظر بصير.

وإن شمس الهداية القرآنية، الشارقة بأنوارها على قلب رسول الهدى، هي بظلالها، الملبس المريح، والظل الظليل، والروح المحيي في هاجرة الكفر والعناد والعصيان، في هجر الصحراء القاحلة الجاهلة المحرقة، في العهد المكي الوبيء، والعهد المدني الندي.

فكما لو كانت الشمس ساكنة، فالأظلال - إذاً ساكنة، استحالت الحياة في ظلها الدائب دون حراك، ولو كانت سرعتها أبطأ أو أسرع مما هي الآن، لاستحالت أيضاً أو صعبت، كذلك الظل في شمس الهداية الربانية، حيث يخلّف حياة ميتة دون حراك، ولكنما الأظلال المتواترة، حسب الآفاق المعرفية، والقابليات والفاعليات، مما تجعل العالمين في حراك دائب، تقدمة دائبة إلى الكمال اللائق، وتجربة مكملة لكل الأجيال: ﴿. . . لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَنكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

إذاً فتنزيل القرآن جملة واحدة، وأنه رأس الزاوية في آيات الرسالات، وما إلى ذلك من ميّزات هذه الرسالة الأخيرة، إنه الظل الظليل الدائب لشمس الهداية الربانية، وليس بدعاً من الأظلال، مهما حلّق على كل الأظلال، استئصالاً لكل إضلال، فإنما هو ظل ممدود منذ بزوغ شمسه، في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، وكما يروى «القرآن يجري كجري الشمس».

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾:

كأننا حين نتّشح بظلام الليل نلبسه كلباس، ففيه تنقطع الحركات، فتغطية ظلام الليل للنشوز والقيعان وأشخاص الحيوان، كما تغطي الملابس الضافية، وتستر الجنن الواقية واللباس هي أفصح العبارات عن هذا المعنى. ثم وفيه النوم انقطاعاً عن حركات النصب فهو سبات، كلباس آخر على الإنسان، ثم يتنفس الصبح فيتنفث الروح في حياة البدن كما كان، وتنبعث الحركات فهو نشور عن هذا الموت القصير اليسير، أفلا يدل تلاحق الليل والنهار بلباس السبات ونشور النهار، على إمكانية تلاحق الموت والحياة، وفي واقعه حق العدل وعدل الحق؟

﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾:

﴿الرِّيَاحَ﴾ هنا ليست كل الرياح، حيث البعض منها نُذُرٌ بين يدي غضبه، و﴿رَحْمَتِهِ﴾ هنا الماء النازل من السماء، فمهما كانت الرحمات المادية عِدة

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

ولكن الماء هو أمُّ الرحمات: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1] لذلك فـ ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ هنا وكأنها كلها، تعبير عن ماء السماء.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ في جمعية الصفات «نا» تلميحة أن ماء السماء يحمل جمعية الرحمات، دلالة ثانية على عظم الرحمة في الماء، ومن عوائده: «لنحيي... لنسقي» إحياءً لميتات، واستبقاءً لحياةٍ.

و﴿طَهُورًا﴾ في مواصفة الماء تجعله في قمة الطهارة بين الأطهار، فلو كان طاهراً في نفسه غير مطهر لغيره لكان «طاهراً» لا «طهوراً» والفعول مبالغة في الطاهر، ولا معنى لمبالغة الطهارة إلّا أن تتخطى الطاهر إلى سواه، تطهيراً لما سواه من قذارات ونجاسات، وأحداث وأخباث، فيشمل الطهارتين على غرار التفاصيل المسرودة في السنة المباركة.

وقد فصلت هذه الطهورية وفُسِّرت في الأنفال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[2] وهو الجنابة، فبأحرى إذهاباً للحدث الأصغر.

وترى ذلك الطهور ماء السماء، فأين الطهورية لمياه الأرض؟ إنها كلها من نازلة السماء: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[3] ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾[4] وفي الخبر «التراب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج»[5] و«طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبعاً»[6] ولولا أنه يعني المطهر لم ينتظم

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١١.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٨.
(٤) سورة النحل، الآية: ٦٥.
(٥) تفسير الفخر الرازي ٢٤: ٩٠ نقلاً عن النبي ﷺ: ...
(٦) المصدر السابق نفسه.

معناهما! فسواء أكان الطهور مبالغة أم اسم آلة وهو ما يتطهر به فالمعنى واحد.

فما دام صدق اسم الماء يقيناً أو استصحاباً، فحكم الطهور ثابت يقيناً أو استصحاباً، وحين لا يصدق عليه اسم الماء، أو يُشك فيه شكاً بدائياً أنه ماء أم ليس ماءً، دون علم بحالته السابقة، فليس - إذاً - طهوراً، اللهم إلّا طاهراً لقاعدة الطهارة، اللهم إلّا في المعلوم عدم كونه ماءً وقد دخل فيه النجس فمحكوم بالتنجس - على خلاف - أم عدم التطهير به دون خلاف.

وعلى حدّ المروي عن الرسول ﷺ: «الماء طهور لا ينجسه شيء»[1] اللهم إلا إذا أخرجه عن اسمه فليس - إذاً - ماءً حتى يكون طهوراً.

وكما أن ماء السماء الطهور يطهِّر الميتات عن نجاسات الموات، ويستديم الحياة، ويطهر عن الأخباث والأحداث، كذلك - وبأحرى - ماء الهدى النازل من سماء الوحي: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾[3] فإنه يحيي القلوب الميتة المتحرية عن حياة.

فقد يعنيهما معاً دون تأويل ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ...﴾. وأين طهور من طهور؟!

وكما نرى عند هذا المقطع من استعراض المشاهد الكونية يلفت أنظار الناظرين إلى مصرّف القرآن النازل من أعمق أعماق سماوات الوحي، تطهيراً للقلوب والأرواح:

---

(١) الدر المنثور ٥: ٧٣ - أخرج الشافعي وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال قيل يا رسول الله ﷺ أنتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن؟ فقال:...

(٢) سورة يس، الآية: ٧٠.

(٣) سورة التكوير، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾:

والتصريف هو الصرف من هنا إلى هناك وهنالك، والله يصرف المعارف القرآنية بالمعارض الكونية المعروضة بين أيديهم ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ من المحسوس إلى سواه، حيث الكتابان: تكويناً وتدويناً - متجاوبان.

﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾: الوحي ككلّ في مصارف عدة حسب الحاجيات والقابليات والتطلبات المعقولة، و﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾: القرآن في منازل القلوب كما يصرف ماء السماء: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[1] والقلوب أوعية فخيرها أوعاها ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ في تاريخ الرسالات، و﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ في هذه الرسالة الأخيرة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ كفران نعمة الوحي أو كفراً به، فقليل هؤلاء الذين يؤمنون، والكافرون كثير.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾:

﴿لَبَعَثْنَا﴾ و﴿نَّذِيرًا﴾ مما يختص بالمرسلين دون سائر الدعاة إلى الله ﴿وَلَوْ﴾ تحيل تلك المشيئة الفوضى، أن يبعث في كل قرية نذيراً، وكأنهم قراء التعازي ومجهزي الأموات، فتصبح الرسالة رخيصة بخيسة ولعبة بأيدي الناس.

فإنما الرسالة - أية رسالة - لا بد أن تكون في أمهات القرى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾[2].

ثم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[3] إنما

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٩.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

تستغرق النذارة لكل أمة، لا كل قرية، فكل أمة منبثة في قرى يبعث الله في أمها رسولاً.

ذلك في عامة الرسالات، وأما الخاصة ولا سيما في أولي العزم الذين دارت عليهم الرحى، فالرسالة الأصيلة في كل قرية مستحيلة في بُعد ثان إضافة إلى الأوّل، وكيف يبعث في كافة القرى في كل أنحاء العالم رسل كمحمد ﷺ ولا سيما في الطول التاريخي، كلما مات محمدون أتى محمدون آخرون!.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في متطلباتهم الهباء الخواء، ولا تسايرهم، بل ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ بالقرآن ويعثتكِ لبثّه ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ مدى كبر هذه الرسالة الخالدة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾:

المرج هو الخلط فقد يكون تماماً في مزج تام، ولا برزخ - إذاً - بينهما، أم هو مرج القرن، ألّا فاصل محسوساً بين بحري العذب الفرات والملح الأجاج، وهو المعني من مرجهما هنا ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ فاصلاً ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عبارة أخرى عن الفاصل بينهما، فقد خلاهما في مذاهبهما، وأرسلهما في مجاريهما كما تمرج الخيل، أي تخلى في المروج، وهي مواضع مراعيها، ووجه العجاب هنا أنه سبحانه مع التخلية بينهما في تقاطعهما، والتقائهما في منافعهما، لا يختلط الملح بالعذب، ولا يلبس العذب بالملح، إذ قد مرج بينهما.

ثم هنا من ماء السماء، إلى ماء الأرض والبحر وإلى ماء النطفة، فكل منها مادة للحياة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾:

أترى ﴿ٱلْمَآءِ﴾ هنا هو مطلق الماء الذي جعل منه كل شيء حيٍّ، فـ ﴿بَشَرًا﴾ يعم البشر الأول كنسله سواء؟ ولم يخلق آدم من ماءٍ - فحسب - بل من تراب وطين! ﴿... وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾[1].

فـ ﴿ٱلْمَآءِ﴾ هنا هو خصوص ماء المني، كما ﴿بَشَرًا﴾ يخص نسل الأبوين الأولين.

ومقابلة ﴿وَصِهْرًا ۗ﴾ بـ ﴿نَسَبًا﴾ قد تدلنا أنه السبب التالي للنسب، فالأوّل من ذلك الماء نسب من بنين وبنات، وأحفاد، ثم الثاني سبب في زواج البنين بالبنات الأغارب، والبنات بالذكور الأغارب، فالنسب هو الماء الأول، والصهر السبب هو التالي، وقد يعني النسب الذكر، والأنثى هي الصهر لأنها موضع الصهر، وعلى أية حال فهو السبب قبال النسب، أياً كان سببه.

﴿فَجَعَلَهُۥ﴾: الماء البشر قسمين ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾ - ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ لا يغلب على أمره.

ورغم أن الخلايا الذكورية والأنثوية، من كروموزمات وجينات تكوّن النويَّة الصغيرة، خلايا وبويضات متشابهة، نراها تُنشئ ذكوراً وإناثاً بطريقة عجيبة، ولحد الآن ما اطلعت البشرية على تقدمها العجيب، على الميّزة التي تجعل واحدة ذكراً وأخرى أنثى ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾:

﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ واضح لا مرية فيه، فكيف ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾ وإن الشرك

(١) سورة السجدة، الآيتان: ٧، ٨.

لظلم عظيم؟ إنه ليس مطلق الضر، وإنما ضر في ترك عبادتهم أن يعاقبوهم هنا أم في الأخرى، ولكن الله ينفعهم عابدين، ويضرهم تاركين، في الأولى وفي الأخرى.

وهذه حماقة كبرى أن تترك عبادة من ينفع ويضر إلى عبادة ما لا ينفع ولا يضر هباءً منثوراً! ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ منذ كفره المعمّد ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ مستظهراً بعباده عليه، ولن يضروا الله شيئاً.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾:

وعلّ تقديم ﴿مُبَشِّرًا﴾ على تأخره في الدعوة عن ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأنه هو الأصل المُرام، وهذا تحضير للمَرام.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾:

إن المودة في القربى التي طرحت بصيغة الأجر: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(١) إنها ليست في الحق أجراً للرسالة فإنها ليست إلا لكم دوني: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾(٢) (٣).

فـ ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ هو المسؤول عن ذلك الأجر، وهي السبيل مع الرسول إلى الله: ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾(٤) حيث المودة في هذه القربى تقربكم مع الرسول إلى الله زلفى.

ففي الحق أن المودة في القربى أجر للرسالة حيث تبلِّغها كما تُرمى، وليست أجراً للرسول إذ لا يرجع إليه نفعها، فهو استثناء متصل من جهة، منفصل من أخرى.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٧.
(٣) راجع لتفصيل البحث إلى الفرقان في سورتي الشورى والسبأ.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٧.

أجل - ليس للرسول مطمع ومطمح في أجر لهذه الرسالة الناهضة الباهضة على أعبائها، فليست هناك إتاوة ولا نذر ولا قربان يقدِّمه المسلم لكي يسلم، فلا كاهن هنا يتقاضى ثمن كهانته، ولا وسيط يقبض أجر وساطته ولا هنا رسم دخول، وإنما يدل هذا الدين بكل بساطة، إقراراً بالشهادتين، وتقريراً لمعناهما حسب المستطاع: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ وهذا هو وحده الأجر إن صحت صيغة الأجر، وهي تصح في لطافة التعبير وأناقته، ثم يا رسول الهدى، لا عليك في هذه السبيل الشاقة الطويلة من سبيل إلّا:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾:

لا توكُّل لكَ ولا عليك هنا على دعوتك ولا على المدعوين لك، وإنما ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ فـ «توكل» ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ﴾ تنزيلاً له في إيجابية الصفات عما يوجب التحديد والتشبيه، فسبّحه فيها عن كل تشبيه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾ لا سواه ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ وعقباهم في أعمالهم المستوخمة في أولاهم وعقباهم ﴿خَبِيرًا﴾ لا يعزب عنه من مثقال ذره: ، فإنه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾:

خلقهما في ستة أوقات ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1] قبل أن يخلقهما ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ برحمة عامة بعد خلقهما، فهو الذي أحاط بهما قدرة وعلماً ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

فالرحمن الخالق لهما هو الرحمن المسيطر عليهما المدبر لهما ﴿أَلَا لَهُ

(١) سورة هود، الآية: ٧.

﴿ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾[١] والاستواء على العرش هنا هو السلطة الرحمانية العامة بعد خلقه واقعاً، مهما كانت له السلطة العلمية قبله تقدير الواقع[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ﴿٦٠﴾﴾:

المشركون رغم ما هم مقرون بالرحمن ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٣] ولكنما التعوُّد على عبادة شركائهم جعلهم كأنهم ناكرو الرحمن، لحدّ ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ تعبيراً عنه في نكران ذي بعدين بعيدين عن كافة الآداب، فـ «ما» هي لغير ذوي العقول، ثم سؤال الاستعجاب به جواب عجاب عن السجود للرحمن ﴿وَزَادَهُمۡ﴾ ذلك القيل ﴿نُفُورٗا﴾ عن الرحمن.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾﴾:

بروج السماء تُطلب من سورة البروج، وخلفة الليل والنهار هي إتيان كلٍّ خَلف الآخر كخليفة له، فمن أراد أن يذَّكَّر التوحيد فهذه الخلفة تفيده أن هناك فاعلاً مختاراً واحداً لوحدة النظم بألوان النظام، ومن أراد شكوراً أن يذّكر المعاد، فهما كتواتر الموت والحياة خلفة بعض، ومن أراد أن يذكر ذكر الليل الفائت بالنهار، أو ذكر النهار الفائت بالليل فكلّ خلفة بعض[٤].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) البحث المفصل في الأيام الستة تجدها في فصلت، وعند العرش في الحاقة وأضرابهما.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٩.

(٤) في الفقيه قال الصادق عليه السلام كل ما فاتك بالليل فاقضه بالنهار قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرۡ﴾ الآية يعني أن يقضي الرجل ما فاته بالليل وبالنهار وما فاته بالنهار بالليل. أقول: وما الطفه استنباطا من الآية!

ففي حالة الاضطرار أو النسيان كلٌّ منهما يخلف الآخر فيما يخصه لحالة الاختيار، فالفرائض الليلية تقضى نهاراً، والنهارية تقضى ليلاً كما تقضى كل في زمنه بعد مضي وقته.



﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾

هنا مواصفات لعباد الرحمن، إيجابيات سبع وسلبيات خمس، عدد الشهور، كأنها تجمع أعمال السنة:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾:

والهون ضماً مذموم، وهو التذلل من جهة متسلِّط مستخف به ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾[١] وهو بالفتح تذلّل في قرارة النفس تخضعاً لله وتواضعاً لعباد الله دون غضاضة ورضاضة، وهذا من ميِّزات عباد الرحمن وذلك لعباد الشيطان.

والمشي على الأرض هو الحياة الأرضية مشياً أم دون مشي، قياماً أو قعوداً، ولأن المشي هو الأصل البارز في حراك الحياة، لذلك ﴿يَمْشُونَ﴾ دون سواه، وكما القيام يعم كل حراك في الحياة.

ويقابلهم عباد الشيطان الذين يسطون - وحتى - على الرحمن، في قولتهم الخواء ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟!

هؤلاء الأكارم يتبنّون حياتهم هوناً مع الله ومع عباد الله التقاة، وأما مع الطغاة فلا هون، وأكثر تقديره «سلاماً» دون هون ولا استكبار، ثم التكبر مع المتكبر عبادة.

فلأنهم عباد الرحمن فهم جِبِلَّتُهم التواضع، فالماشي هوناً «هو الرجل يمشي بسجيته التي جبل عليها ولا يتكلف ولا يتبختر»[٢].

فلا يعني ﴿هَوْنًا﴾ أنهم يمشون متماوتين أذلّاء منكسي الرؤوس، متهاوي البنيان، فهذا رسول الله أفضل عباد الرحمن كان أوقر الناس وأحسنهم وأسكنهم مشياً «كأن الشمس تجري في وجهه» و«كأنما الأرض تطوى له»[٣]

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

(٢) تفسير البرهان ٣: ١٧٣ - الطبرسي في الآية قال قال أبو عبد الله عليه السلام: ...

(٣) زاد المعاد في هدى خير العباد لشمس الدين أبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية عن أبي هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأن الشمس تجري في وجهه وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأنما الأرض تطوى له وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث.

«إذا مشى تكفأ تكفياً كأنما ينحط من صَبَب»[1] ارتفاعاً من الأرض بجملته كحال المنحط من الصبب وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة.

يمشون على الأرض سهلة هينة لينة، دون مَرَح أو جبروت وخيلاء ولا تنفُّج ولا تصعير خد أو تخلُّع أو ترهُّل، فالنفس الزكية السوية المطمئنة تخلع من صفاتها على مشية صاحبها في الحياة الأرضية بكل حركاتها وسكناتها، بكل وقار وطمأنينة وسكينة.

إنهم هون حتى مع الجاهلين، دون المتعندين المستكبرين، فهناك هم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾[2].

٢ - ﴿. . . وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾﴾:

فالمخاطبة الجاهلة لا تبعثهم لحراك في عراك مع الجاهلين، والاشتباك مع السفهاء والحمقى، ترفعاً عن المهاترة، لا عن ضعف أو خوف لمقابلة بمثل، وإنما صيانة للوقت، واستعلاء على الموقف، وتزكية لنفوس جاهلة بمقابلة ﴿سَلَـٰمًا﴾ علها ترجع عن غيها.

وليس ﴿قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ - فقط - قولهم: سلاماً، فقد يرجع ذلك القول إلى تحريض لهم أكثر، كمن هم عارفون بعض الشيء هذه الآية، فإذا قلت سلاماً انبروا: أنت تعتبرنا من الجاهلين في قولك سلاماً؟

وإنما ﴿سَلَـٰمًا﴾ هو قول يجعلهم في سلم عن جهالتهم، تنازلاً عن غلوائهم، وذلك القول السلام يختلف بمختلف الحالات والطويات.

ومن ناحية الأدب اللفظي ليس سلاماً مفعولاً لـ ﴿قَالُواْ﴾ بل هو وصف

(١) المصدر عن علي بن أبي طالب عليه السلام كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مشى. . .
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

لمفعول كقولاً، قالوا: قولاً سلاماً، ومنه السلام عليكم، ومنه سواه كما يناسب معالجة الموقف الجاهل أو المتجاهل.

هذه مشيتهم في وضح النهار، وأما هم في ظلم الليل:

٣ - ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾:

إن حراكهم في جنح الليل والناس نيام هي حركات السجدة والقيام، وهما تعبيران عن التهجُّد وسائر القيام في ظلم الليل.

وهنا ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ تزيل وصمة الرئاء، وكل سِمة غير ربانية هي في الحق وصمة البيتوتة، وإنما هي ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ لربوبيته لهم، وأن السجود والقيام يربيانهم ويقربانهم إلى ربهم زلفى.

إنهم يقومون عن نومة مُلذَّة مريحة لألذ منها وأريح روحياً، فما ألذ ذكراك في ظلم الليل يا رب، وحين نضع لك خدودنا على التراب يا رب، وحين نبكي لفراقك بذنوبنا يا رب، فما ألذّ ذكراك، وما أعز دعواك؟.

٤ - ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾:

﴿يَقُولُونَ﴾ في قيامهم وسجودهم ليل نهار ﴿رَبَّنَا﴾ وما ألذ نداءً وما أعزه لنا أن يسمح لنا بالقول الدعاء: ﴿رَبَّنَا﴾ وهم على ما هم عليه من عبادة وارتياضة لربهم يتخوفون من عذاب جهنم، ولا يحتمون لهم على الله الجنة: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ هنا في الأولى صرفاً عن أقوال وأعمال وأفكار ونيات جهنمية، وهناك في الأخرى عما نستحقه من عذاب بما اقترفناه بما نتوب إليك في الأولى، أو يشفع لنا أهلوها.

فمهما تعذبنا في الأولى في أذيّات وحرمانات في سبيلك ﴿رَبَّنَا﴾ فهي ملذات في هذه السبيل، وليست غراماً لزاماً، وأما جهنم الغضب العذاب

فـ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾: لزاماً، فجحيم الدنيا في أعمالها الجهنمية لزام إن لم تعف عنا ﴿رَبَّنَا﴾! وجحيم الأخرى لزام إن لم تصرفه عنا ﴿رَبَّنَا﴾! فَصرفاً صرفاً ﴿رَبَّنَا﴾! ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾!

٥ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾:

إنهم حياتهم قوام في كل قعود وقيام، دون إفراط أو تفريط، وإنما عوان بين ذلك قوام، ونموذجاً لذلك القوام موقفهم في إنفاقهم في سبيل الله، مالاً أو حالاً، نفساً أو نفيساً، اللهم إلّا فيما القوام يتطلب استئصالاً كما القتال في سبيل الله.

إن القوام الوسط العفو هو أدب الإنفاق ودأبه الدائب لعباد الرحمن ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[1] وهو الزائد عن حاجيات الحياة غير المسرفة ولا المبذرة ولا المكتنزة، اللّهم إلا في حالات استثنائية تتطلب إنفاقاً أكثر، كتبصرات على قانون العفو، فـ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[2] فلا إسراف في الإنفاق، أن ينفق حتى من ضروريات حياته المنزلية، أن يجعل أهله جياعاً أم مُضيَّقين وهو ينفق نفقتهم في سبيل الله! ولا قَتراً أن يبخل بإنفاق الزائد عن حاجياته ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ وهو ما يقوم به الشيء، قواماً لحياته، وقواماً لحياة المحاويج، دون تهديم لحياة وإقامة لأخرى.

وذلك الإنفاق يعم الإنفاق على نفسه وأهله وسواهم، فمثلث الإنفاق لعباد الرحمن قوام خارج عن الإفراط والتفريط[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

(٣) تفسير البرهان ٣: ١٧٣ - الكليني عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن أبي عبد الله عن محمد ابن عمر وعن عبد الله بن أبان قال سألت أبا الحسن الأول عليه السلام عن النفقة على العيال فقال: «ما بين المكروهين الإسراف والإقتار» أقول: وهو استفادة لطيفة من آية القوام.

ومثلاً لطيفاً للقوام ما يخرج من بين الأصابع ويبقى في الراحة منه شيء[(١)]، فإنه راحة لصاحب الراحة ولمن يخرج لهم من بين أصابعه.

٦ - ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾:

وهذا هو التوحيد فكيف تأخر عن لزاماته؟ علّه خالص التوحيد، تخلّصاً عن الرئاء والسمعة في الإنفاق وفي سائر العبادة، فالتوحيد هو الأساس لـ «عباد الرحمن» وهو مفرق الطريق بين كل صالح وطالح، عقيدة وعملاً وإيماناً.

٧ - ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾:

وهذا مفرق الطريق بين الحياة الآمنة المطمئنة، التي تحترم الحق، والنفوس المحرمة المحترمة، وحياة الفوضى التي لا أمن فيها ولا فلاح.

٨ - ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾:

ومن عضالة هذه الفاحشة الكبيرة قرنها بقتل النفس وبالإشراك بالله ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

و«ذلك» هنا هو المحرمات الرئيسية الثلاث: «الإشراك بالله - قتل النفس - الزنا»[(٢)] والأثام هو وبال الأمر، ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ يوم الدنيا قليلاً وفي الأخرى كثيراً، وبذلك يفسر ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ فإنها ليست

---

(١) تفسير البرهان ٣: ١٧٣ - الكليني بسنده المتصل عن عبد الملك بن عمرو الأحول قال: تلا أبو عبد الله عليه السلام هذه الآية «آية القوام» فأخذ قبضة من حصى وقبضها بيده فقال: هذا الإقتار الذي ذكره الله في كتابه ثم قبض قبضة أخرى فأرخى كفه كلها ثم قال: هذا الإسراف، ثم قبض قبضة أخرى فأرخى بعضها وقال: هذا القوام.

(٢) الدر المنثور ٥: ٧٨ - أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي الأعمال أفضل... وسألته أي الذنب أعظم عند الله؟

قال: الشرك بالله قلت ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك أن يطعم معك فما لبثنا إلّا يسيراً حتى أنزل الله ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ...﴾ [الفرقان: ٦٨].

مضاعفة على الاستحقاق، وإنما هي على ما يلقاه يوم الدنيا، جزاءً وفاقاً ولا يظلمون نقيراً ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أبداً وغير أبد حسب دركات العصيان، مهما تكون عاقبة أمره في النار الموت والبوار، حيث لا تبقى نار ولا أهل نار، جزاء العصيان المحدد بعقوبة محددة.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾:

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ إلى الله مما اقترف مهما كان شركاً وسواه ﴿وَءَامَنَ﴾ بعدما كفر إيماناً أو عملاً صالحاً ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يُجبر طالحه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ لا فحسب أنه يغفر لهم فلا حسنات ولا سيئات، فكما هم بدلوا سيئاتهم حسنات كذلك الله يبدل سيئاتهم حسنات، فسيئة إشراكهم بحسنة التوحيد، وقتلهم النفس بحسنة قتال المشركين، وزناهم بحسنة حِلِّ النكاح، بل وسيئات أخرى هي من اللمم: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾(١).

فالحسنات الكبيرة كفارة عن الحسنات الصغيرة المتروكة، والسيئات الكبيرة كفارة عن الصغيرة، وهكذا تبدّل السيئات بالحسنات، دون فوضى جزاف، فهنا سيئاتهم هي الكبائر، وحسناتهم هي التوبة عن الكبائر بشروطها، والتبديل هنا أنه تعالى يقبل توحيدهم بعد الشرك فقد بدله به، وقتلهم النفس التي حرم الله، فقد بدلهم بقتال المشركين، وزناهم وقد بدلها الله بنكاح المؤمنات.

ونص الآية ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ لا «بحسنات» فسيئاتهم هي

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

التي تبدل بحسنات مكانها كما بينا، لا أن الله يكتب بدل سيئاتهم السابقة حسنات وهم لم يعملوها، حتى تصدق الرواية المختلقة الزور: «يتمنى العبد أن سيئاته كانت أكثر مما هي»[1].

وبصيغة أخرى، الكفر هو مبدأ السيئات، والتوحيد هو مبدأ الحسنات، فلما بدل الشرك توحيداً، فقد بدل مبدأ السيئة حسنة، ثم تتواتر الحسنات كأنها أتوماتيكية على أثر الإيمان الصالح والتوبة النصوح.

ولماذا ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ﴾ وصاحب السيئة هو الذي بدل؟ لأن الله هو الذي يقبل توبته، وهو الذي يقر في قلبه التوحيد، وهو الذي يوفقه لحسنات على غرار التوحيد.

٩ - ١٠ - ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾:

الزور فتحاً هو الميل من حق إلى باطل أم من باطل إلى حق، أم من حق إلى حق، أم باطل إلى باطل، ومنه الزيارة والتزاور في هذا المربع، والزُّور ضماً هو الميل عن حق إلى باطل، تصويراً للحق بصورة الباطل، أو الباطل بصورة الحق، فمنه الكذب والبهت والفرية، ومنه اللّهو[2] ومنه شهادة الزور ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ حضوراً له مهما لم يشاركوا فيه، وحضوراً لشهادة الزور مهما لم يشهدوا، وحضوراً لكي يشهدوا الزور، كل ذلك منفي بـ ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ حيث الكل محرمات ولكنها دون الثلاث السابقة ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ وهو كل ما لا يُعنى ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ ولا يشهدون

---

(١) الدر المنثور: ٥: ٨٠ - أخرج عبد بن حميد عن عمرو بن ميمون في الآية قال: حتى يتمنى. وقد رد عليه ما أخرج عبد بن حميد عن أبي العالية أنه قيل له: إن أناساً يزعمون أنهم يتمنون أن يستكثروا من الذنوب قال ولِمَ ذاك؟ قال: يتأولون هذه الآية يبدل الله سيئاتهم حسنات، فقال أبو العالية وكان إذا أخبر بما لا يعلم قال: ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥] ثم تلا هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عِمرَان: ٣٠].

(٢) تفسير البرهان ٣: ١٧٦ - الكليني بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: الغناء.

ولا يشاركون، فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر والتبذر، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى اللغو الفارغ.

١١ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾:

فهم عند ذكرى آيات ربهم، لا يصمون عن قوارع النُّذُر، ولا يعشون عن مواقع العبَر، متطلعين إلى نور وهدى، رغم غيرهم حيث يخرون على آيات ربهم صماً لا يسمعون، وعمياناً لا يبصرون، آيات سمعية وبصرية كالقرآن، أم سمعية أو بصرية كسائر الآيات آفاقية وأنفسية، مسموعة لا تبصر، أم مبصرة لا تسمع، أم تسمع وتبصر.

١٢ - ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾:

هنا وبعدما اكتملت في هذه الأدعية كل شروطات الإيمان بحبل من الله وحبل من الناس، في رئيسية الإيجابيات والسلبيات، نرى «عباد الرحمن» يطلبون من الرحمن قمة الإيمان وهي الإمامة للمتقين، وما لم يصل العبد إلى قمة التقوى لا يحق له تطلُّب ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

أجل - ولأن لكل حال مقال، ولكل دعاء مجال، فلنختص هذا الدعاء بمن تخطّى كافة درجات الإيمان، حتى يحتل الإمامة للمتقين ككلٍّ، كما الرسول الأعظم ﷺ[1] فإنه إمام المتقين على الإطلاق، من الملائكة والجنة والناس أجمعين، من نبيين وأئمة طول الزمان وعرض المكان.

---

(١) تفسير البرهان ٣: ١٧٧ محمد بن العباس بسند عن أبي سعيد الخدري في الآية قال رسول الله ﷺ لجبرئيل: من أزواجنا؟ قال: خديجة، قال: ذرياتنا؟ قال: فاطمة، قال: قرة أعين؟ قال: الحسن والحسين، ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] قال: أمير المؤمنين، أقول هذه انتقالة لطيفة من إمامة الرسول ﷺ إلى إمامة أمير المؤمنين حيث المذكورون دليل على إمامة الرسول ﷺ.

ومن ثم الطاهرون المعصومون من عترته، فاطمة الصديقة والأئمة الأثني عشر[1] في مرحلة ثانية من إمامة المتقين، ثم العلماء الربانيون في كل عصر ومصر، وبطبيعة الحال «المتقين» في كل مجالة من هذه المجالات تقدر بقدرها سعة وضيقاً، إلّا الإمامة المطلقة غير المحدودة كما للرسول ﷺ.

وترى هؤلاء الرجال الأتقون لهم إمامة المتقين، فهل النساء كالصديقة الطاهرة عليها السلام لها إمامة المتقين كما لهم؟

لأن الإمامة هنا هي إمامة التقوى، أن يصبح الإمام أسوة للتقوى، سواء أكان نبياً أو وصياً أم أي أسوة للتقوى، فهذا الدعاء - إذاً - تشملها، وهي في قمتها بعد الرسول ﷺ مع الأئمة من آل الرسول عليهم السلام.

أترى في هذا الدعاء أثراً من أثرة وكبرياء، في أية مرحلة من مراحل إمامة التقوى؟ كلّا! وإنما هي تسابق في الخيرات، وتزايد في الدرجات، ففي سباق الخيرات بدرجاتها ليس لعباد الرحمن الاقتصار بأصل التقوى، بل وقمتها التي هي بطبيعة الحال أسوة وإمامة لما دونها ممن دونهم، كلٌّ كما يأهل ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2].

فالسماح لهكذا دعاء لا يختص بذروة التقوى، بل يعم كل السالكين في سبيل التقوى، أن يجعلهم الله فيها لحدِّ الإمامة لسائر المتقين، الذين قَصرُوا عن القمة أم قصّروا.

ميدان فسيح، ومسرح فصيح لسباق التقوى ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دون بخل وضنَّة بسائر السالكين إلى الله، وإنما تناصراً في هذه السبيل أئمة

(١) المصدر القمي بسند متصل عن أبان بن تغلب قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الآية قال: هم نحن أهل البيت، وعن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية - أي هداة يهتدى بنا وهذه لآل محمد عليهم السلام خاصة، وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام مثله.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

أو مأمومين، فلا يؤم المتقين من يأهل إلّا تكملة لسلوكهم، ولا يأتمون بإمام لهم إلّا تكملة لسلوكهم، فالركب كله في سبيل الله مهما كانوا درجات حسب القابليات والفاعليات.

ولماذا ﴿إِمَامًا﴾ واحداً وهم عدة؟ علّه لأن إمامة المتقين واحدة الجذور، كما المأمومين أمة واحدة: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[1] مهما كان الأئمة عدة.

ثم وإشارة قاصدة إلى ضرورة وحدة الإمامة المطلقة في كل عصر دون منازع، مهما كان معه أئمة فروع يأتمون به، هُم أئمة لسواهم، فـ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2]! لذلك نرى الرسولين موسى وهارون في صيغة مفردةِ «إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ».

نرى في هذه الدعاء ﴿أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ دون سواهم من الأقرباء والأنسباء، مما يدل على مدى فرض المحبة والحنان أولاً للأزواج، ومن ثم ذرياتهم.

ولأن هذا الدعاء لا يختص من عباد الرحمن - فقط - قبيل الرجال، وأن الزوج تشمل الزوجين فـ ﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ تعم قبيلي الأزواج بعولة وزوجات، بل وتعم أزواج التّقى وهم قرناء التقوى، وكما ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ تعم ذريات الإيمان.

فأئمة التقوى يؤمنون قرناهم الأتباع، وذرياتهم الأتباع، فالأزواج هم الأولون والذريات هم الآخرون.

و«من» تخرج الدعاء عن استحالة الإجابة، فليس كل الأزواج والذريات نسبياً وسببياً ممن يأهل أن يكون قرة أعين التقوى، فهي إذاً «تبعيضية، كما

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٢.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

وهي نشوية أو سببية أن تحصل لنا من ناحيتهم وبسببهم قرة أعين، وما أجملها جمعاً لهذه الثلاث»!.

و﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تعني القرة الغرة في مسرح التقوى، وهي من «القَرّ»: البرد - مقابل الساخن، فالعين الساخنة هي الباكية، الحاكية عن كآبة، ولا تبكي عين التقوى إلّا على الطغوى في ﴿أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾! والعين القرة هي البارة عن حرّ البكاء، القريرة الغريرة الفرحة على ما ترى من تقوى ﴿أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾!

وذلك شعور فطري وفي موقف الإمامة ومسؤولية القيادة الإيمانية، أن يتطلب الإمام ويعمل ويسعى لبث القرة الغرة بين المؤتمين به.

و﴿أَعْيُنٍ﴾ منكرة دون «الأعين» لأنها تقصد أعينهم كمتقين لا كل الأعين الشاملة للطاغين، ويؤيده قلة الجمع في ﴿أَعْيُنٍ﴾ دون «عيون» وهي جمع الكثرة، فإن أعين المتقين هي القلة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتقين، أئمة ومأمومين، بأزواجهم وذرياتهم القرة أعين ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ...﴾.

هنا الصبر يعتبر كقمة وأساس لبنود التقوى الاثني عشر، فإنه صبر على الطاعة وصبر عن المعصية فيشملها كلها، وأما ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ بين نعيم الجنة فما هي؟ وما هو موقفها بينها حتى تختص بالذكر من بينها؟.

﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ هي الفُعلة من الغَرف: رفع الشيء وتناوله، كما في غرفة الماء ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِۦ﴾[1] فالغرفة هي العُلّيّة، وهي هنا في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

الجنة، عُلِّيَّة في جنات النعيم والرضوان، الشاملة لكل نعيم الجنة روحية مادية أمّاهيه.

ومن ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ - ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾: عُلِّيَّة روحية في خضمّ النعيم ﴿تَحِيَّةً﴾ دعاءً وتبشيراً بخلودهم في حياة الجنة ﴿وَسَلَٰمًا﴾ كلاماً وغير كلام، فإنهم هناك في دار السلام ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ عطاءً غير مجذوذ، فإن جذاذ العطاء ليس حسناً كما يحق ﴿وَمُقَامًا﴾ قياماً وزمانه ومكانه ومفعوله[1].

ومن الطريف الظريف أن هذا الدعاء وتلك الإجابة تأتي بعد واقع الصفات الإحدى عشر لعباد الرحمن، مما يشير إلى أن ظرف الدعاء هو مسير العبودية الصالحة بكل جدّ وسعي جادٍّ، فليست الدعاء شغل البطالين بل هي زاد السالكين براحلة العبودية الصامدة.

كما ويشير إلى أن الدعاء هي من العبادة، بل في قمتها حيث تتأخر عن سائر العبادة وكما يروى «الدعاء مخ العبادة» فمن يترك الدعاء فقد ترك مخ العبادة ﴿. . . فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾: !

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾:

الإعباء هو الاعتناء لثقل ووزان في المعتنى به، فـ ﴿قُلْ﴾ لهم أجمعين ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾ اعتناءً بكم واعتباراً لكم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ و«ما» نافية واستفهامية إنكارية: «لا يعبأ» أو «لماذا يعبأ»؟ وهما معاً معنيّان حيث هما معنيان متناسبان.

ثم ﴿دُعَآؤُكُمْ﴾ قد يعني دعاء ربكم إياكم، من إضافة المصدر إلى المفعول، فلولا أنه دعاكم لهداه بما دعى، وهداكم إياه بما هدى، لم يكن

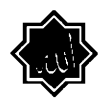
(١) فإنه يستعمل في مربع المعنى من الثلاثي المزيد.

- إذاً - لكم عِبءٌ وثقل بمجرد أنكم إنسان، فهذه الدعوة الربانية، ولا سيما المحمدية ﴿رَبِّي﴾ هي التي يُعبِّيكم فيعتني بكم ربي، ثم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يخص من ترك دعاءه في هداه.

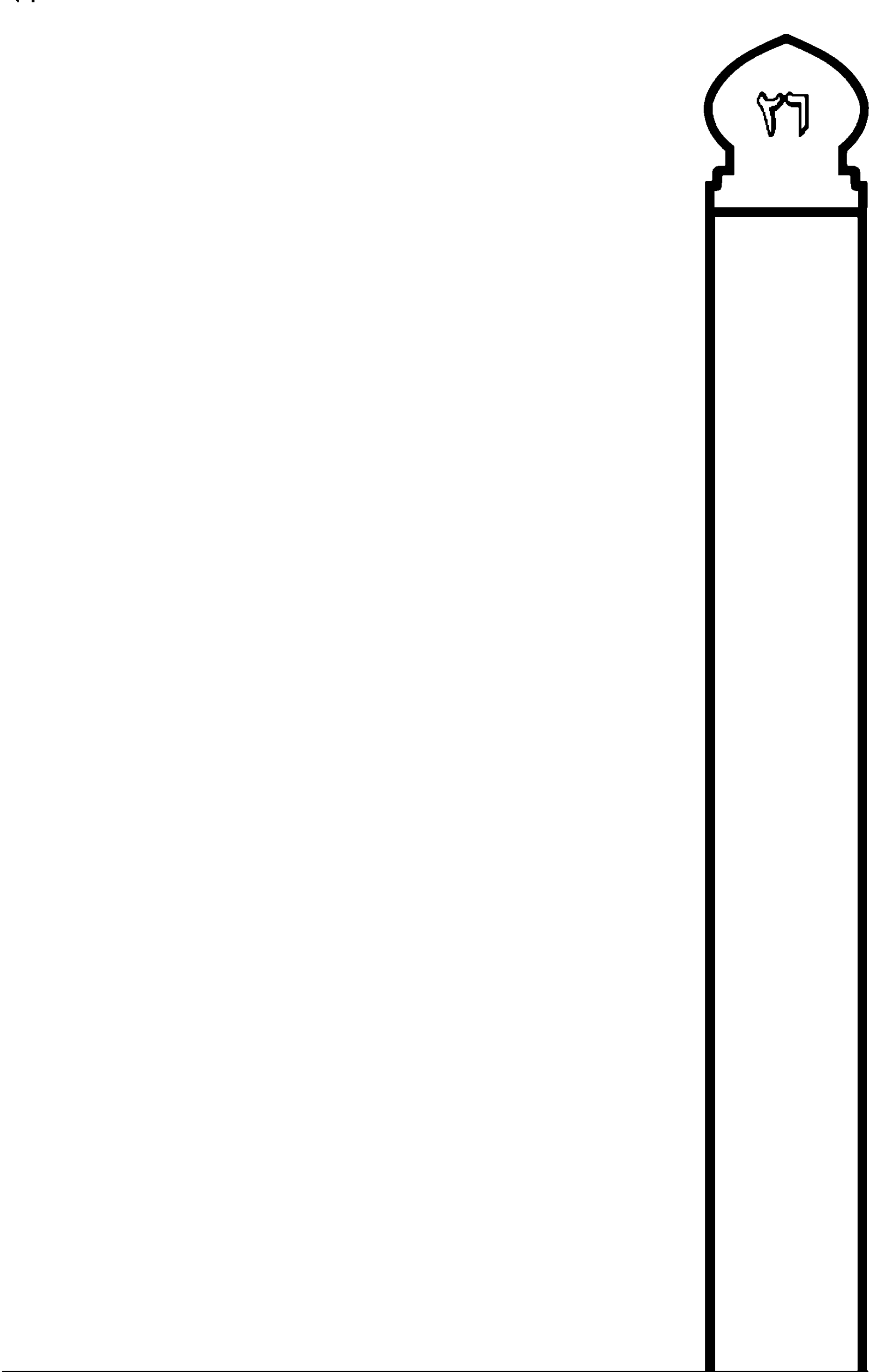
أو يعني دعاءكم إياه من إضافة المصدر إلى الفاعل، سواءٌ دعاء العبادة، أم دعاء الدعاء الالتماس والدعوة، فلولا عبادتكم إياه فـ ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ...﴾ ثم ولأن الدعاء هي مخ العبادة فلولاها، ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ﴾.

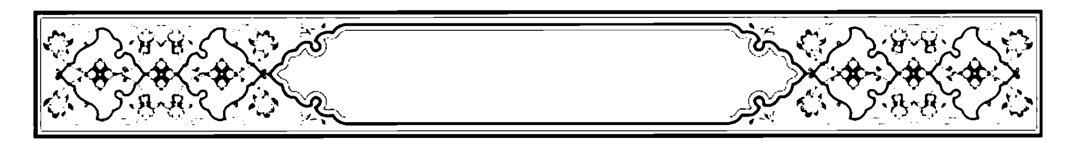
و﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ عبادة أو دعاءٍ ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بربوبيته تركا لعبادته، و﴿كَذَّبْتُمْ﴾ بفقركم وغناه تركا لدعائه، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ ذلك التكذيب - أيّاً كان - ﴿لِزَامًا﴾ لكم لا يفارقكم، وهو منذ الآن لزام، ولكنه غير ظاهر إلّا لأهله، أو أنه قد ينفصل بتوبة ودعاء، ولكنه منذ الموت حتى القيامة وفيها لزام لكم دون فراق.

وفي الحق إنَّ معرفة الرب بالغنى المطلقة وهو يدعونا للدعاء: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] ومعرفة النفس بالفاقة المطلقة، لزامهما الدعاء عبادة ودعاء، فتارك الدعاء مكذِّب بفاقته بجنب الله، ومكذب بوعده الاستجابة في الدعاء، ومكذب بغناه تعالى، فهو - إذاً - يعيش ثالوث التكذيب بجنب الله ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.



(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.


٢٦



مكية وآياتها سبع وعشرون ومائتان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

تتسمى هذه السورة بـ«الشعراء» إذ تحمل آية الشعراء، تنديداً بالذين يتبعهم الغاوون، حيث ينبع الشعر من الخربطة والغواية، ويُستخدم للإغواء والضلالة وما أكثره! ثم وتمجيداً بالذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات حينما الشعر ينبع من الإيمان ويُستخدم لعمل الإيمان، وما أقله!.

الشعراء هي من الطواسين الثلاث[1] المتشابهة في هذه الافتتاحية، إلّا ناقص الميم في النمل.

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٥ في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سور الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة كان من أولياء الله في جواره وكنفه ولم يصبه في الدنيا =

وهيكل السورة هو السرد القصصي الشاغل جوَّها في ثمانينٍ ومائة آية، والباقية من آياتها هي كمقدمات وتعقيبات، والكل تؤلّف وحدة متناسقة متجاوبة تلتقي عند هدف واحد واتجاه فارد هو تصحيح العقيدة بزواياها الثلاث: المبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد: من الوحي بنازله ومَنزِله، ناضرة ناظرة إلى الرسالة الموسوية في البداية، ناحية - في ذلك التأشير العشير - منحى الرسالة المحمدية السامية، فقد يصدِّق ما يروى عن رسول الهدى ﷺ «وأعطيتُ طه والطواسين من ألواح موسى»[(١)] أوأن «الطاء» هي طور سيناء - أم شجرة طوبى، والسين: سدرة المنتهى، والميم محمد المصطفى»[(٢)] مما يجمعه أن:

﴿طسٓمٓ﴾[(٣)] خطاب للرسول الأقدس محمد ﷺ فإن شجرة طوبى المتشجرة عن روحه القدسية كلّ الطوباويات الرسالية، وهو الناحي منحى السدرة المنتهى، إذ كان من ربه قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى، فهو منتهى السدرة الرسالية معرفية وفي التقوى أمّا هيه، كما وأنها

= بؤس أبداً وأُعطي في الآخرة من الجنة حتى يرضى وفوق رضاه وزوجه الله مئة من الحور العين، وفي المجمع أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد كلّ من كذب بعيسى وصدق بمحمد ﷺ.

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٥ عن كتاب ثواب الأعمال عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ قال قلت لجعفر بن محمد عليه السلام: يا ابن رسول الله ﷺ، معنى قول الله عزّ وجلّ: «طس وطسم»؟ قال: وأما ﴿طسٓ﴾ [النّمل: ١] فمعناه أنا الطالب السميع وأما ﴿طسٓمٓ﴾ [الشُّعَرَاء: ١] فمعناه أنا الطالب السميع المبدئ المعيد.

(٢) المصدر روي عن ابن الحنفية عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ لما نزلت ﴿طسٓمٓ﴾ قال: الطاء طور سيناء. وقال الطاء شجرة طوبى. . .

(٣) وفي تفسير البرهان ٣: ١٧٩ ابن عبد الله في معاني الأخبار بسند متصل عن سفيان بن سعيد الثوري أقول: وقد يعني أنها صورة عن السيرة الموسوية الموحاة إليه في الألواح، لا أنها هي، حيث التعبير القرآني، بما يحويه هو منقطع النظير عن كلّ سفر لكل بشير ونذير!.

من أسماء الله الحسنى والرسول ﷺ نفسه القدسية منها بأعلى قمتها، وكما يروى «نحن الأسماء الحسنى» فكما إن لله أسماءً ذاتية هي صفاته الذاتية الثلاث، ومن ثم فعلية هي فاعلياته الخلقية، كذلك له أسماء عينية تدل عليه هي الحقائق الآفاقية ومحمد ﷺ في أعلى قممها! وقد يلوح إليه ظاهر الخطاب من الآيات التالية لها، فـ ﴿طسٓمٓ﴾ إذاً - تعني محمداً ﷺ الطوبى والسدرة المنتهى، كما تعني بضمنه طور سيناء حيث الآيات الآتية تتحدث عن صاحبها موسى عليه السلام.

وكما أن لمعانيها معالي، كذلك لرسمها وألفاظها مجالي ترسمها روايات عن المصطفى ﷺ [١] وأن للقرآن ككلٍّ جلوات في مختلف المجالات، محلِّقة في إنارتها وإدارتها كلّ دوائر الكون تكوينياً وتشريعياً، كيف لا؟ وهي نازلة بعلم الله، حاملة كلّ رحمات الله!

ثم وفي ﴿طسٓمٓ﴾ رموز غيبية لم يُكشف لنا عنها النقاب، فإنها بسائر الحروف المقطعة مفاتيح كنوز القرآن، لا يعرفها حق معرفتها إلّا من خوطب بها، والمذكورة منها هنا بسناد روايات في شأنها لا تصدَّق تماماً ولا تكذَّب، لأنها ليست قطيعة الصدور ولا الاختلاق، اللهم إلّا نفس الخطاب المستفاد من الكتاب، إنه ﷺ هو المخاطب بـ ﴿طسٓمٓ﴾ فتصبح تلك

---

(١) تفسير البرهان ٣: ١٣٨ ابن بابويه قال رسول الله ﷺ من أدمن قراءتها لم يدخل بيته سارق ولا حريق ولا غريق ومن كتبها وشربها شفاه الله من كلّ داء ومن كتبها وعلقها على ديك أبيض أفرق فإن الديك يسير ولا يقف إلّا على كنز أو سحر ويحفره بمنقاره حتى يظهره. وفيه عن الصادق عليه السلام من كتبها وعلقها على ديك أبيض أفرق وأطلقه فإنه يمشي ويقف موضعاً حيث ما يقف فإنه يحفر موضعه فيه يلقى كنز أو سحر مدفون وإذا علقت على مطلقة يصعب عليها الطلاق وربما خيف فليتق فاعله فإذا رش ماؤها في موضع خرب ذلك الموضع بإذن الله تعالى.

أقول: قصة الديك مشكوكة الصدور عن الرسول ﷺ حيث التجربة الواقعية لا تصدقها تماماً فليرجع علمه إلى قائله.

الروايات قريبة التصديق، فواجهة الخطاب فيها هي الرسول ﷺ ومن يحذو محذاه وينحو منحاه.

ولماذا تذكر هذه الحروف في القرآن البيان، هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان، إذا لم يكن فيها لهم بيان؟.

لأن القرآن بيان لجميع العالمين ومنهم وفي قمتهم رسول القرآن، فليختص به من ذلك البيان قسم من القرآن، مهما يعمه والمعصومين من عترته وهم مستمرون لحد الآن وإلى أن يقوم قائمهم، حيث يتمثلون فيه كلهم، فليكن له نصيب في هذا الاختصاص.

وإن لسائر العالمين منها نصيب على أقدارهم وقُدُراتهم المعرفية في زوايا ثلاث ثالثتها ما قد يتنبّه لها الذين يأتون بعدنا فإن «للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن».

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾:

﴿تِلْكَ﴾ النازلة عليك من قبل والتي تنزل عليك الآن ومن بعدُ، فهي هي النازلة عليك في مثلث زمن الرسالة القرآنية بعهديها المكي والمدني، ﴿تِلْكَ﴾ ككلٍّ هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: القرآن، فهو الكتاب المفصل وهذه أبعاضُ الآيات إضافةٌ للآيات إلى أنفسها: الكتاب، اعتباراً لها أبعاضاً منفردات وله مجموعاً يحويها، كما يقال أبعاضي، واجزاء الدار.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ ما يحق إبانته من الحق المُرام، أنها من آيات الله دونما اختلاق إذ ليس فيها اختلاف، وأنها تبين أحكام الفطرة والعقل والشرعة، وتبين الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق من ربهم، فلا قصور - إذاً - في إبانته ما يُبين ولا تقصير، مهما قصروا هم أولاء أو قصّروا بجنبه. وقد لا يعني ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ما كان لدى الله قبل إنزاله أو

تنزيله: ﴿وَإِنَّهُ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1]، فلمن هو - إذاً - مبين؟ ولا المنزل على الرسول ليلة القدر فإنه ليس مبيناً إلّا له، اللهم إلّا أن يُعنى المبين له إجمالاً عن المفصل، وهذه هي آياته المفصلات حيث الكتاب يبين فيها معارفه تفصيل البيان والإبانة عن أيٍّ كان.

ف ﴿تِلْكَ﴾ إذاً تعني كلّ القرآن المفصل، فإنه آيات الكتاب المحكم النازل على الرسول ﷺ. وقد يعني ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ القرآن ككل، و﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أبعاضَه.

أم ويعني أم الكتاب عند الله فإنه بشأن الإبانة للرسول وللأمة، فهو مبين بعلاقة الأول.

وعلَّ الثلاثة كلها معنية، فهذه الآيات المفصلات، هي آيات القرآن المفصل، وهي - ككل - آيات القرآن المحكم المنزل إلى الرسول ليلة القدر، وهي آيات أم الكتاب. والكل هي آيات أم الكتاب المقدر نزوله للمكلفين إلى يوم الدين دون زيادة أو نقيصة.

فالقرآن حجة كافية وآية وافية تبين الحقائق لكلِّ العقول وفي كلّ الحقول، لمن ألقى السمع وهو شهيد، كما وأن نبي القرآن حجة صافية ضافية يتبنى حجة القرآن، حجتان بارعتان تحلِّقان على كافة الحجج دون قصور ولا تقصير، فلماذا إذاً البخوع؟:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾:

البَخْع هو قتل النفس غمّاً، و﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ...﴾ توحي بمدى اهتمام الداعية الرسالية في حمل الناس على الإيمان ولمّا يسطع - ولن - إلّا ما شاء الله، فحين لا يحملهم الكتاب المبين على الإيمان لعتوِّهم وتصلُّبهم

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤.

على اللاّإيمان، كذلك - وبأحرى - ليس ليحملهم الرسول المبين على الإيمان بنفس السند ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[١] ﴿. . . أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

و«لعل» هنا حكاية لحال الترجي لو بقيت حالته كما هي، والأصل في الدعوة هو تأثيرها ببقاء الداعية، وأما أن تبخع نفس الداعية دونما تأثير للدعوة فهو دعوة فاضية بدل أن تكون فائضة!.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾:

صيغة التعبير عن الآية الرسالية التي هي لزامها «نشأ أن ننزل آية» وعن الآية المستحيلة المقترحة ﴿إِن نَّشَأْ﴾ ف «إن» هنا دون «لو» توحي بإمكانية هذه المشيئة وقوعياً، أن تتحقق حالاً أو استقبالاً، ومن الثاني آية قيام المهدي عجّل الله تعالى فرجه حيث تُخضع أعناقهم[٢].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦.

(٢) نور الثقلين ٤: ٤٦ في إرشاد المفيد وهب بن صفي عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في الآية سيفعل الله ذلك بهم، قلت: ومن هم؟ قال: بنو أمية وشيعتهم، قلت: وما الآية؟ قال: ركود الشمس ما بين زوال الشمس إلى وقت العصر وخروج صدر ووجه في عين الشمس يعرف بحسبه ونسبه وذلك في زمان السفياني وعندها يكون بواره وبوار قومه، وفي روضة الكافي بسند عن عمر بن حنظلة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: خمس علامات قبل قيام القائم عليه السلام الصيحة والسفياني والخسفة وقتل النفس الزكية واليماني، قلت: جعلت فداك إن خرج أحد من أهل بيتك قبل هذه العلامات أنخرج معه؟ قال: لا - فلما كان من الغد تلوت هذه الآية: ﴿إِن نَّشَأْ . . .﴾ فقلت له: أهي الصيحة؟ فقال: أما لو كانت خضعت أعناق أعداء الله عزّ وجلّ ، وفي كتاب الغيبة للطوسي بإسناده إلى الحسن ابن زياد الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام يقول: إنّ القائم لا يقوم حتى ينادي مناد من السماء يسمع الفتاة في خدرها ويسمع أهل المشرق والمغرب وفيه نزلت هذه الآية: ﴿إِن نَّشَأْ . . .﴾ في تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال في الآية، تخضع رقابهم يعني بني أمية وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر صلوات الله عليه، وفي كتاب كمال الدين وتمام النعمة بسند متصل قال علي بن موسى الرضا عليه السلام في وصف القائم عليه السلام =

إنه تعالى لا يشاء مبدئياً أن ينزّل عليهم من السماء آية بعد آية القرآن الباهرة الكافية[١] فإنه الآية الخالدة لهذه الرسالة المفتوحة للأمم بأسرها، فليست رسالة محدودة مغلقة على أهل زمان دون آخرين، والآية القاهرة البصرية مهما عظمت وعلت لا تُلوي وتُخضع إلّا أعناق المستكبرين زمنها حيث يشاهدونها، ثم تبقى بعدهم قصة تروى، وواقعاً يُشهد فيُستشهد به لصدق الرسالة، فآية ﴿إِن نَّشَأْ﴾ وهي غير محتومة تُخضع أعناقهم شاؤوا أم أبوا، وآية القرآن تهديهم إلى الحق ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٢] فآية التسيير محتومة، وآية التخيير غير محتومة.

وهذا القرآن كتاب مفتوح وآية خالدة تمشي مع الزمن، يستمد منها كلّ الأجيال طول الزمان وعرض المكان لكل جن وإنسان، مستمراً برصيده لا ينفد، بل ويتجدد ولا يتبدّد أو يتلبّد ويتبلّد، فهو أمام كلّ حقّ جديد وامام كلِّ قديم وجديد، فطبيعته - إذاً - هي طبيعة رسالته الدائبة، لا يُحرم عن حجته أي ذي حجى، إلّا من تنازل عن حجاه، وتروى إلى رداه، إذا فـ ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾.

وترى كيف يصح ﴿خَٰضِعِينَ﴾ خبراً عن ﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾؟ علّه حال عن ضمير

= وهو الذي ينادي مناد من السماء يسمعه جميع أهل الأرض بالدعاء إليه يقول: ألا إن حجة الله قد ظهرت عند بيت الله فاتبعوه فإن الحق والإيمان عند الأولى يفيد وهو عند الثانية غير مفيد لأنه إيمان عند رؤية البأس.

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٦ في الكافي وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في خطبة له: ولو أراد الله جل ثناؤه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن البلدان ومغارس الجنان وأن يحشر طير السماء ووحش الأرض معهم لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحل الابتلاء ولما وجب للقائلين أجور المبتلين ولا لحق المؤمنين ثواب المحسنين ولا لزمت الأسماء أهاليها على معنى مبين ولذلك لو أنزل الله من السماء آية ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ ولو فعل لسقط البلوى عن الناس أجمعين. . . » أقول: «لو» هنا للتأشير إلى القسم المستحيل من نزول آية معه وفيه وهو قول الله عز وجل : ﴿إِن نَّشَأْ. . .﴾.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

الجمع والخبر المحذوف «خاضعة» فإن خضوع أعناقهم من مظاهر خضوعهم في أنفسهم! أو أن ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾ تعني أعناق الأجساد إلى أعناق الأرواح، فهي أصول العقول!

أم الأعناق هنا هم رؤساؤهم الأصلاء في الضلالة والإضلال[١]! أم هم جماعات منهم ضخمة هائلة! أو أن ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾ هي مربعة الأضلاع، تعنيها بأسرها.

والقرآن آية سماوية روحية نازلة من سماء الوحي، كافية لمن يعقل، ولكنهم قوم لا يعقلون، فـ ﴿نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ المادية ﴿آيَةً﴾ بصرية ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ شاؤوا أم أبوا ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾:

وهذه هي طبيعة هذا الجيل الصَّلت من الناس النسناس أنهم لا يتذكرون بأي ذكر من الرحمن، بل هم عنه معرضون، إذ هم عنه عمون، فلماذا - إذاً «ننزل عليهم آية من السماء؟» اللهم إلّا عذاباً وبلاءً، فآية السماء المخضِعة الأعناق، هي للمؤمنين نور على نور، وللمعاندين نار على نار، فحين تظل أعناقهم لها خاضعين ليسوا ليؤمنوا بها، ولو آمنوا فهو إيمان عند رؤية البأس ليس ليفيدهم، فليس الله - إذاً - لينزل عليهم آية من السماء بعد آية القرآن، حجة بعد حجة، وإنما لُجة غارقة، أو نار حارقة.

و﴿مُحْدَثٍ﴾ تعني فيما تعنيه أن ذكر الرحمن محدث أياً كان، إذاً فكلام الرحمن محدث، وما أسطورة القدم في كلام الله قرآناً وسواه إلّا هرطقة هراء مهما سمي به علم الكلام.

(١) وهذا الأخير يناسب زمن الرجعة حيث يرجع فيها من محض الكفر محضاً، وهم أعناق الضلالة وأساطينها.

ف ﴿ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أياً كان هو فعله، وليس ذاته أو من صفات ذاته حتى يكون قديماً أزلياً، فلا ذكر إلّا لمتذكر، ليس قبله ولا بعده، فكما المتذكر خلق محدّث، كذلك الذكر خلقٌ محدَث.

و﴿مُّحۡدَثٍ﴾ لها واجهة ذاتية هي الحدوث الذاتي فيشمل كلّ ذكر من الرحمن، وأخرى نسبية تعني الحادثة الجديدة بعد القديمة، فهؤلاء يرفضون محدَث الذكر من الرحمن مخلدين إلى قديمه أياً كان، كإخلاد أهل التوراة إلى التوراة رفضاً لما بعدها، وإخلاد أهل الإنجيل إلى الإنجيل رفضاً للقرآن، رغم أن الجديد من الرحمن كما القديم، وفي الجديد تجديد وتقديم إلى ما ليس في القديم! والذي يعرض عن محدث الذكر هو - بطبعه - معرض عن قديمه مهما تراءى أنه مقبل إليه.

وقد يشمل ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ أصله قديماً وحديثاً، كما يشمل حديثه، فذكر الرحمن سلسلة موصولة أخراها إلى أولاها، والإعراض عن جانب منها إعراض عنها كلها.

وقد يُعنى من «ذكر محدث» - فيما تعنيه - آي الذكر الحكيم التي تترى عليهم تلو بعض ولصق بعض، بل هو أهمُّ الذكر وأتمه، وسائر الذكر توطئة له وتعبيد طريق!..

أم أن «ذكر محدث» تحلّق على كلّ ذكر آفاقي وأنفسي ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ...﴾.

ولماذا ﴿ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ والذكر رحمة رحيمية أياً كان؟ علّه لأن الذكر هو قضية الرحمة العامة حيث تعم كافة الآهلين له من أمن منهم ومن كفر، ومن ثمَّ هو لمن آمن رحمة رحيمية.

فـ ﴿ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ككل هو رحمة رحمانية حيث يعم المتذكر والمعرض، وهو لمن يتذكر رحمة رحيمية.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بكل ذكر من الرحمن محدث أم أي ذكر ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟﴾: أخبار هامة ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يوم الدنيا كآية مُخضِعة لها، إنْ في الرجعة أم قبلها، أو يوم البرزخ والأخرى حيث يتجسد فيها ذلك التكذيب الكذيب ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾:

ألم يروا إلى ما خلق الله من شيءٍ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فالواو هنا تعطف إلى آية البصيرة ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ﴾ فإن لم يتبصروا بها فليبصروا إلى آية حسية هي الأرض بنباتاتها من كلّ زوج كريم، فالزوجية التي هي لزام الأرض بأشيائها دليل الحاجة إلى الخالق الفرد الأحد، ومختلف أشكال أزواجها دليل على التصميم ووحدته.

فهذه الأرض التي يعيشون عليها، أم وسائر السبع مهما تطلبت الرؤية إليها أسفاراً جوية ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من جماد ونبات وحيوان ومن إنس وجان، : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[2] فكل شيء من كائنات العالم أرضية وسماوية زوج، مهما اختلفت الأزواج في كونها وكيانها، ولا فرد حقيقياً إلّا الله.

﴿زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من فرد كريم واسع الرحمة، فكل زوج كما خلق الله وأنبت كريم، ولا لؤم ولا شؤم إلّا من أنفس الأزواج، منها أو من نظائرها، فالخير كله بيديه والشر ليس إليه.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٩٠.
(٢) سورة نوح، الآية: ١٧.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ :

تعقيبة مكرورة في عرض لآيات كونية وأخرى رسالية تشريعية، تتكرّر مرات ثمان بمناسبات ثمان، أولاها هي موقف الكفار أمام هذه الرسالة السامية ومن ثم موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب، كما وتختم السورة بعرض الرسالة الإسلامية كما بدأت به.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ البعيد المدى القريب الصدى من نابت كلّ زوج كريم ومن كلّ ذكر محدث من الرحمن حيث يتجاوبان ﴿لَآيَةً﴾ تدل على مزوِّجه ومزوِّج كلّ ذكر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾: المكذبين على مدار الزمن حيث يتغافلون عنها ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الهدى ﴿لَهُوَ﴾ لا سواه ﴿الْعَزِيزُ﴾ القاهر الغالب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده في موضع العفو والرحمة.



﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ

لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا
لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ
فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا
يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ
أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا
رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ
إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ
قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن
جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا
لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ
ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا
ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

تسع وخمسون آية تستعرض معارضة فرعون الرسالة الموسوية منذ البداية

حتى غرق فرعون وقومه، عرضاً لطائل الحوار بينهما، ثم مسرح السحرة والآية الرسالية إلى ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ومن ثم نرى عرضاً لرسالة إبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام كلاً في قصص له بتلحيقة واحدة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾(١) تسلية لخاطر الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم كيلا يخلد بخلده الشريف أنه بِدعٌ من الرسل في مواجهة التكذيب، فالرسالات الإلهية هي ذات طبيعة واحدة وصاحبة عرقلة واحدة، فعلى الداعية التصبُّر في الدعوة حتى النهاية.

ولقد مضت حلقات من قصة موسى في البقرة والمائدة والأعراف ويونس والإسراء والكهف وطه، إضافة إلى إشارات أخرى في سواها، وكل هذه متناسقة مع جو السورة وموضوعها الرئيسي، والحلقة المعروضة هنا هي مسرح الرسالة المعارضة لصرح الفرعونية الجبارة، مقسَّمة إلى مشاهد متنوعة بينها فجوات متناسقة.

وقصص موسى كسائر القصص القرآنية جديدة في كلّ مسرح رغم تكرارها موضوعياً، لأنها تناسق كلّ الأجواء المستعرضة فيها، لولاها لكان الجو ناقصاً، فإلى مشاهد سبعة هنا بين موسى وفرعون:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾:

ذلك النداء يتم بعد ما يكمل موسى عشر حجج في مدين بعد ما خرج إليها من مصر خائفاً يترقب ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾(٢) ففي ذلك القدر المقدَّر لبزوغ الرسالة هكذا يؤمر.

واذكر ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ كما ناداك، وآواه كما آواك ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨، ٩.
(٢) سورة طه، الآية: ٤٠.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم وأهليهم وظلموا الحق، عائشين في ثالوث الظلم، المظلم جوَّ الحياة على عائشيها، ففي الرسالات الإلهية سلبيات وإيجابيات، سلباً لآلهة الأرض ثم إيجاباً لإله السماوات والأرض، وسلباً لأي ظلم من أي ظالم فإيجاباً للعدل: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ فقد أظلمت الجوَّ طغواهم، فلتحملهم على تقواهم، أم لا قل تقدير تصدهم عن طغواهم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾:

أعذار أربعة يعتذر بها موسى عن ذلك الإتيان، أنكوصاً عن تكليف الرسالة بأسره؟ وكيف يرسل الله الناكص المنتكس! أم عرضاً لحاله استنصاراً من ربه على عدوه؟ وعلمه بحاله يكفي عن مقاله!.

في الحق إنه عرض الحال التماساً وهو يعلم الحال، وكما في كلّ دعاء واستدعاء، و﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ برهان لا مرد له على عدم النكوص، وإنما هو استمداد من ربه أن ينصره على عدوه.

وترى فرق التكذيب والقتل في سبيل الدعوة أهما مما يتطلب عرض الدعاء، وهما طبيعة الحال في كافة الدعوات الرسالية؟ ففريق يكذِّبون وآخرون يصدِّقون، وفريق يحاولون قتل الداعية وآخرون يمانعون؟.

إنه هنا يخاف التكذيب المطلق ألّا يصدق أبداً، لا مطلق التكذيب ممن دأبهم التكذيب، ويخاف أن يُقتل قبل نشور الدعوة، إذاً فما هي فائدة هذه الدعوة بين تكذيبها وقتل الداعية؟!.

ثم ومن دوافع التكذيب المطلق والقتل ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ...﴾ فلذلك ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ وذلك قصور في الدعوة، فليستمد ربَّه بإمدادات متصلة وأخرى منفصلة كـ ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾.

فلئن كان منشرح الصدر منطلق اللسان كان بالإمكان أن يرتد تكذيبه كيفما كان، فهو الاحتياط الرسالي حفاظاً على سلامة الدعوة لا.

الداعية اللهم إلّا لسليم الدعوة وقاطعها.

فقد احتاط من أن يحتبس لسانه في بزوغ الدعوة وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربه، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة منذ البداية، واحتاط من أن يقتلوه فتتوقف دعوته دون أن تُجبر عن ضعفها، وهذا هو اللائق بموسى الرسول الذي صنعه الله على عينه واصطنعه لنفسه، ونراه مستجاباً فور دعوته.

ومما لا بد منه في كلّ دعوة رسالية مجال التصديق وتجوال الدعوة قبل قتل أو موت الداعية، وانشراح صدره وانطلاق لسانه[1] في الدعوة، فلذلك ﴿قَالَ رَبِّ. . .﴾.

هنا من دوافع تكذيبه المطلق وقتله ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ. . .﴾ أن قتلت منهم نفساً فلا يفسحون لي - إذاً - مجالاً للدعوة، ومنها أن فرعون رباني وليداً، فهو يتفرعن عن أن يسمع إلى دعوة ربيبه، المناحرة لدعوته.

ولم يكن قتله القبطي ذنباً في شرعة الله، فإنما ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ في زعمهم، وأما المشرك المحارب فمسموح قتله ولا سيما حالة الدفاع، مهما كان قتله في واجهة أخرى غير مشكور، إذ أخر دعوته الرسالية عشر سنين. . . وهنا يجد حاضر الاستجابة فور الدعوة:

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[2] ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[3].

---

(١) تجد تفصيل القول في عقدة لسانه في طه فراجع.
(٢) سورة طه، الآية: ٤٦.
(٣) سورة طه، الآية: ٣٦.

كلّا! فلن يكذبوك إلّا ومعهم مصدقوك، كلا! لا يضيق صدرك فقد شرحناه، ولا يحتبس لسانك فقد أطلقناه، كلا! ولن يقتلوك فقد راعيناك ﴿فَٱذْهَبَا﴾ أنت وأخوك هارون ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ التسع إلى فرعون وملئه ﴿إِنَّا﴾ بجمعية الصفات على جمعية الرحمات ﴿مَعَكُم﴾ أنتما ومن اتبعكما ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ قالة فرعون وقومه، فمجيبون في قال وحال وفعال فـ ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[1].

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾:

هناك «ائت» إذ كان فريداً في رسالته، فلما زود بوزير له وهو من سؤله - إذاً - ﴿فَأْتِيَا﴾ ولأن هذه الرسالة في الأصل واحدة يحملها موسى بمؤازرة هارون ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ لا «رسولاً» إذ لا إثنينيّة فيها لا في مادة الرسالة ولا في آياتها مهما كانا رسولين كحاملي هذه الرسالة ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾[2].

﴿فَأْتِيَا . . . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ فلم يكن رسولاً إلى فرعون وملئه - فقط - ليدعوهم إلى شرعته، بل ليطلب - بالفعل - إطلاق بني إسرائيل عن أسرهم وتسريحهم عن حصرهم ﴿إِنَّا رَسُولُ. . . أَنْ أَرْسِلْ﴾ دون «آمِن وأرسل» مما يصرح أن هذه الرسالة ليست بالفعل إلّا ناحية منحى السلب، أن يتخلى فرعون عن بني إسرائيل فإنهم هنا محور الدعوة الرسالية، وإن كانوا هم أيضاً تشملهم هذه الدعوة العالمية كما آمن بها السحرة.

فالرسالة الموسوية ككل هي عالمية مهما بدأت من بني إسرائيل المضطهدين حيث هم حجر الأساس فيها، وكذلك فرعون وقومه إذ كانوا حجر عثرة للأساس، ولات حين مناص إلّا سلباً لأسرهم بأسرهم حتى

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٧.

يخلوا له جو الدعوة دون معارض مستخف لهم، مستكبر عليهم، متفرعن فيهم، فالسلب دوماً يتقدم الإيجاب حتى يحل هو محله من الإيعاب، فيستتب أمر الشرعة قبولاً لها وإقبالاً إليها.

أترى ذلك القول الرسالي للطاغية كان قاسياً؟ كلّا حيث القساوة - ولا سيما من مثل موسى على سابقته معه - ليست إلّا عرقلة في سبيل الدعوة، وإنما كما في طه وسواها ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[1].

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾:

أتياه وقالا له ما حُمِّلاه: دعوى الرسالة ومادة منها سلبية ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وفي ذلك سلب الربوبية عن فرعون وسلب سلطته عمن يملكهم، رسالة تهدم صرح السلطة الزمنية والروحية مع بعض، ومن هو فاعل هذه السلبية القاضية؟ من تربى عند صاحب السلطة وليداً ولبث فيهم عمراً، ثم وجنى فيهم جناية! ثالوث المهانة فيمن أرسل لهذه السلبية القاسية القاضية.

يا رسول رب العالمين! ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ فكيف تعارض مربيك إلى خلاف ما رباك؟ ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فأنت إذاً عُضوٌ منا وقسم ضعيف من كياننا، فكيف تتفضل علينا؟ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ حيث قتلت منا قتيلاً ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ نعمةَ الإبقاء إذ ما قتلناك رغم المرسوم الملكي عندنا بتقتيل الولائد من بني إسرائيل، و﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ نعمة التربية ولبثها! و﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بربوبيتي إذ تناسيتها فأجرمت فينا، ثم أتيت رسولاً إلينا تتهدم صرح ملكنا، بل ومن الكافرين - أيضاً - بربك الذي بعثك إذ كنت عندنا كأحد منا! فكيف تواجهنا هكذا بذلك الوجه الأسود والسابقة السوداء وهو خلاف العقلية والتربية الإنسانية؟.

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٤.

ثم وعلى أية حال كيف الفرع يفوق الأصل ويتفضل، وما فضله إلّا منه؟ فكرة خاطئة بين حماقى الطغيان والذين يؤصّلون الموازين المادية بين كلّ الموازين، متغافلين عن الأصالة الموهوبة من الله، فيستغربون أن وليداً بينهم عاشهم سنين يرجع إليهم رسولاً من الله.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾:

هنا يقدم موسى ثالث ثلاثة من ثالوث الاعتراضات الفرعونية النكدة، فينكر ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كفراً وكفراناً في كلّ الزوايا المعنيَّة، ثم يصرح ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وتراه: كان ضالاً حين فعل فعلته؟ وعماذا؟ فهل هو ضلال عن الإيمان؟ وهو كفر ينكره! أم ضلال الكفران؟ فكذلك الأمر! حيث بدل ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾! فلا كفر له - إذاً - ولا كفران فلا عصيان!

إنه ضلال عن الرسالة الحكيمة التي أوتيها بعد فعلته وخروجه إلى مدين ورجوعه إلى مصر حيث أخّر فعلتهُ رسالتَه دونما علم ولا تقصُّد في تلك الفعلة، أو الضالين عن الطريق حيث دخلت المدينة وما كان لي أن أدخلها[1] وأنا ملاحق في ذلك الجو المحرج، أو الضالين عن كيفية الدفاع، فلم آخذ الحائطة فيه حياداً عن القتل، وذلك ضلال في بزوغ الرسالة غير عامد، قد أخرها إلى سنين.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾:

لقد وهب له ربه حكماً قبل الوكزة القاتلة، دون حكم الرسالة المعصومة

---

(١) البحار ١٣ : ٣٣ في حوار المأمون مع الرضا عليه السلام قال المأمون: جزاك الله يا أبا الحسن فما معنى قول موسى لفرعون: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؟ [الشُعَرَاء: ٢٠] قال الرضا عليه السلام: إن فرعون قال لموسى لما أتاه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشُعَرَاء: ١٩] قال موسى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الطريق بوقوعي إلى مدينة من مدائنك ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ. . .﴾ [الشُعَرَاء: ٢١].

العاصمة عن كلّ الضلالات والزلات كما في القصص: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾[1].

هنا ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ وهناك ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ لا يطاردان أنه أوتي حكماً وعلماً فإنهما ليسا هما الرسالة البعيدة عن عمل الشيطان وعن أي ضلال في سبيل الدعوة، وقد قوبل الحكم في مواضيع عدة بالرسالة والنبوة مما يجعله أعم منهما مهما كان منصباً إلهياً كما كان لطالوت، ولكنه ليس ليعصم صاحبه عن كافة الزلات والضلالات، فقد أوتي حكماً مع الرسالة بعد ما رجع من مدين وبينه وبين الحكم الأول عشر سنين، فذلك حكم رسالي ورسالة الحكم، ليس ليضل معه بعدُ على طول خط الدعوة، والأول حكم الدعوة قبل الرسالة قد يضل معه كما ضل.

ثم ولم يكن ضلالة له عن الإيمان ولا عن حكم الشرعة الإلهية إذ كانت الوكزة القاتلة في ذلك الاقتتال مسموحاً أو فرضاً حسب الشرعة، دفاعاً عن نفس محرمة موحدة عن أن تهدر، مهما هدرت نفس مشركة غير محترمة.

وهنا تقتسم الوكزة إلى أصلها المصيب المشروع فليس ضلالاً، وإلى قتلتها المخلَّفة عن قوتها وقد خلفت فرار صاحب الحكم عن الجو الرسالي الآتي وأجّل رسالته عشر سنين، وذلك مقصود وهذا غير مقصود، وليس عمل الشيطان هنا إلّا غير المقصود، والمقصود هو عمل الرحمن، فلم يكن الضلال إلّا في البعد الثاني من وكزته وهي القتلة الناتجة عنها، غير

---

(١) سورة القصص، الآيات: ١٤-١٦.

المقصود فيها، فلم يرتكب - إذاً - كمؤمن ذنباً، وإنما ارتكب خطأ رسالياً ولمّا يرسل[١] إذاً فهو ضلال عن تلك الرسالة السامية في مرحلة أدنى منها مهما كانت أعلى قمم الإيمان، وكما في رسول الهدى ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[٢] في وجه وجيه من وجوهها.

وقد قال حينه ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ دون «غيري» إذ كان ظلم الانتقاص لعاجل الرسالة دون تقصد ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ ستراً عن منعة الرسالة ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ حيث وفقه للفرار وظل عشر سنين في مدين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ﴾[٣] والتفصيل إلى محله.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ...﴾[٤] ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الفرج، وأن يعجل في آجل الرسالة ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ بعد الحكم الأوّل - وطبعاً لـ - فوقه لحدّ ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٤٨ في عيون الأخبار يسأل مأمون الرشيد أبا الحسن الرضا عليه السلام فيما سئل أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى - قال: فما معنى قول موسى لفرعون: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؟ قال الرضا عليه السلام : إن فرعون قال لموسى لما أتاه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ - قال موسى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الطريق بوقوعي إلى مدينة من مدائنك ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١] وقد قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦] - يقول: ألم يجدك وحيداً فآوى إليك الناس ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ [الضّحى: ٧] يعني عند قومك ﴿فَهَدَىٰ﴾ [الضّحى: ٧] أي فهداهم إلى معرفتك.

أقول: يعني ضلالة بعد القتل عن طريقه المقصودة إلى غير المقصود «ودخل المدينة خائفاً يترقب» ووجه آخر ذكرناه في المتن، فلعل هذا الوجه غير وارد عن الإمام عليه السلام حيث يتبع من الوجوه الدلالية القرآنية أحسن الوجوه!.

(٢) سورة الضحى، الآية: ٧.

(٣) سورة طه، الآية: ٤٠.

(٤) سورة القصص، الآيتان: ٢٠، ٢١.

وأما تربيتي فيكم وليداً ولبثي عندكم من عمري سنين فلم تكن نعمة تمنها عليّ:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾:

فلولا تعبيدك بني إسرائيل أسراً وحصراً وقتلاً لولائدهم واستحياءً لنسائهم لما اضطرت أمي أن تقذفني في التابوت ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[1].

إذاً فأنا صنيع الرب ورَبيُّه عندك، حفاظاً ربانياً عن بأسك وأنتم لا تشعرون، وما كان منكم إلّا قصد الانتفاع مني ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2] وهذا تعبيد لي من وجه آخر غير ما كان لسائر بني إسرائيل.

فأية نعمة تمنها علي وهي في كلّ زواياها وحواياها تعبيد لبني إسرائيل؟

فالرسم الملكي بتقتيل الأبناء المستثنى فيَّ، كان رسماً لتعبيدي أنا في وجه آخر، فحتى لو كانت نعمة منك عليّ، فهي ليست لتطارد نعمة الرسالة الإلهية وهي أنعم النعم، فليست قضية النعمة من بشر لبشر نكران أو نسيان النعمة الإلهية الكبرى الرسالية، على أن كلّ نعمة تصل العبد فإنما هي بتقدير من الله قدَّره، ولا سيما نعمة الحفاظ على نفسي عند أعدى أعاديَّ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ . . .﴾[3]!

فهنالك انهدم صرح الحجاج اللجاج الفرعوني صداً عن بازغ الدعوة الموسوية، فانتقل إلى لجاج آخر في صورة الحجاج:

---

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٩.
(٣) سورة طه، الآية: ٣٩.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾:

في ذلك الاستجواب العارم نرى فرعون في أعمق الحمق وسوء الأدب، ونرى موسى يجيبه كريماً كأن لم يسمع إلى شطحاته القارصة الراقصة فندرس في هذا الحوار كيف يجب علينا أن نحاور خصومنا الظالمين فضلاً عن سواهم من المسترشدين.

«ما» هنا تهوين لساحة الربوبية العالمية، استنكاراً لها زعم أنه هو الرب الأعلى فلا أعلى منه، حتى يرسل رسولاً إلى الرب الأعلى!

إنه لا يعيى عن النكاية بموسى كرسول، يحاول القضاء على كيان مرسِله رب العالمين، وهل هو - فقط - سؤال عن الماهية؟ والصيغة الصالحة في الماهية الإلهية هي «مَن» دون «ما» ثم السؤال عن الماهية ليس إلّا بعد الاعتراف بصاحبها وهو ناكر رب العالمين، لمكان دعواه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى...﴾[2] فقد كان دهرياً لا يؤمن بالله ولا سيما المدعوّ بـ ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنه ممن يقسم الربوبية بين أرباب عدة أرضية وسماوية، وهو منهم كما الأصنام منهم: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ...﴾[3]. فحتى لو كان معترفاً بوجود الله كرب للأرباب، فهو ناكر لكونه رب العالمين، اللهم إلّا عالماً له خاصاً كما لسائر الأرباب عوالم خاصة.

وقد يكون الطاغية جامعاً في سؤاله عن «ما» بين التوهين والاستفهام عن الماهية والكيفية، فأتى موسى بالجواب الصالح وهو عرض الصفات الفعلية وكما يروى أنه لما قال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾ قال فرعون متعجباً لأصحابه: ألا تسمعون أسأله عن الكيفية فيجيبني عن الصفات...»[4].

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤. (٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.
(٤) تفسير البرهان ٣: ١٨١ تفسير القمي قال حدثني أبي عن الحسن بن علي بن الفضال عن أبان =

إذاً فهو سؤال استنكار وتهوين لمكانة من سماه موسى ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهنا موسى يضرب الصفح عن تلك المهانة مجيباً عن مكانة رب العالمين، مبيناً سعة العالمين دون اختصاص بعالم دون آخر:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بأصل الربوبية الأصيلة، فهي - إذاً - الربوبية العالمية المحلِّقة على الكون كلِّه المعبَّر عنه بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وإن لم تكونوا موقنين بأصل الربوبية فالسؤال ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ساقط من أصله، إلّا هزءاً كما هو كذلك، إلّا أن موسى الرسول مهمته أن يهدي الضالين مهما كان سؤالهم متنعتاً مستهزئاً.

ويا له من جواب يكافئ ذلك التجاهل العارم ويغطِّيه، إنه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ التي أنت جزءٌ منها ضئيل، كالذرة أو الهباءة بين شاسع الكون وهائله.

هنا ينبري الطاغية بقولة لاهية لاغية لمن حوله، يستنصرهم في القضاء على حجة الله البالغة:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

ألا تستمعون إلى ذلك التقوُّل العُجاب، كيف يجرؤ عبد من عبيدي أن يختلق رباً للكون كله ويجعلني ضمنه و﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]! وقد يكفي رداً عليه ادعاءه الجوفاء الخواء أمام الرب الأعلى أنه مرسل إليّ من رب العالمين!

= ابن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال لما بعث الله موسى إلى فرعون - إلى أن قال -: وإنما سأله عن كيفية الله فقال موسى رب السماوات. . . .

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

أترى موسى يجيبه عن لاغيته؟ كلّا! بل يمر عليها مر الكرام مستمراً في تعريفه برب العالمين!

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

إن رب العالمين - رب السماوات والأرض وما بينهما - هو ﴿رَبُّكُمْ﴾: فرعون وملؤه، ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فإن كنت يا فرعون رباً لمن حولك ومن معك كما تزعم، فهو ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وهذه أشد مساساً بفرعون ودعواه، وأحدّ مراساً لإثبات الربوبية العالمية، مما يدفع فرعون إلى قولة جنونية تجنِّن موسى، وليسقِّطه عن عقلية الحوار، ويجتثَّ الحق عن كلّ دعاويه:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾:

وذلك تهكّم في أصل الرسالة، فقضاء - في زعمه - على ما يحمله من مواد الرسالة الإلهية، ضرباً عميقاً عميماً على موسى في الصميم، كفاحاً عن ضربته السياسية والدينية على فرعون في الصميم.

أترى موسى يقابل الطاغية بالمثل قائلاً: إن ربكم الأعلى لمجنون؟ كلّا! بل هو يمضي في طريقه قُدُماً كأن لم يسمع قولته الباغية:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

فإن كنت أنا الرسول المجنون بسند التعريف بالربوبية العالمية، فمن رب المشرق والمغرب وما بينهما أيها العقلاء إن كنتم تعقلون؟.

أمن العقل نكران خالق العقل والعقلاء، ونكران الربوبية الوحيدة لهذا النظام المنسَّق بنسق واحد، والمنظم بنظام فارد، أم الجنون بعينه هو النظام من نتائج فوضى الربوبيات المتشاكسة، والوئام التام دون تفاوت في الخلق من آثار مختلف الربوبيات الشاسعة!.

إن المشرق والمغرب مشهدان معروضان لكل ذي بصر ونظر، فهل أن الشروق والغروب هما من تصريفات فرعون وآلهته؟ إنه توجيه وجيه يهز القلوب البليدة المقلوبة هزاً، إثارة لمشاعرهم، وإيقاظاً لعقولهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ولا يخشى الطغيان ما يخشاه من يقظة الشعوب النائمة، كالبهم الهائمة، المحرضة إلى العقل عن الحقائق في كلّ حقل، دون تبعية بغبغائية قاحلة، وتقليدة جاهلة، ويا له من ترتيب رتيب عجيب في تعريفه برب العالمين، ابتداءً من الأثر العام: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ الظاهر حدوثها ومربوبيتها، فإن ادعي قدمها فإلى ما لا ينكر في حدوثه ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ حيث الإنسان مخلوق على أية حال، ثم استدلالاً لوحدة الربوبية بنظام الشروق والغروب، كالحجة الإبراهيمية مع نمرود، وهذه الثلاث تشترك في التعريف بالآثار حيث الذات الألوهية وصفات الذات لا تعريف لها ذاتياً إلّا بالآثار والأفعال وهي صفات الفعل.

ولما ينتهي أمر الحوار إلى إيقاظ الشعب، يترك فرعون حواره العار إلى التهديد:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

وهذه نهاية الحوار من كلّ جبار لا يملك برهنة على جبروته، قتلاً أو نفياً أو سجناً، ولكيلا يوقظ الجماهير فتتخلّف عن ملكته الجابرة وسلطته العاهرة، ولأنه يزعمه الرب الأعلى، لذلك يتناسى الآلهة الأخرى، فـ ﴿إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ يعني الرب الأعلى، دون الأرباب الأدنين الأخرى، فإنه كانت له آلهة تعبد.

و﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ قد توحي أنه كان في ملكه من يعبد إلهاً غيره كأصل الألوهة، الله أم سواه، أم كانوا في التخلف عن السلطة الفرعونية كمثل موسى.

أتراه يجيبه بما أجاب خوفة من السجن؟ وهو استمرار سلفه الصالح يوسف القائل: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾(١)!

إنه يحاول إبانة الحق المرام كما يرام، فلا يشير إلى سجن وسواه حتى يهديه هداه، ثم وفي نهاية المطاف يستسلم لما يجري في سبيل الدعوة والله هو المستعان على ما يصفون.

وترى موسى بماذا يجيب الطاغية عن تهديده العارم، إنه يوجهه إلى واجهة أخرى خارقة:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾:

و«لو» هنا احتياطة عاقلة مع الطاغية، حيث يحيل أن يكون موسى على حق مبين، ولكن على فرض المحال ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ يبين حق دعواي أكثر مما بان، ويبين حق الربوبية العالمية أوضح مما كان، أفهناك - أيضاً - تهدِّدني بالسجن وترميني بالجنون؟.

طبعاً لا! وكل ذي حجي مهما تنازل عن حجاه يقول: لا، فلنجرب الداعية هل يأتي بشيءٍ مبين، وهنا الطاغية يتطلب إليه أن يأتي بشيئه، واثقاً أنه لن يأتي بأيٍّ من شيئه:

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١﴾:

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك الرسالة، و﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن تجيئني بشيءٍ مبين ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ تعجيزاً لموسى عليه السلام كأنه من الكاذبين.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣﴾:

آيتان باهرتان قاهرتان تحوّلان جوّ البلاط الفرعوني المتبلِّج إلى جو متلجلج، مما يحمل فرعون إلى خربطة القول فـ:

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

لقد شعر فرعون - وهو لا يشعر - أنه خارقة منقطعة النظير في كلّ ما رآه من سحرته، فأحس بضخامتها وفخامتها في وجهه أمام حاشيته، إذ كادوا يتملقون من حوله، فحاول التغطئة بهذه التخطئة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾!

﴿عَلِيمٌ﴾ مكين في علمه، ليس كالذين نعرفهم عندنا، بل ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ...﴾[1] فموسى هنالك في حواره الذي ألجمه «مجنون» هناك وهنا في شيئه المبين «ساحر» وقد أتم وأطم آية الثعبان واليد البيضاء، محسوسة ملموسة، إلى الآيات الفطرية والعقلية، فالطاغي الذي يتنازل عن عقله وفطرته فلا تفيده البراهين، يُنقَّل إلى آيات محسوسة يصدقها حتى المجانين، ولكن هذه الطاغية ليس ليسكت عن غوغائيات التهم الجارفة، الهارفة الخارفة:

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

فلأنه يرى تثاقلهم إلى أرضهم، وأن هذه السلطة هي بغيتهم الآصلة الحاصلة، يهددهم بإخراجهم من أرضهم لو اتبعوا هذا الساحر العليم، وفي ذلك استلاب السلطة الروحية: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾[2] والزمنية المزيجة بها، وهذه غاية الشيطنة في الفرعنة.

وقد يبدو من هذه القولة عظمة الآية مهما سماها سحراً حيث يصف صاحبها بأنه عليم، ليس كسائر السحرة، ويبدو خوفه مَن تأثر من حوله فيهدِّدهم بإخراجهم من أرضهم، ويبدو تضعضعه وتهاويه أمام هذا الساحر العليم! فيستمد ممن حوله متواضعاً متسكعاً - وقد ادعى أنه ربهم الأعلى - فيطلب أمرهم ورأيهم في ذلك المأزق الخطير ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾! ومتى تراه كان يطلب أمرهم وهم له يسجدون؟.

---

(١) سورة طه، الآية: ٧١.
(٢) سورة طه، الآية: ٦٣.

إنها شنشنة الطغاة بعد طنطنتهم حين تزل أقدامهم وتضل أحلامهم وتكل أفهامهم، فيلينون في القول بعد الخشونة، ويتواضعون لأمرهم ورأيهم بكل مرونة بعد العرونة، ويا له كيداً ما أشطنه في ثالوثه المنحوس: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ حيث استفاد هذه التهمة من السحر، فقد يجوز أن ينتهي بسحره إلى ذلك الحد القمة ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ وأرض الوطن بهذه السلطة القوية المرموقة محبوبة لأهلها كأنفسهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ كلامٌ مَرِن يحرِّك العواطف الدفينة ويغطي على الضغائن الكامنة، ويستحث الحاشية الملكية على إمعان التفكير لتخليص الملك وإياهم عن ذلك المأزق العميق، فكانت النتيجة إن:

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾:

هنا يشير عليه ملأه آمرين كما تطلّب منهم، وهم شركاؤه في فرعنته وصَرْحِ سُلطته، وأصحاب المصلحة في بقاء كيانه ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ إمهالاً إلى أجل دون عَجَل، فإن هامة أمره الإمر تقتضي تروِّياً ومحاولة جماعية:

﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ المصرية أم وسواها ﴿حَٰشِرِينَ﴾: جامعين ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ دون سقاطهم، بل اصطفاءٌ للرعيل الأعلى منهم لإقامة تلك المباراة الساحرة القاضية على هذا السحر العظيم.

لقد كان يعلم فرعون أن له ساحرين، ولكنه اختلط عقله، مغلوباً عليه من دهشة الموقف القاهر، أم لم يكن يرى فائدة وعائدة من جمع السحرة لمعالجة الموقف فاستأمر حاشيته فرأوا رأيهم هذا تأجيلاً للفضيحة، وتغطية عاجلة على الموقف الحاسم.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾:

وهو ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾[1] كما قرره موسى بما تطلب منه

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٩.

فرعون: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾[1].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠)﴾:

هنا استعطاف ماكرٌ للناس حيث لا يؤمرون، وإنما يستأمرون: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ وطبعاً ﴿لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ تلحيقاً بما فيه هياج الجماهير، وتحميسهم ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ وهي الغاية المقصودة من ذلك الاجتماع الحاشر ﴿إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ و«هم» هنا تؤكد جانب الإثبات في هذه الشرطية المشكِّكَة، وهكذا تستحث الجماهير المستخفَّة المطاوعة المجيبة لكل ناعق دون تفطُّن للغاية الماكرة، وأن الطغاة يَعبثون بها ويلهون، ويشغلونها بهذه المباريات ليلهوها عما تعنيها وتعانيها من كَبْت دائب، واحتناك لهم خائب، دونما حَنكة وتعقل، سيّقة لكل سائق، سامعة لكل ناعق.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)﴾:

هذه قولتهم لأنهم - بالفعل - عملاء قضية ضغط الموقف، يستزيدون أجراً على رواتبهم ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ والجواب بطبيعة الحال ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من الحاشية الملكية المتفوقة على سائر الموظفين، وهذه هي البغية الفرعونية الباغية الغادرة، فلذلك لا يبخل عن سؤل السحرة، بل ويزيدهم أجراً معنوياً على مادية المسؤول، وإلى مشهد المباراة المعاكسة للمرام، المضادة للمرام!:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾:

تقدُّم الاقتراح من موسى عليه السلام تهدُّدٌ لهم هارع وتحدٍّ بارع، و﴿أَلْقُوا مَا

(١) سورة طه، الآية: ١٥٨.

أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ يستحث كامل قوّاتهم، ويستحصل كلّ قدراتهم في هذه المباراة الحاسمة الجماهيرية، مستصغراً جموعهم المحتشدة ومعهم القوات الهائلة الفرعونية وأمل الأجل والزلفى، ومعه ربه سبحانه وتعالى وأجره والزلفى وهكذا يجب على كلّ داعية حق أن يستقدم ما عند داعية الباطل ليقضي عليها من فورها، ولو أن موسى ألقى قبلهم كان قد ألغى الموقف الجامع حيث يفر الجماهير من ثعبانه فلا يبقى مجال للمباراة، وقد يؤوّل ما ألقاه أنه سحر أعظم، فلما ألقوا ألغى ما ألقوه بما ألقى من فورهم فغلب الحق وبطل ما كانوا يأفكون.

وليس في تطلُّبه سحَرهم طلبُ الباطل، إذ كان يقصد إبطاله بآيته الإلهية، وتطلُّب ظهور الباطل لإبطاله حق يساند الحق.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ فلما رأوها تتحرك بكيدهم، محلِّقة الموقف بكل رُعب وإعجاب، مما لم يسبق لهم مثيله بهذه الصورة الجماعية الهائلة، اشتبه عليهم أمرهم واطمأنوا إلى غايتهم المنشودة كأنما هي الآن حاصلة ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فإن جمع العصي والحبال لا بد وأن تتغلب في سحرها على سحر اليد والعصا الواحدة، تقديراً ظاهراً وهم عن الحق هم غافلون.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

فاللقْف هو الأكل السريع، الحاذق الخارق، فقد أكلت الثعبان المبين كلّ ما يأفكون دونما رَجعْ أو رجيع، مما يؤكد أنها آية إلهية بعيدة عن السحر، حيث السحر تَخيُّلٍ وذلك واقع لا مردَّ له، وغَلَب سُحر على سحر ليس إلّا غَلَبَ خيال على خيال دونما واقعية مشهودة! ومهما تشكك في واقعه مرتابون، فليس ليتشكك فيه مهرة الفن: السحرة، فموقفهم سلبياً أو إيجابياً موقف حاسم لا ينكر له إلّا لمن ينكر عقله وحسّه.

وإنها مفاجأة مُذهلة غير متوقعة للسحرة، عصا تنقلب حية تسعى وثعباناً مبيناً، هي لوحدتها تلقف ما يأفكون، دون أن تبقي لها على أثر.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

وترى مَن ألقاهم ساجدين سواهم أنفسهم؟ إنه هيبة الموقف، فخلافاً لما كانوا يأملون أدهشتهم الآية البارعة فلم يتمالكوا أنفسهم إلّا تساقطاً على الأرض سجَّداً، حيث الحق قد لمس عواطفهم ومس شغاف قلوبهم، هزة مفاجئة أزالت عنهم ركامات الضلالة في لحظات قصار وهم كانوا قبلها هارعين إلى البغية الملكية الطاغية، فتحولوا - إذاً - بكامل كيانهم إلى ﴿سَٰجِدِينَ﴾ ونطقت ألسنتهم كلمة الحق التي كانوا لها ناكرين ﴿قَالُوٓاْ﴾ قالاً وحالاً وفعالاً ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا فحسب الإيمان بالله الواحد، بل وبرسالته أيضاً المتمثلة في موسى وهارون ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ تاركين أية ربوبية سواها.

هنا التآمر الحاشد من الحاشية، الناتج عن تلك المباراة الحاشدة، مع كافة الصعوبات التي كلّفتها حتى ألفتها، أصبح ذلك التآمر هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كلّ شيءٍ مقتدراً، فتلجلج فرعون وملأه وتبلج موسى وملأه، وآمن السحرة، لحد أصبح بطن الأرض أريح لفرعون من ظهرها، حيث استُأصِلت كلّ محاولاته ومكيداته، فلم تبق له باقية إلّا باغية أخيرة هي شيمة كلّ باغية:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

ويْكأنَّ الإيمان - أيضاً - كسائر الأمور المسيّرة الميسرة بالإذن - بحاجة إلى إذن، خلطاً لعمل القلب بعمل القالب، ولأن ذلك البليد الطاغي يدعي السلطة المطلقة على شعبه، فلتكن قلوبهم - أيضاً - بيده.

وهنا ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ دون «به» نكاية بإيمانهم أنه ليس إسلاماً عن قلب، بل هو استسلام لسحر أعلى أمام ساحر عليم إيماناً لصالحه، تحويلاً للآية إلى سحر ما وجد إليه سبيلاً.

إنه لا يشعر قلبه ما استشعره هؤلاء من الحق، وهم أحرى ممن سواهم في تمييز الآية من السحر، ومتى كانت للطغاة قلوب يفقهون بها حتى يلمسوا هذه اللمسات الحية الوضاءة.

هنا الطاغية يثنّي تهمة الاستسلام بأخرى يتهدم بها - في زعمه - صرح السحر من هؤلاء السحرة، وأنه تآمر على السلطة الفرعونية: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ ومتى كان بينهم حتى يعلّمهم، ومتى سبق له سحر حتى يْعلَمه فيعلَّمه، ومهما يكن من أمر يكون له مأخذاً في هذه التهمة، فهو أن بعض هؤلاء - وهم من الكهنة - كانوا يتولون تربية موسى حين كان وليداً في قصره، ولكنه يعاكس تهمته إلى ضدها، إنه عليه السلام تعلم من هؤلاء، فبدلاً من قوله: «إنه لتلميذكم...» قال ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ...﴾ ليزيد الأمر ضخامة في أعين الجماهير ووخامة في قلوبهم.

ولكن هذه الثانية كما الأولى لا تجد مجالاً من القبول، فالسحرة فالتة، والحشد متنزِّل أو مُتحول، فإلى ثالث ثلاثة هي التهديد بالصلب القاسي الذي كان يجري بحق أعصى العصاة وأبغى البغاة:

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ماذا أفعل بكم أيها الخونة المتمردون! ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والسلطة قاهرة والطاغية قادرة، فلو كان إسلامهم استسلاماً لكانوا يستسلمون للسلطة الفرعونية، إذ لم تكن لموسى سلطة زمنية، اللهم إلّا آية إلهية، ولكنهم أثبتوا دون أية ريبة أن إيمانهم واقع دون مماراة، لا مرد له ولا تحويل.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾:

﴿قَالُوا﴾ بأجمعهم ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لنا فيما تُهَدِّدنا إذ ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ انقلاباً تاماً لنا، طاماً لكياننا، فلا مجال لك فينا، ولا رجعة لنا إلى ما كنا:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤)﴾ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[1]. أجل ﴿لَا ضَيْرَ﴾ في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، ولا في تصليبنا أجمعين ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ عن حمأة هذه الأدنى، فلا مطمع لنا إذاً ولا مطمح إلّا ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ طول حياة التكليف حتى الآن، ﴿يَغْفِرَ لَنَا﴾ لـ ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث سبقنا في هذه المباراة غيرنا في الإيمان، بل وسبقنا المؤمنين في صمود الإيمان.

فيا لله، يا لروعة الإيمان وضوءته إذ تشرق في الضمائر الحية، وتفيض على القلوب المستعدة فتسكب الطمأنينة في نفوس نفيسة في أعماقها، مهما كانت بخيسة خسيسة في أوحاقها لفترة - مهما كانت طويلة - من أوقاتها، فترتفع بسلالة من طين إلى أعلى عليين.

فلما تصل النفوس إلى هذه القمة المرموقة يوحى إلى الرسول ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي...﴾.

وهنا يسدل الستار على موقف السحرة المهددون به إلى فرار موسى ومن معه إلى جانب البحر:

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢)﴾:

أترى فرعون طبّق على السحرة المؤمنين ما أوعدهم؟ لا إشارة له! ولو

كان لبان كحدث هائل في تاريخ الرسالات، قتلاً وصلباً جماهيرياً لحشد كبير من السحرة! والجوّ آنذاك ما كان يسمح أو يفسح مجالاً لهذه القتلة الهائلة، فإن غَلَبَ الحق في تلك المباراة أوقعَ على فرعون وملئه أثقل الوقعات، فكيف يجرؤ على هذه العملية الفاتكة بحق الكبراء من قومه الخصوص، وقبل أن يلاحق موسى ومن معه؟! وطبيعة النقم على الفرعونية الجبابرة تقتضي التصريح بهذه القتلة لو حصلت، تأكيداً لإيمان من آمن من قومه، وتبديداً للفعلة الفرعونية الطاغية!.

قد تلمح ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ أنهم هم السحرة المؤمنون حيث حققوا حق العبودية لله، أم - ولا قل تقدير - أنهم منهم، فـ «عبادي» هم بنو إسرائيل والسحرة المؤمنون، بل وجموع آخرون ممن دخلوا في زمرتهم في الردح الفاصل من الزمن بين المباراة والإسراء إلى جانب أليم، فلم يكن موسى الرسول وأخوه بمن معهما من المؤمنين سكوتاً لا ينطقون فلا يدعون إلى الله طول هذه المدة وهم على بينة قاضية شاهرة بين الجماهير!.

فقد كان الإيمان لموسى مثلثة الزوايا، السحرة بطبيعة الحال، وجماعة آخرون من القبط، وجماعة من بني إسرائيل، قد يشملهم كلهم آية يونس التالية للمباراة ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1] [2].

أترى «من قومه» تعني - فقط - قوم موسى الإسرائيليين؟ وقد آمن له السحرة أفضل إيمان في هذه المباراة، وهم أفضل ممن سواهم إيماناً إلّا قليلاً من بني إسرائيل المخلِصين!

(١) سورة يونس، الآية: ٨٣.

(٢) نور الثقلين ٤: ٥٣ فحبس فرعون من آمن بموسى عليه السلام في السجن حتى أنزل الله عز وجل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم فأطلق عنهم فأوحى الله عز وجل إلى موسى ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٢].

أم هم قوم فرعون من السحرة ومن تابعهم؟ ويعد الضمير يبعده! وقد آمن مع موسى جم غفير من قومه مهما آمن له معهم آخرون!

أم هم القومان وضمير الغائب هنا له مرجعان، فقد آمن لموسى ذرية من قوم فرعون هم السحرة ومن تابعهم، وذرية من قومه نفسه ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ كأصل المخافة و«ملإهم» القبط المترفين، والإسرائيليين العملاء لهم حفاظاً على مكانتهم في عمالتهم الخاوية، وهكذا يكون دوماً فرقة الإيمان، إنهم هم المستضعفون الذين لا يُحسبون بشيءٍ أمام الطغاة والكبراء، المترذَّلون في حسبانهم ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[1]! ومن هنا يعبَّر عن المؤمنين له بقومه مهما كانوا قبطاً، حيث الإيمان الموحِّد يزيل الفوارق القومية: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً...﴾[2].

وقد تعم بنو إسرائيل في هذا المجال غيرهم من المؤمنين، أم أنه تعبير عن الكل باسم الجل تغليباً ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ...﴾[3].

وعلى أية حال يؤمر موسى بعد نجاحه في المباراة أن يفر بقومه سرياً ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أتراهم لم يكونوا متَّبعين طول هذه المدة إلّا لمّا أوحي إلى موسى؟ أجل ولكنه أين اتّباع من اتّباع، فهم كانوا متَّبعين ملاحقين وهم يتحملونه إذ كان محمولاً، ولكنهم الآن متَّبعون استئصالاً لهم عن بكرتهم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦)﴾:

لقد أسرى موسى بعباد الله ليلاً نحو اليمِّ بسرعة خارقة بارقة، وسمع

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١١١.
(٢) سورة يونس، الآية: ٨٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

فرعون بهذه المكيدة النابغة ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ المصرية ككل ﴿حَٰشِرِينَ﴾ يجمعون الناس ليُسمعوهم تالية الدعايات ضد الرسالة الموسوية وأتباعها:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الشاردون ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾: جماعة منقطعة عما يصلحها، مطرودة عن مجتمعنا، بقية بالية باقية من بني إسرائيل ﴿قَلِيلُونَ﴾ عدة وعدة. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ على قلتهم وعلتهم ﴿لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ من سوء صنيعهم بين شعبنا ودعاياتهم المضللة فيهم.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ﴾ مجتمعون، في سلطتنا زمنياً وروحياً ﴿حَٰذِرُونَ﴾ عما يصطدمها روحياً وزمنياً «شاكون في السلاح»[1]، لذلك فإنا نتتبعهم فنتبعهم فنقضي عليهم إزالة للفساد وإصلاحاً للبلاد.

ذلك كيد فرعون وملئه ليقضي قضاءٍ حاسماً على شرذمة قليلة مغيّضة له، ولكن الله يعكس أمره ضده:

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾:

كيف وهم خرجوا متَّبعين، ينسب الله خروجهم إليه؟ حيث قدَّر في خروجهم إخراجَهم، وفي اتباعهم موسى ومن معه إحراجهم، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فعلنا بهم ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾:

اتبع الجمع الحاذرُ الغادرُ شرذمةً قليلةً ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ حالة الإشراق، وطبعاً بسرعة أكثر منهم حتى يلحقوهم لحد الترائي، والمعركة المصيرية

---

(١) تفسير البرهان ٣: ١٨٣ تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ...﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٤] ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٦] يقول: مؤداة في الأداة وهو الشاكي في السلاح.

بالغة الذروة والضراوة، والمشهد قريب إلى النهاية، فموسى ومن معه أمام اليم ليست معهم سفن وزوارق يجتازون بها، وقد قاربهم فرعون بجيشه الجبار شاكو السلاح، مستعدين بكل قواتهم للقضاء عليهم ولم يبق هنا أمل للضفة المؤمنة إلّا المعية الربانية وقد أدركتهم كما وأهلكت الآخرين.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾:

إن هي إلّا دقائق ونحن مدَركون، فقد بلغ الكرب مداه، هجمة الموت الهمجية الهائجة ولات حين مناص، وفات يوم خلاص، فإما خوضاً في اليم فغرقاً، أم نظل هنا كما نحن فحرقاً! والترائي هو التقارب والتداني لحدٍّ يصبح كلّ بمرأى الآخر، وإن لم ير بعضهم بعضاً بموانع كمُثار العجاج، ورهج الطِّراد، فالمراد هو تقارب الأشخاص، لا - فقط - تلاحض الأحداق وكما يقال في حين متقاربين تتراءى نارهما.

﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾﴾:

كلا! لا إدراك لو كان لكم إدراك، ولا هلاك إلّا لعدونا إن كنتم مؤمنين ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ معية العلم والنصرة، لا يفارقني عند المهالك، ولا يتخلى عني في المعارك، فلا يذلني أو يُضلني، بل ﴿سَيَهۡدِينِ﴾ بخارقة ربانية كما هداني في المباراة، وفي كلّ ما هو آت، إن ربي دعاني لهذه المسيرة فهو الذي يكلؤني ويرعاني[١]، وإن لم ير بعضهم بعضاً بموانع كمثار

(١) نور الثقلين ٤ : ٥٥ في مناقب ابن شهر آشوب إبراهيم بن أدهم وفتح الموصلي قال كلّ واحد منهما كنت أسيح في البادية مع القافلة فعرضت لي حاجة فتنحيت عن القافلة وإذا أنا بصبي يمشي فدنوت منه وسلمت عليه فردّ عليّ السلام فقلت له: إلى أين؟ قال: أريد بيت ربي، فقلت: حبيبي إنك صغير ليس عليك فرض ولا سنة، فقال: يا شيخ ما رأيت من هو أصغر مني سناً مات، فقلت: أين الزاد والراحلة؟ فقال: زادي تقواي وراحلتي رجلاي وقصدي مولاي، فقلت: ما أدري معك شيئاً من الطعام؟

فقال: يا شيخ هل تستحسن أن يدعوك إنسان إلى دعوة فتحمل من بيتك الطعام؟ =

العجاج، ورهج الطّراد، فالمراد هو تقارب الأشخاص، لا - فقط - تلاحض الأحداق وكما يقال في حين متقاربين تتراءى نارهما.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍۢ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾:

لقد هداه ربه بما أوحاه ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ ويا لها من عصا تحمل آيات عظيمة ما أعظمها في مباريات بين موسى وفرعون ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ البحر فلقتين وفرقتين ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍۢ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وانشق بين فرقي الماء طريقٌ يبس: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾[1] ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ...﴾[2] فالفرق هو الجزء المنفرق منه، والطود هو الجبل الشاهق في السماء، فقد أصبح البحر خندقاً فيه طريق يبس مستوٍ وطرفاه جبلان شاهقان من الماء، ويا لها من آية باهرة قاهرة، فانفلاق ماء البحر ككلٍّ آية، والطودان بطرفي الطريق الممرٌ آية، وبقاء البحر كحالته هذه حتى دخل فرعون بجنوده آية ف ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]!.

إذاً فما هي حيلة فرعون، هل يقف باهتاً ساخطاً يعض عليه الأنامل من الغيض؟ وهو يراه أقدر من موسى ومن معه وهم يعبرون الخضمّ الملتطم!:

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

«وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى

= قلت: لا - قال: الذي دعاني إلى بيته هو يطعمني ويسقيني» أقول والصبي كان علي بن الحسين عليه السلام كما ذكر في أواسط هذا الكلام على طوله واختصر منه ما ذكر.

(١) سورة طه، الآية: ٧٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٨.

كأنها جادة جادة لهم إلى المقصود، طريق مكشوف يعبرونها، وها هم واصلون إلى جانب البحر، فليغمر الغيض بغمر الغيض ليفعل فعلته التي يروم، ولكن:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾[1].

الإزلاف هو التقريب، والآخرين هم فرعون ومن معه أجمعين، فقد قرَّب الله فرعون والذين معه إلى بحر الهلاك، وأنجى موسى ومن معه من البحر الهلاك والبحر هو البحر والماء هو الماء! ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ لما دخلوا البحر، عن آخرهم، وبطبيعة الحال لم يغرقوا إلّا حين طَمَ البحر أوّلهم وآخرهم، وقد تعني «أزلفنا» إزلاف بعضهم إلى بعض ككومة واحدة، وإزلافهم إلى موسى ومن معه، إلى إزلافهم إلى البحر فإزلافهم في خِضِمِّه هالكين[2].

وقد ينسب الله إزلافهم إلى نفسه المقدسة لأنه هو الذي كادهم بما جعل في البحر طريقاً يبساً فطمع فرعون وجنوده لاجتيازه، ثم رجَّعه إلى حالته الأولى فغرقوا أجمعين، فهم لم يكونوا يقدمون على غرقهم بذات أيديهم دون ريب، لولا هذه المكيدة الربانية.

---

(١) سورة يونس، الآيات: ٩٠-٩٢.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٥٣ في الخرائج والجرائح أن علياً عليه السلام قال: لما خرجنا إلى خيبر فإذا نحن بوادٍ ملآن ماء فقدرناه فإذا هو أربع عشرة قامة فقال الناس: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العدو من ورائنا والوادي أمامنا فكان كما ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٦١] فنزل صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: اللهم إنك جعلت لكل مرسل علامة فأرنا قدرتك ثم ركب وعبرت الخيل والإبل لا تندى حوافرها ولا أخفافها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦٨﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي حصل في تلكم المباريات من آيات ﴿لَآيَةً﴾ وعلامة قاطعة قاصعة لمن يحنُّ إلى إيمان «و» لكن ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ و«هم» هنا قدر اليقين هم فرعون وملؤه، ومعهم بنو إسرائيل، فقد آمن من الأولين السحرة وقليل سواهم، كما آمن من الآخرين قليل، وقد يبرهن لهذه القلة الزهيدة الثانية ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1].

ثم وفي واجهة عامة عدم الإيمان من الأكثرية الساحقة أو المطلقة كان ضابطة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، اللهم إلّا زمن الدولة الحقة العالمية للقائم المظفر المهدي عليه السلام، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا يُغلب مهما تغلَّب الكافرون وتقلبوا في البلاد ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين كواقع، وبكل عباده في حقل الدعوة الجماهيرية ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2].



(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾:

خبراً ذا فائدة عظيمة لقبيل الإيمان من إبراهيم، فإنه عاش منذ طفولته جو الشرك، وبدل أن يتأثر - كما هو طبيعة الحال - أثر أثراً عميقاً وأرجف صرح الشرك بوحدته رغم جمعه.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠﴾:

تلك التلاوة المباركة على المشركين الزاعمين أنهم ورثة إبراهيم على دينه القديم، تنديدة شديدة بهم، إنه خالف أباه وقومه إلى الهدى، وأنتم تخالفون إبراهيم وشرعته إلى الردى، فأنتم إذاً خلْفٌ متخلفون فبماذا تفتخرون؟.

فإلى حلقة الرسالة الإبراهيمية إلى قومه الألدّاء، وحواره الصارم معهم في قوة الأداء، وهنالك حلقات أخرى من صورة هذه الرسالة الوضاءة وسيرتها في البقرة والأنعام وهود وإبراهيم والحجر ومريم والأنبياء والحج، كلّ تناسب جو السورة بما تتطلبه الدعوة القرآنية.. وهنا اختصار دون احتصار لمحاجته أباه وقومه ولكلٍّ تفصيل في محالها من السور.

﴿إِذۡ قَالَ... مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وهنا لـ«ما» دورها في تجهيلهم بعبادتهم غير العاقل، ويتساءلهم عن ماهيتها لكي يركز حواره على جوابهم عنها، وهذه طريقة حسنى في الحوار أن تتبنى ما عليه محاورك فتبني عليه محاورك سناداً إلى ما يعترف به.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾:

﴿أَصۡنَامٗا﴾ من مختلف المواد ننحتها ﴿فَنَظَلُّ﴾ دوماً أحيانَ العبادة ﴿لَهَا﴾ دون سواها ﴿عَٰكِفِينَ﴾ عكوف العبادة وعبادة العكوف ممن يُسمَّون أناسي أحياءً لجثث غير ذوات الأرواح.

وفي «نظل» غير الداخلة في صميم الجواب إظهار لصميم عبادتهم لها بكل ابتهاج تثبتاً للجواب.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾:

فسَمعُ السؤال عن سؤل، ثم نفع منهم لكم أو ضرّ، هذا هو أقل ما يتوفر لإله يُعبد، فإن كانت صماء لا تسمع كما هي، فهل تملك نفعاً أو ضرّاً دون أن تسمع لحاجة، فإذا «لا» كما هيه فعبادتها - إذاً - لاغية! حيث العبادة تعني حرمة المعبود وحاجة إليه طلبَ نفع أو دفع ضر، وهذه العبادة خاوية عن كلّ معانيها ومغازيها.

هنا يخرس قومه وأبوه عن إجابة قاصدة عاقلة إلى ما تعوّدوه من قولة لاغية:

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

لا حجة لنا فيما نعبد إلّا تقاليد الآباء، ولكن: ألم يكن الموحدون من أنبياء وسواهم من آبائهم، فهم تاركوهم، ثم هم على آثار المشركين منهم يهرعون، ثم السؤال ينتقل إلى آبائهم المشركين، وليس الجواب إلّا نفس الجواب ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فليصل إلى الأب الأول أول الموحدين، فلماذا تركتموه على أبوته الأولى، إلى المتخلفين من ولده المشركين، ترجيحاً للمفضول على الفاضل؟

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

فقد عبد شطر من آبائكم الأوّلين رب العالمين، وعبد آخرون سواه، ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ نظراً إلى كيان المعبودين إلهاً وسواه؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ جميعاً ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ عداءً للفطرة التي فطر الله الناس عليها، وللعقلية الإنسانية وما

دونها، ولأية مرحلة دانية من الإدراك، فإنهم كلهم بمعبوديهم من المربوبين لرب العالمين.

فالاستثناء - إذاً - متصل، حيث الآباء الأولون لم يكونوا جميعاً من المشركين، وفي ذلك الانضمام تأشير عشير أن آباءكم الأقدمين لم يكونوا كلهم مشركين، ثم ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ جمع بين العابدين والمعبودين، الجُدُد والأقدمين، إشارة إلى أن القدمة بمجردها ليست دليل القبول، فليخلط القديم والجديد، وليُقبل منهما القابل للتصديق.

ثم وعباده الله بعابديه أقدم ممن سوى الله عابدين ومعبودين، إن كانت القدمة دليلاً يتبع، فالأب الأوّل - آدم عليه السلام - كان موحداً داعياً إلى التوحيد، ثم الذين معه وبعده من الموحدين.

وترى كيف تشمل ﴿عَدُوٌّ﴾ الأصنام وهي لا تشعر كما اعترف به عابدوها؟ علّها العداوة الآجلة يوم الدين حيث ينطقها الله كما قال: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾[1].

أم والعاجلة حيث العداءُ ذاتية بين المعبود بغير حق والعابد العاقل مهما لم يشعره الصنم، أم لأنه سبب الضلال فعدوٌّ وإن لم يشعر، أم لأن في المعبود من دون الله عملاء كالطواغيت؟ والجمع أجمل فإنه أشمل.

وإنما أفرد ﴿عَدُوٌّ﴾ رغم جمع الأصنام، حيث العداوة هنا واحدة وفي اتجاه واحد، كما ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾[2].

فأنتم وصفتم أصنامكم بما وصفتم، وارتكستم كما ارتكستم، فتعالوا معي لتعرفوا ﴿رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الأقدم في كونه معبوداً، والمالك لبراهين الألوهية الحقة:

(١) سورة مريم، الآية: ٨٢.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ٤.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾:

أبواب ثمانية لمعرفته تعالى عدد أبواب الجنة، لا يتركها إلّا كلّ ذي جِنَّة:

١ - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ فهل الخالق أجدر بأن يُعبد أم المخلوق؟ يقدم خلقه نفسه لأنه أقرب آية وأثمنها وأتقنها دليلاً على خالقه[1].

٢ - ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لا سواه، حيث الهداية الكاملة الشاملة تقتضي كامل القدرة والعلم وشامله لمن يهدي، فقد انشأني من حيث يعلم وأنا لا أعلم ولا مَن سواي ممن أنشأه، فهو العالم بسؤلي لا سواه، والعارف بحالي ومآلي وكل مالي لا سواه ﴿فَهُوَ﴾ إذاً ﴿يَهْدِينِ﴾ إلى ما خلقني لأجله، وقد

---

(١) الدر المنثور: ٥: ٨٩ - عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: إذا توضأ العبد لصلاة مكتوبة فأسبغ الوضوء ثم خرج من باب داره يريد المسجد فقال حين يخرج: بسم الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ هداه الله للصواب - ولفظ ابن مردويه - لصواب الأعمال ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٩] أطعمه الله من طعام الجنة وسقاه من شراب الجنة ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠] شفاه الله وجعل مرضه كفارة لذنوبه ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨١] أحياه الله حياة السعداء وأماته ميتة الشهداء ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٢] غفر الله خطاياه كلها وإن كانت أكثر من زبد البحر ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٣] وهب الله له حكماً وألحقه بصالح من مضى وصالح من بقي ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٤] كتب في ورقة بيضاء أن فلان بن فلان من الصادقين ثم وفقه الله بعد ذلك للصدق ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٥] جعل الله له القصور والمنازل في الجنة. وفي تفسير البرهان ٣: ١٨٤ - ابن بابويه بسند متصل عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: ١٢٤] وذكر الحديث فيما ابتلاه به ربه إلى أن قال: والتوكل بيان ذلك في قوله: الذي خلقني - إلى - يوم الدين - ثم الحكم والانتماء إلى الصالحين في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٣] يعني بالصالحين الذين لا يحكمون إلّا بحكم الله عزّ وجلّ ولا يحكمون بالآراء والمقاييس حتى يشهد له من يكون بعده من الحجج بالصدق بيان ذلك ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ...﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٤].

هداني فطرياً وعقلياً وحسياً إليه، وأراني آياته في الآفاق وفي نفسي ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١]؟ هناك ﴿خَلَقَنِي﴾ هو محور المعرفة، ثم ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ...﴾ وما بعدها من التدبير تتمحور الخلق، تفريعاً للتدبير على الخلق، وإن الخالق هو المدبر لِما خلق لأنه الخالق، وهما لزام بعض فطرياً وعقلياً وواقعياً، وليس الفصل بين الخالق والمدبر ألّا عضلاً للخالق عما خلق وهو به أعرف وعليه أقدر، وإعطاءَ التدبير لغير الخالق وهو مخلوق كسائر المخلوق، لا يسطع على تدبير نفسه فضلاً عن الآخرين.

و﴿يَهْدِينِ﴾ بصيغة المضارعة بعد خلقني الماضي، إشارة إلى استمرارية الهداية في كلّ حلقاتها ما دام الكائن كائناً، كما الهداية تعم كلّ شؤونه بل وكل شيء وكما في جواب موسى لفرعون: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٢].

٣ - ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾ كفالة حانية حامية عن جوعتي وهي سؤل الجسم، فكيف لا يكفل سؤل الروح، والهداية تشمل كلّ سؤل بسؤال ودون سؤال!

٤ - ﴿وَيَسْقِينِ﴾ فمادة الإطعام والسقي هي من خلقه، ومعرفة الحصول عليها هي بهدايته.

٥ - ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فالمرض مني لمكان ﴿مَرِضْتُ﴾ والشفاء منه والدواء منه وعلم الأدواء والإدواء منه مهما كان هنالك أطباء، فإنهم بعلومهم منه، وقد يُمرض الله لما قدمت أيدينا أم لإصلاحنا فهو منا.

٦ - ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾ كما خلقني، فلا يميت إلّا الخالق مهما كانت للموت ظاهرة الأسباب.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

٧ - و﴿يُحۡيِينِ﴾ ليوم الحساب، يوم تتقطع الأسباب وتحار دونه الألباب.

٨ - ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ لا سواه، إذ لا غافر إلّا إياه حيث المَعصي والمطاع - كإله - ليس إلّا إياه.

وقد جمع ذلك التعريف العريف برب العالمين إلى ربوبيته المادية الربوبيةَ الروحية، وإلى الهدى المادية الهدى المعنوية، وإلى ربوبية العاجل ربوبيته في الآجل، جمعاً بين المبدأ والمعاد وما بين المبدء والمعاد، وذلك هو ﴿رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ليوم الدنيا ويوم الدين، أما أنتم فـ ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ دون أن تحمل أياً من هذه المواصفات الثمان التي هي لزام الربوبية والمعبودية! فأنى تؤفكون؟ أإفكاً آلهة دون الله تريدون؟.

ولماذا بالنسبة لغفر الخطيئة ﴿أَطۡمَعُ﴾ دون قطع رغم وعده تعالى للمؤمنين، دون سائر ما ذكر من قبل؟ لأنها كلها مقطوعة غير ممنوعة حسب سنة التكوين، ولكن الغفر يوم الدين ليس سنة قاطعة فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١). وهل أن إبراهيم كان مخطئاً وهو نبي حتى يطمع غَفْرَه يوم الدين؟.

إنه يقوله قبل حكمه الرسالي الذي يتطلب العصمة المطلقة ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ فلعل له خطيئة قبل عصمة الرسالة! أم إنه تطامن وتذلل أمام الرب قصوراً عما يناسب ساحته تعالى، وعلّ منه طلب الغفر لأبيه وهو قبل حكمه الرسالي.

ثم هذا لسان حال المقربين وقالهم تذليلاً لساحتهم وتبجيلاً لساحة رب العالمين فـ «حسنات الأبرار سيئات المقربين» ثم وتعليماً للمخطئين كيف يجب عليهم أن يستغفروا الله.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

وما هو دور ﴿لِي﴾ في ﴿يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي﴾؟ علّه سلبٌ لوسيط الشافع فإنه غفرٌ للشافع كوسيط، وكذلك سلبٌ لانتفاعه تعالى بغفره، وإنما ﴿لِي﴾.

ولماذا ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ وظرف الغفر الصالح هو يوم الدنيا؟ علّه لأن الغفر يوم الدين هو المهم في غفر الخطايا، والبرزخ ليس محل الغفر، والغفر يوم الدنيا قد تلحقه خطيئة أُخرى، ولكن الغفر يوم الدين هو الكاسح الماسح غبار الخطيئة بأسرها.

هنا يسأل الخليل بجدارةٍ ربّغه الجليل زاداً لراحلة الدعوة الرسالية، عاجلاً وآجلاً إذ نجح في ذلك الاختيار:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

وذلك حكم رسالي خاص يطلبه بعد الرحمة العامة، فهناك ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ في مواصفات تُدرُّ رحماتها على العالمين، وهنا ﴿رَبِّ﴾ نظراً إلى الربوبية الخاصة لأصحاب الحكم من الله، فيستوهب - إذاً - ﴿حُكْمًا﴾ ما لم يكن له لحدِّ الآن، وليتزود به في دعوته الصارمة أمام الدعايات الضالة العارمة.

وقد يجمع الحكم المستوهَب هنا تحكيم الأحكام الفطرية والعقلية والعملية، إلى الحكم والحكمة الرسالية، حيث الحكم أعم من الرسالة، وإطلاقه هنا يعمها وسواها من حكم يستحكم عرى الدعوة الإبراهيمية الشاملة، ولحد الإمامة بين المرسلين نسبياً.

وقد يعني ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ إضافة إلى يوم الدين، لحوقه بهم يوم الدنيا، أن يكون من زمرتهم وهم الرعيل الأعلى من المقربين، نوح وموسى والمسيح وخاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد يعني من ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾ كمال القوة النظرية المستكملة بقوة الوحي، ومن ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ كمال القوة العملية وكما بالنسبة لمن

جعلهم الله أئمة وهو منهم ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ. . .﴾[١].

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

وقد استجاب له دعواته، فالأخيرة نجدها في مريم ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾[٢].

﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ هنا هو لسان صادق مصدِّق مصدَّق حالاً وقالاً وأفعالاً، و﴿ٱلْءَاخِرِينَ﴾ هم حملة الرسالة الأخيرة، محمد ﷺ كرأس الزاوية، وسائر الأئمة من ولده كسائرها[٣] وقد تعني ما تعنيه آية الصافات، كمريم ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾[٤] والزخرف: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٥] وطبعاً كبعض المصاديق الصالحة[٦] ودعاءٌ من إبراهيم تستمر طيلة حياته المنيرة وحتى بناء البيت وهو في أخريات عمره: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٣) راجع تفسير الآية في سورتها وفي تفسير البرهان ٣: ١٨٤ تتمة الحديث السابق عن الصادق عليه السلام «. . بيان ذلك في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٤] أراد في هذه الأمة الفاضلة فأجابه الله وجعل له ولغيره من الأنبياء ﴿لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهو علي ابن أبي طالب عليه السلام وذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا. . .﴾ [مريَم: ٥٠].
وفي ملحقات إحقاق الحق ٣: ٣٨٠ في الآية «هو علي عليه السلام عرضت ولايته على إبراهيم عليه السلام فقال: اللهم اجعله من ذريتي ففعل الله ذلك» أورده عدة من أعلام القوم منهم الحافظ أبو بكر ابن مردويه في كتاب المناقب كما في كشف الغمة ٩٤ روى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: . . . ومنهم المير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٥٥ نقلاً عن ابن مردويه عن الباقر عليه السلام.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٧٨.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

(٦) راجع تفسير آية الزخرف للحصول على تفصيل المعنى.

ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ...﴾[(١)] ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾[(٢)].

وقد يلمح ﴿لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أن من الأولين ومن بعدهم كاذبين بحقه، كما اليهود والنصارى ينسبون إليه ما هم يعتقدون من ضلالات في حقل المعرفة والعمل، وأما محمد ﷺ فهو لسان صدق له في الآخرين، استمراريةً لدعوته الرسالية، وإفصاحاً بكيان إبراهيم كأفضل الموحدين.

﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾:

وهم ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[(٣)].

والمؤمنون حقاً: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا... وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾[(٤)] والعاملون الصالحات بإيمانهم: ﴿... وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا... وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٥)].

وهل هي ميراث عن الله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٦)] يرث ولا يُورث! أم ميراث عن صالحين؟ وهم أنفسهم من ورثة جنة النعيم!

إنها ميراث لهم عمن ليسوا بداخليها حيث طغوا وما اتقوا، وإبراهيم يستدعي بعدما دعى أن يصبح من أهل الجنة، وطبعاً من أئمتهم وكما كان يوم الدنيا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآيات: ٢-١١.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

ويا للتواضع والإشفاق من التقصير، ويا للخوف من تقلب المصير، إن مثل الخليل يطلب من الجليل أن يجعله من أهل الجنة، على علو محتده!

﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾:

وقد يكون ذلك التطلُّب من خطيئاته، غير المحرمة في شرعة الله، حيث لم يصب فيها واقع الأمر كما استدركه له ربه ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾(١) واستثني من الأسوة به ذلك الخطإ، غير القاصد ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ... إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ...﴾(٢).

وعلَّ الموعدة هي المفهومة من قول أبيه ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾(٣) كما شرحناه في مريم، وذلك الاستغفار كان في بداية عمره ومفتتح أمره قبل حكمه الموهوب، ثم لم نسمعه يدعو في خاتمة أمره وعمره إلّا: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾(٤) دون أبوي، وقد تبرأ من أبيه منذ دحر طويل، فوالده - إذاً - غير أبيه كما فصلناه في محالِّه.

وقد تلمح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ إلى ضلاله المحتوم قبل موعدته التي أخرجته عن حتمه، والضال المتحري عن الحق ليس كالمتجري على الحق، فيُدعى للأوّل دون الأخير.

وذلك من حنانه في الدعوة لمن هو كوالده في شأنه التربوي، مهما كان مشركاً ولكنه ﴿... وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ أصبحت كوعد له بالإيمان فسلم عليه ووعده الاستغفار ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾(٥).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٤.
(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(٣) سورة مريم، الآية: ٤٦.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.
(٥) سورة مريم، الآية: ٤٧.

وقد يبدو من ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[١] أنه كان قبل موته، وقد تبين له خلف وعده وإن لم يكن ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ ليجد مجالاً للتفكير، وإنما مجالاً ملياً كيلا يسمع دعوة الحق ثم لكل حادث حديث.

فبطبيعة الحال لم يكن هذا الدعاء فور تركه أباه، وإنما بعد مليٍّ أم لمَّا أُوتي حكماً فتبين له أنه عدو الله.

﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

وكيف ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ بعد ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾؟ إنه دعاءٌ وليس هو في واقعه حتى يتقدم سلبه على إيجابه، ثم هو مع إيجابه دعاءٌ على تخوُّف من سلبه، وهذه قضية أدب العبودية حيث يحصر النصرة في الله، فإذا لم ينصره في الدنيا أو الآخرة خزي، وكما كان يدعو رسول الهدى ﷺ في صلاته «اللهم لا تخزني يوم القيامة»[٢].

وليس من الخزي المطلوب سلبه دخول آزر في الجحيم، إذ لم يكن والدَه وقد تبرأ منه قبل موته، فرواية الخزي مخالفة لكتاب اللّه وساحة الرسول ﷺ بريئة من أمثالها[٣].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٢) الدر المنثور ٥: ٩٠ - أخرج أحمد عن رجل من بني كنانة قال صليت خلف النبي ﷺ عام الفتح فسمعته يقول: . . .

(٣) في الدر المنثور - أخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة يقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

ثم ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[١] فكيف يستسلبه إبراهيم عن نفسه؟ إن الخزي - وهو عدم النصر ممن يؤمل منه النصر - قد يكون طاماً في دركاته فهو للكافرين كما السوء، وقد يكون جانبياً لتقصير أو قصور وهو يعم سائر المؤمنين، ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ وإبراهيم يدعو بما يدعو ولمّا يؤتَ حكماً، وهو على تخوُّف من عاقبة حاله يوم الدين، فلأن ﴿يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ هو ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ فلا ناصر - إذاً - إلّا الله.

وهل الآية ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ...﴾ إلى سبع عشرة آية هي من تتمة دعاء إبراهيم؟ وهو بعيد كلّ البعد عن حالة الدعاء، أن تشمل على تفاصيل لا صلة لها بالدعاء إلّا تعريفاً لمن لا يعرف! فهي - إذاً - من كلام الجليل يلحّق بها دعاء الخليل، تكملة للمعرفة في هذه الإذاعة القرآنية.

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ﴾ إذ ليس هنالك مال، ولا ينفع يومئذ مال الدنيا بما هو مال لزوال المجال، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ حيث تنقطع هناك كلّ الصِّلات: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[٢] - ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾[٣].

أجل إنه ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ...﴾ - ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ فينفعه ماله الذي قدمه في سبيل الله، وبنوه الذين رباهم على شرعة الله، فإن كان له مال وبنون فاستثناء متصل، وإن لم يكن له مال ولا بنون فقد يكفيه قلب سليم، فاستثناء منقطع، والجمع بينهما أجمل وأكمل، حيث المال المصروف في الله، والبنون الصالحون، هما في الباقيات الصالحات: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ

(١) سورة النحل، الآية: ٢٧.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠١.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1] فهناك النفع ينحصر في قلب سليم بمخلفاته مهما لم يكن لصاحبه مال ولا بنون، وينحسر عن قلب غير سليم مهما كانت لصاحبه أموال وبنون.

أجل ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من كلّ نائبة وآئبة عائبة، من كلّ مرض وغرض، ومن كلّ حب وهوى إلّا الله، وليس نفع الشفاعة أيضاً إلّا لمن ارتضى الله فـ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[2].

فالقلب «السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه، وكل قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط، وإنما أراد بالزهد في الدنيا لتفزع قلوبهم إلى الآخرة»[3].

«سليم من حب الدنيا»[4] فإن حب الدنيا رأس كلّ خطيئة، فـ «صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم لأن سلامة القلب من هواجس المذكورات تخلص النية لله في الأمور كلها...»[5].

وإن سلامة القلب يومئذٍ تنفع بقدرها فإنها درجات، كما إن عتامته تضر بقدرها فإنها دركات، والنيات والأعمال الصالحة هي من خلفيات سلامة

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٣) نور الثقلين ٤: ٥٨ في أصول الكافي القمي عن أبيه عن القاسم بن محمد عن المنقري عن سفيان بن عيينة قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٩]؟ قال: السليم..» وفيه في آخر قال قلت له: ما حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً؟ فقال: التواضع درجات منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب أن يأتي إلى أحد إلّا مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عاف عن الناس والله يحب المحسنين».
(٤) المصدر مجمع البيان وروى عن الصادق عليه السلام:...
(٥) المصدر عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام:... قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

القلب عما يرينه، وتزيده سلامة، كما الأعمال والنيات الطالحة تزيده عتامة، فكل خير أو شر من الإنسان هي صادرة من قلبه، فواردة إلى قلبه، فهو مورد كما هو مصدر.

فلأن «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء» فصاحب القلب المدعي سلامته، غير الصالح في أعماله، كاذب في دعواه، وقلبه مقلوب عن الهُدى، مغلوب بطوع الهَوى، وليس الإيمان - وهو حالة القلب - إلّا قرينا بصالح العمل، وكما نرى قرنْه لزاماً في كلِّ القرآن.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾:

﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ. . .﴾ وأُزلفت الجنة وقرِّبت للمتقين، الذين كانوا من عذاب ربهم مشفقين، ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ حيث كانت كامنة في الغاوين، فتبرز بما برز وليوم الدين، وأما الجنة فهي قضية فضل الله، مخلوقة بأرضها قبل يوم الدين، ولكن الجحيم تُصلى بما يردها أهلوها من الغاوين، فلذلك الجنة تُزلف والجحيم تبرز: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾[1] - ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[2] فهنا إزلاف التقريب لغير بعيد، وهنالك تبريز التسعير حيث يحشر كلُّ بعيد.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

ولقد ضلّ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[3] - ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾[4].

(١) سورة التكوير، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٢) سورة ق، الآية: ٣١.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣٠.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٨.

وذلك سؤال التقريع والتأنيب بما كانوا يعبدون، وظلوا عليها عاكفين، وهم ضلوا عنهم وقت الحاجة الحارقة، فـ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ هناك؟ ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم حين يعذبون؟ لقد ضل عنهم كيانهم كآلهة، وحين يبرز لهم كونهم فهم معهم معذبون، اللهم إلّا الصالحون من الملائكة والنبيين ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[١].

وأما الطالحون فـ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٢] - ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[٣]:

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

ثالوث منحوس هم صِلاء النار، الأصلاء فيها: (١) إبليس بجنوده أجمعين (٢) الغاوون (٣) المعبودون من دون الله أصناماً وسواها إلّا المتقين، ومهما لم تشعر الأصنام عبادتها ولا عذابها، ولكن الغاوون العابدون يضاعَف لهم العذاب إذ يرون آلهتهم يعذبون.

والكبكبة هي الانكباب مرة بعد أخرى على الوجه، و﴿هُمْ﴾ هم المعبودون، ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ هم العابدون ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ هم المضلِّلون من الجنة والناس، لا فحسب «ذريته من الشياطين»[٤] اللهم إلّا أن يعني ذرية الشيطنة، فالشياطين - إذاً - هم أعم من الإنس، أجل! إنهم على كبكبتهم يوم الدنيا يُلَقون على وجوههم في النار يوم الدين، ويْكأننا نسمع الآن من جرس اللفظ هنا جرس الكبكبة هناك في النار، لفظ يصور بجرسه لمعناه.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٩.

(٤) نور الثقلين ٤: ٥٨ في أصول الكافي بسند متصل عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام قال: جنود إبليس ذريته من الشياطين.

هنالك تبرز لهم آلهتهم التي ألهتهم بعدما ضلوا عن ألوهتهم وإلى مسرح الحوار بين العابدين والمعبودين:

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

﴿قَالُوا۟﴾ الغاوون المشركون ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ مع بعض، طواغيت وأصناماً ﴿تَٱللَّهِ﴾ الذي لا إله إلّا هو ﴿إِن كُنَّا﴾ بتأكيد أكيد ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ غارقين في خضمّه ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تسوية جاهلة، ظالمة قاحلة، فإنها في كلّ حقولها ضلال مبين يبين ضلاله.

فكل تسوية بالله، في ذاته أو صفاته أو أفعاله، في عبوديته واحترامه كمعبود، في حرمة قلبية أو طقوس قالبية، كلّ ذلك ضلال مبين، بين إشراك جلي أو خفي أو عصيان. فـ «اعلم أن من شبه ربَّنا الجليل بتباين أعضاء خلقه، ويتلاحم أحقاق مفاصله، المحتجبة بتدبير حكمته، إنه لم يعقد غيب ضميره على معرفته، ولم يا يشهد قلبُه اليقين بأنه لا ندّ له، وكأنه لم يسمع بتبري التابعين من المتبوعين وهم يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ فمن ساوى ربنا بشيء فقد عدل به، والعادل به كافر بما تنزلت به محكمات آياته ونطقت به شواهد بيناته، لأنه الله الذي لم يتناه في العقول فيكون في مهبِّ فِكرِها مكيَّفاً، وفي حواصل هويّات همم النفوس محدوداً مُصَرَّفاً، المنشئُ أصناف الأشياء بلا رويَّة احتاج إليها، ولا قريحة غريزة أضمر عليها، ولا تجربة أفادها من موجودات الدهور، ولا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور»[1].

---

(١) التوحيد للصدوق خطبة لعلي عليه السلام يقول فيها: أيها السائل اعلم...

وترى كيف ﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهم كانوا يعبدونهم دون الله؟ علّ القصد من التسوية في أصل العبادة، فكما الله يُعبد كذلك كنا نعبد أصناماً كأنها الله.

ثم التسوية بين الله وخلقه محظور في كلّ الحقول المعرفية والعبودية والطاعة والاحترام، إن كانت تسوية واقعية فضلال مبين، وإن كانت ترجيحاً لغيره عليه فإشراك إلحاد أم إلحاد.

والتسوية إن كانت قاصدة فإشراك أو إلحاد جلي، وإن كانت جاهلة فإشراك خفي، فمن يسجد أو يركع لغير الله معصوماً وسواه، كما يُركع ويُسجد لله، فإن كانت عبودية فإشراك جلي، وإن كانت احتراماً فخفي.

ومن يقول لولا فلان لما نجحت، فقد سوى بالله سِواه، أو قال إن شاء الله وشاء فلان فكذلك الأمر، أو كتب اسم الله ردف اسماء مَن سواه، قاصداً تسويتها به وغير قاصد، فهو - على أية حال - في ضلال، مهما اختلفت دركاته، من فسوق، إلى شرك خفي، إلى شرك جلي، وإلى إلحاد في الله.

أجل وكل تسوية بالله قاصداً وسواه، إنها ضلال مبين، فإنها تسوية بين الفاضل والمفضول، أم وأنحس منها وأنكى ترجيحٌ للمفضول على الفاضل.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

ويْكأن المشركين الغاوين ليسوا هم من المجرمين، أم يعنون بهم أصول الإجرام من جنود إبليس الذين أضلوهم.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾:

عند الله، لا المعبودون من دون الله ولا المجرمون، و﴿شَٰفِعِينَ﴾ بديل «شافع» تلمح أنهم على علم من شافعين هناك يشفعون للبعض من أهل

الجحيم وهم موحدون، فيتحسرون على حرمانهم ووجد من سواه من المعذبين[١].

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾:

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢] وحتى لو كان هناك صديق فليس حميماً، ولو كان حميماً فهنالك الصلات منقطعة، فإنه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٢﴾:

«لو» تَحسُّر لما يرونه من المستحيل ﴿أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ إلى حياة التكليف ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٠٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤﴾:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ العرض الفسيح الفصيح لقصة إبراهيم وقومه ﴿لَءَايَةً﴾ لهؤلاء المشركين زمنك يا رسول الهدى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مهما تواترت عليهم آياتنا البينات ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بخاصة الربانية ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الغادرين ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين، فلا تأس على القوم الكافرين، ولا تيأس من رحمة ربك العزيز الرحيم.

---

(١) في المجمع وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال سمعت النبي ﷺ يقول: إن الرجل يقول في الجنة: ما فعل صديقي؟ وصديقه في الجحيم، فيقول الله: اخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].
روي بالإسناد عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: والله لنشفعن لشيعتنا ثلاث مرات حتى يقول: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ . . .﴾.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ١٢٠ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

ثماني عشرة آية تستعرض دعوة نوح الرسالية حواراً مع قومه بصورة خاطفة منذ البداية حتى غرقهم أجمعين:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾:

﴿قَوْمُ﴾ في لفظها مؤنث تصغيرها قويمة، يجوز في فعلها المقدم الوجهان ومن الثاني: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ وهي كالظرف والمجرور، تعم حين انفرادها القبيلين، وحين تنضم إلى نساءٍ تعني قبيل الرجال، كما ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ تلحقها ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾(١).

(١) سورة الحجرات، الآية: ١١.

فـ ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ هـم كلّ الـمرسل إليهـم نـوح، وهـو أوّل من دارت عليه الرحى من أولي العزم الخمسة، وقصة نوح تُقصُّ في سور عدة[١] وتختص بها سورة واحدة، مما يشي إلى بالغ الأهمية في عرضها في هذه الإذاعة العالمية القرآنية، كقصة موسى وابراهيم والمسيح ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وترى كيف ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾؟ ولم يأت في سائر القرآن إلّا تكذيبهم - فقط - نوحاً لا سواه!

علّه لأنه تكذيب لسلسلة الرسالات ككل، فإن مقالهم هو مقال تكذيب الرسالة بأسرها، وإن تكذيب رسول واحد ثابت الرسالة بآياتها هو تكذيب للرسالات كلِّها، ولا سيما الرسالة الأولى وهي مفتتح ولاية العزم، أم لأنه «مكث نوح ألف سنة إلّا خمسين عاماً لم يشاركه في نبوته أحد، ولكنه قدم على قوم مكذبين للأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم...»[٢].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾:

﴿إِذْ قَالَ﴾ هنا كظرف لذلك التكذيب الجماهيري، تؤيد أن تكذيبه كان تكذيباً للمرسلين، مهما سبقه تكذيبهم من قبل.

وتلك الأخوة هي الأخوة في الإنسانية وفي المواطنة، فلا بد أن تنجر إلى الأخوة في حق الإنسانية من هداها، طرداً لرداها، ومن حق الأخ على

---

(١) كالأعراف ويونس وهود والمؤمنون، والخاصة به سورة «نوح».

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام حديث طويل يقول فيه فمكث نوح... وذلك قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٥] يعني من كان بينه وبين آدم إلى أن انتهى إلى قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشُّعَرَاء: ٩] - وقال فيه أيضاً: فكان بين آدم ونوح عليه السلام عشرة آباء كلهم أنبياء، وفي روضة الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن محمد بن الفضل عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام مثله.

الأخ أن يحاول في هداه وقد فعل نوح وبلسان الأخوة الحانية ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فيما تبغون وأنتم تطغون؟ و﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ في بزوغ الدعوة مما يزعزعهم عن تقاليدهم الجاهلة، ويجعل إلى قلوبهم منفذاً للاستماع إلى الدعوة الرسالية، تخوّفاً من الواقعة الموعودة، إذ هم ليسوا على علم مما هم عليه.

ولأن تقوى الله لا بد لها من صورة كما لها من سيرة، فوسيط الرسالة هو لزامها على أية حال، وكأنه يجيب بعدئذ عن سؤال كيف نتقي الله؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾:

أمين على رسالة الله إليكم، فلا تجدون فيّ خيانة في تلك الأمانة حالاً ومآلاً وأفعالاً، وكما لمستموه مني حتى الآن، إذ ما خنتكم كخلق الله ومرسلاً إليكم من الله، فكيف أخونكم في رسالتي لكم من الله؟ وهنا يعود مرة ثانية يأمرهم بتقوى الله بذريعة الرسالة:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾:

﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في: كيف يُتقى الله، فإني أحمل رسالة الله بكل أمانة، ثم ولا أكلفكم على رسالتي - بكل صعوباتها وملتوياتها ومنحنياتها - أجراً، مما يزيد لي تصديقاً:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾:

وعدم سؤال الأجر أو قبوله سنة مستمرة طول خط الرسالات، مما يسهِّل الإقبال إليها دونما صعوبة وتكلف، فالركن الأوّل لها هو الإيجابي: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ والثاني هو السلبي: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فالدافع لتصديقها واقع، والمانع عنها غير واقع، فما بقي هنا إلّا القبول، ويطبيعة الحال لا يدعي الرسول ما يدعيه دون برهان مبين يقطع كلّ الأعذار ويقنع الأفكار.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾:

يكرر هنا الأمر بتقوى الله وطاعته هو كرسول الله، لتكرار الدافع لها، وهو السلب إلى الإيجاب، وهذه ثالثة ثلاثة في أمر التقوى، مما يدل على أنها هي المحور الأصيل في كلّ شرعة إلهية، حيث تجتمع فيها كلّ الأصول العقائدية والفروع العلمية، من واجبات ومحرمات تجمعها تقوى الله وطاعة الرسول في الله.

وذلك خلاف ما عهده الناس من الكهَّان وقسم من رجال الأديان من استغلال الدين لابتزاز الأموال بشتّى الأساليب، فدعوة الله الحقة متجردة عن كلّ أجر إلّا من الله.

وخلاف عهد آخر لهم من النسناس المتزيين بزي الدعاة إلى الحق وهم في الحق على باطل نكد، فلكي يلصقوا باطلهم إلى قلوب الناس لا يطلبون أجراً بل ويصرفون أموالاً طائلة ويرخّصون الجنس، ويقدمون كلّ ألوان المشتهيات الحيوانية، لكي يجلبوا أنظار الناس إلى ما يدعون.

ولكن رجالات الله، الدعاة إلى الله، هم متجردون عن كلّ هوى إلّا هوى الله، وعن كلّ أجر إلّا من الله، متزودين بآيات الله البينات، واقعيين متصلبين في وجهاتهم الدعائية لا تحركهم العواصف ولا تزيلهم القواصف.

والمهم في دعامَتَي الرسالة الحقة الأمانة ثم الأمانة، وليس عدم سؤال الأجر إلّا قاطعاً للأعذار المادية بعد قطع الأعذار المعنوية، فليس - إذاً - مستقلاً بجنب الأمانة، ولذلك تأخر عنها تأكيداً للتصديق.

فالرسول الأمين الذي يطلب أجراً لا يتوفَّق في دعوته لا سيما والأكثرية الساحقة من المهتدين فقراء، وغير الأمين وإن دفع أجراً بديل طلبه إياه لا يدعو إلّا إلى النار، فليكن الرسول جامعاً بين الأمرين ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾:

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾[1].

نعم ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ ﴿أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾[2] المعروفون عندهم بحساب الهوى وقيم الدنيا الرذيلة، ألّا مال لهم ولا منال، فلو كانت دعوتك حقة لاتبعك الأعلون، ذوو الحنكة المتحضِّرون، فلمّا اتَّبعك الأرذلون عرفنا أن دعوتك رذيلة لا تحمل أية فضيلة.

أم إن كانت دعوتك حقة فلتطرد التابعين الأرذلين حتى يفسح لنا مجال اتباعك، حيث التسوية بيننا وبينهم ضلال مبين.

لكن ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ في ميزانهم المتأرجف اللعين هم السابقون دوماً إلى الرسل، أخفاء في قبول الحق لا تُثقلهم وتُقعدهم عنها أغلال الثروات والطنطنات والكبرياءات والمصلحيات القائمة على الأوضاع المزيفة.

فإيمانهم الموعود شريطة طرد المؤمنين: ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ في حسابهم هو خلاف متن الإيمان وقضيته، حيث يوحِّد بين قبيل المؤمنين، فلا أكرم عند الله منهم إلّا أتقاهم، ولا فوارق بينهم إلّا تقواهم، فهي التي توحِّد صفوفهم، وهي التي تميز بينهم بفاضلها.

هنا نجد الجواب الحاسم من نوح في حلقات أربع كلّ واحدة تكفي حسماً لعذرهم الغادر:

﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢﴾:

فإن كانت ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ حالتهم السابقة على الإيمان، فما علمي

(١) سورة هود، الآية: ٢٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٢٧.

بأعمالهم السابقة؟ وإنما المعلوم عندي حالتهم الحالية وهي الإيمان، وذلك هو المطلوب منهم الآن أياً كانت أعمالهم السابقة.

وحتى لو كانوا محاسَبين برذالة سابقة - ولا يحاسبون - «يغفر لهم ما سلف» بإيمانهم الخَلَف، فـ :

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

ولست أنا المحاسب، فما أنا إلّا رسول الإيمان إلى أيٍّ كان، فحين تؤمن جماعة مهما كانت حالتهم السابقة رذيلة، كيف أطردهم، وما حسابهم عند الله إلّا حسناً يسيراً فليس - إذاً - ﴿وَمَا عِلْمِي...﴾ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ إلّا تنازلاً في الحوار، أن ليس عليَّ حساب لو أنهم محاسبون بما كانوا يعملون ولن! ثم وما عليّ إلّا البلاغ المبين فقبولاً لإيمان من أقبل دون أية محاسبة.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

فبأية حجة أطرد المؤمنين وما أحمل إلّا رسالة الإيمان ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ... وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[1].

وهذه سنّة رسالية دائبة: جذب المؤمنين وطرد المعاندين، فكيف - إذاً - أطرد المؤمنين؟ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2] أطردهم ثم أطري الكافرين المتطاولين المستكبرين؟!.

---

(١) سورة هود، الآيات: ٢٩-٣١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾:

﴿نَذِيرٌ﴾ من عذاب أليم ﴿مُّبِينٌ﴾ سببَ النذارة ومادتها، فكيف أطرد المنذَرين المؤمنين لرغبة المتأنفين المستكبرين، فإن هي - إذاً - إلّا رسالة الظلم والاستكبار! ولقد قلت لكم من ذي بدءٍ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وتلك - إذاً - خيانة في الرسالة أن أطرد المؤمنين، ونقضاً لصالحها إلى مصلحية الجمع لجم غفير من المستكبرين وهم كاذبون، بذلك يثبت نوح جدارة هذه الرسالة الأمينة أنها لا تخضع لرغبات الأقوياء الأغوياء، وإنما لحكم اللَّه جذباً للأبرياء الأتقياء.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾:

هذا جواب العاجز اللعين إذ يتنقَّل من الحجة - إذ يراها عليه لُجة - إلى التهديد ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾ عن دعوتك ودعايتك ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ وقد كان الرجم أشد عقوبة للمتخلفين، فقد بدأوا بحوار، ثم تطلَّبوا منه أن يأتيهم بما يعدهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1] وآخر المطاف ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾!

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾:

عرضٌ لحال معلومة عند الله، ولكنها موقف الدعاء تعرض فيه كلّ حالة بِقالةٍ متواضعة، ولأن تكذيب الرسالة راجع إلى تكذيب المرسِل فنوح هنا في ذلك العرض يتطلب إلى ربه أن يعالج موقفه الرسالي بفتح منه ونجاة له ولمن معه من المؤمنين، مما يلمح أنهم هُدِّدوا بالرجم كما هو، وقد يشير إليه ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ممن رجم أو يحكم له بالرجم. ﴿فَافْتَحْ...﴾ احكم

(١) سورة هود، الآية: ٣٢.

بيني وبينهم حكماً قاطعاً وأمراً فاصلاً، يفتح الباب المبهم بعد ما استصعب رِتَاجه، وأُعضل علاجه، ويقال للحاكم: الفتّاح، لأنه يفتح وجه الأمر بعد اشتباهه واستبهام أبوابه ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١) يفتح بعلم ويغلق ما انغلق ويفتق ما ارتتق.

وهذا الفتح هو بطبيعة الحال واقعه المميّز بين الفريقين وفيه نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين دونما اقتراح لنوعية الفتح استسلاماً لأمر ربه، فليس فتحاً في حكمه شرعة لأنه كان واقعاً منذ الدعوة، بل ومنذ بزغت شرعة في هذه البسيطة.

وقد فتح الله بينه وبينهم بعد ردح بعيد من الزمن، حيث الدعوة كانت ألف سنة إلّا خمسين عاماً:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

ولقد كان فلكه مشحوناً بشحنات الحيوان من مختلف أجناسها، ومن الذين آمنوا معه و«المجهز الذي قد فرغ منه ولم يبق إلّا دفعه»(٢).

وهذا إجمال جميل سريع يصور النهاية الأخيرة للمعركة المصيرية بين ضفة الإيمان والكفر في فجر البشرية تقريراً غريراً غزيراً لمصائر المعارك التالية للبشرية إلى يوم الدين، ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار!

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾:

تلحيق مكرور في ختام العرض لهذه الدعوات الرسالية، بنفس الصيغة

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٦.

(٢) في كتاب كمال الدين وروضة الكافي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

السابقة في عرض خاطف لمقابلة الكفار للرسالة الإسلامية، ولموسى وإبراهيم من قبل، ثم لهود وصالح ولوط وشعيب، آيات مكررات تعرض لهؤلاء المناكيد الأوغاد ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هنا وعبر التأريخ الرسالي ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره غير مغلوب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.



﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

تأتي قصة عاد أربعاً وعشرين مرة في سور عدة، في نجمها توصف بالأولى (٥٠) مما يدل على أنه اثنان، ولا خبر لنا عن الثانية، حيث الآيات كلها تتحدث عن الأولى، مما يدل على أنهم كانوا أظلم وأطغى، لحد أنسوها الأخرى.

وهنا تكرر المقالة البازغة بداية الدعوة الرسالية مرات خمس، تدليلاً على وحدة الرسالات دعوة ومغزى، مهما اختلفت في أحكام جزئية حسب المصالح الوقتية أما هيه، وهنا بعد عرض الرسالة - كما أسلفنا تفسيرها - يندِّد هود بقومه في نبرات[1]:

(١) في كتاب كمال الدين وروضة الكافي مسنداً عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن=

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾:

والريع هو المرتفع الرائع: فكانوا يبنون بكل مرتفع من الأتلال والجبال والغابات، أم مرتفعات صناعية ﴿ءَايَةً﴾ قصراً يشي بعظُمهم وصغار الآخرين ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بآية الريع مختلفَ العبْث: إسرافاً في زخرفات البنيان زيادة عن الحاجة الحيوية اللازمة بجنب الفقراء المعوزين، الذين قد لا يجدون أكواخاً فيها يسكنون، وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «إن كلّ ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلّا ما لا بدَّ منه»(١).

وتظاهراً وتفاخراً في ذلك التكاثر حيث تبدو هذه القصور من بُعد كأنها علامات، تُعلم بها مكانة أصحابها تطاولاً ومقدرة ومهارة.

فآية العبث بنياناً أمّا ذا هي آية الرعونة والتّرَف واللّامبالاة في الحياة، وكأنهم خُلِقوا عبثاً ليعيشوا عابثين.

= علي الباقر عليه السلام في حديث وقال نوح: إن الله تبارك وتعالى باعث نبياً يقال له هود وإنه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه وإن الله عز وجل يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه فإن الله تبارك وتعالى ينجيه من عذاب الريح، وأمر نوح ابنه سام أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كلّ سنة ويكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود وزمانه الذي يخرج فيه، فلما بعث الله تبارك وتعالى هوداً نظروا فيما عندهم من العلم والإيمان وميراث العلم والاسم الأكبر وآثار علم النبوة فوجدوا هوداً نبياً وقد بشرهم أبوهم نوح به فآمنوا به وصدقوه واتبعوه فنجوا من عذاب الريح وهو قول الله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٤].

(١) في المجمع - الخبر المأثور عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة فقال: ما هذه؟ فقالوا له أصحابه: هذا الرجل من الأنصار، فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه وصنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب به والإعراض عنه فشكى ذلك إلى أصحابه وقال: والله إني لأنكر رسول الله ﷺ ما أدري ما حدث فيّ وما صنعت؟ قالوا: خرج رسول الله ﷺ فرأى قبتك فقال: لمن هذه فأخبرناه فرجع إلى قبته فسواها بالأرض فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التي كانت هاهنا؟ قالوا: شكى إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها فقال: إن كلّ ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلّا ما لا بد منه.

فالعبث في أية ظاهرة من مظاهر الحياة هو آية التجاهل عن واقع الحياة ومسيرها ومصيرها، والتغافل عن مسؤولياتها تجاه الله وخلقه.

وكيف يسمح الثري لنفسه أن يعبث بالبنيان والملابس والمآكل والمناكح، على عيون العزَّل من ضروريات الحياة من البائسين المُعدمين؟!

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾:

المصنع من الصنع وهو إجادة الفعل، فالمصانع هي المكانات الجيدة الحصينة حفاظاً عن أية إصابة أرضية أو سماوية، من قصور حجرية أمّاهيه، كالمنحوتة في الجبال وكأنها تخلدهم في الحياة أكثر من آجالهم المقدرة لهم.

ذلك، وأما اتخاذ المصانع لدفع كيد العدو، أو السارق أمّاذا من مصالح حيوية عاقلة فليس بذلك الممنوع، بل مسموح ممنوح.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾:

فالبطشة الجبارة هي الظالمة المستكبرة، وأما المدافعة اعتداءً بالمثل فهي الحق العدل لكل مهاجم عليه في أي ناموس من نواميسه الخمسة أم نواميس الآخرين المحترمين، ولكنهم غلاظ متجبرون دونما تحرّج في بطشتهم، هجوماً بدائياً أو دفاعياً.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾:

تقوىً عن كلّ مظاهر الطغوى ومعالمها، وطاعة لرسول الهدى فيما يفعله أو يقوله عن الله.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾:

إمدادات ربانية في تسهيل الحياة، تقتضي شكوراً، فكيف تطغون فيما

أمدّكم، وتسطون بها على عباد الله، فإن لم تحذروا حاضر العذاب فـ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إذا متم بحالتكم البئيسة ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ برزخاً ويوم الدين.

أتراهم اتعظوا بهذه العظات البالغة؟ وهي لا تصل إلى قلوب مقلوبة غليظة جاسية؟:

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾:

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1] وهنا ﴿مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ قد تلمح إلى أن الواعظين كانوا عِدّة، عرْضياً يرأسهم هود؟ أم طولياً قبله وبعده في مثلث الزمان.

أم وحتى إن لم يبعث إليهم إلّا هود فهم بمقالهم هذا يكشفون عن حالهم تجاه الرسالات كلها: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ...﴾[2] فتكذيب هود بهذه المثابة هو تكذيب المرسلين أجمعين.

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾:

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ الذي تعظ به ﴿إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ من الواعظين، أساطير مكرورة طوال الزمن، وأكاذيب لصق بعض وتلو بعض.

أو ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ الذي نحن عليه ﴿إِلَّا خُلُقُ﴾ آباءنا ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فنحن على آثارهم مهتدون، وما نحن بتاركي خُلُقنا وهي تراث الأولين.

وقد يعنيهما ﴿هَٰذَآ﴾ فإنهما من مقال الكافرين بالرسالات، وبناءً عليه:

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾:

رغم ما تعدنا الوعود المكرورة من الواعظين الواعدين.

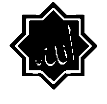
---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)﴾:

عرض خاطف لمصيرهم الهالك في مسيرهم الحالك، يُطوى فيه أطغى طغاة التاريخ وتُطوى آيات كلّ ريع لهم ومصانعهم وكل نعيم لهم، إلى عذاب مقيم!



﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿ثَمُودُ﴾ هم إخوان عاد في الطغيان ورعونة الحياة، يتشابهان في دورهم اللعين وكورهم المهين، ودعوة صالح الرسالية هي نفس الدعوات ثم التنديد:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾:

﴿مَا هَٰهُنَآ﴾ مشروح فيما هاهنا ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ...﴾ وقد اختص «ونخل» من بين شجرات الجنات لأنها أهمها ثمرةً وإنتاجاً، وكانوا يهتمون بها أكثر من غيرها، والطلع هو الطالع من النخلة كنصل السيف في جوفه

شماريخ، والهضيم هو اللطيف من قولهم فلان هضيم الحشا أي لطيف البطن وأصله النقصان من الشيء كأنه نقص من انتفاخ بطنه فلطفت معاقد خصره ومنه ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[1].

وهو اليانع البالغ، والذي إذا مُسَّ تهافت من كثرة مائه ورطوبة أجزائه.

فهو النضيج الذي أرطب ثمره وهذه هي أفضل حالة لطلع النخل بدخول بعضه في بعض فكأن بعضه هضم بعضاً لفرط تكاثفه وشدة تشابكه.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩)﴾:

الفَرَه هو الأشَرَ، فالفاره هو الأشر البَطِر، والبيوت الجبلية هي الفرهة المَرِحة، يُعبث بها لحياة الفرح والمَرَح.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ من متعة الحياة وشره اللّامبالاة، في جنات وشهوات ﴿ءَامِنِينَ﴾ من بأس الله الذي هو لا محالة آت؟

أتظنون أنكم ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ تتركون لحيوَنَة الحياة، في كلّ دعة ورخاء وكل مُتَع الحيْونات؟ ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ لا يردعكم فوت، ولا يزعجكم موت.

لمسات موقظة تجذبهم إلى التقوى، ابتعاداً عن الطغوى، ولكنها لا تلمس تلك القلوب المقلوبة، الجافة الجاسية، إذ لا تصغى لها ولا تلين بها.

﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾:

فطاعة التقوى هي طاعة الله وطاعتي كرسول من الله، وطاعة الطغوى هي طاعة مَن سوى الله ولا سيما المسرفين في التخلّف عن الله وعن شرعته ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ساعين في إفساد الحياة الأرضية في كلّ جنباتها الإنسانية بل والحيوانية، ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أبداً.

(١) سورة طه، الآية: ١١٢.

فأصحاب الأمر والإمرة على طوائف ثلاث، مصلحون لا يفسدون وهم الدعاة إلى الله معصومين وسواهم، إلّا خطأ من سواهم، ومصلحون قد يفسدون، أو مفسدون قد يصلحون، وهم نَحِسون حسب دركات إفسادهم، ومفسدون لا يصلحون وهم المسرفون في إفسادهم، و﴿أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ليس - فقط - ما يقابل النهي، حيث الطاعة المنهية لا تخص هذا الأمر، بل والنهي المسرف أحرى أن تترك طاعته، كما النهي عن المنكر يتقدم الأمر بالمعروف، وإنما الأمر هنا فعلهم وشأنهم وإمرتهم وأي أمر منهم بفعل أو ترك أم ماذا؟.

واختصاص ترك الطاعة هنا لا يحصر النهيَ في طاعة أمرهم، فطاعة الأمر غير المعصوم صاحبُه، أو المأثوم، هذه منهية على أية حال، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ﴾ هنا قضاءٌ حاسم على الأمر الفادح الفاضح كأولى خطوة صالحة إلى الله، ومن ثم الخُطى الأخرى التي تتبنّى الخطوة الأولى! تركاً لطاعة من سوى الله ككلٍّ، إلّا رسول الله، وكل من يحمل عنه ما حُمّقله حليماً تقياً، لحد يُعتبر أمره أمرَ الله وكما عرَّف به الله.

فليس من صالح الدعوة الرسالية حمل الشاردين كهؤلاء البعيدين على الشرعة ككل، وإنما يؤمرون في البداية ويُنهون، في أوليات العقائد والأخلاق والأعمال، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تكفل هذه البداية دونما إفراط ولا تفريط.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾:

لقد حصروا كيانه الرسالي في السحر: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ ولماذا؟ لأنهم حصروا كيانهم أنفسهم في الشهوات المضللة ضد الرسالات، وبطبيعة

الحال ليست ردة الفعل ونبرة القول لـ ﴿إِنَّمَآ﴾ الضلالة وجاه ﴿إِنَّمَآ﴾ الهدى إلّا ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾!. إذ ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تريد أن تتفضل علينا، وتُرى المماثلة في أصل البشرية مما يحيل الرسالة إلى البشرية لحد يُجنَّن رسول البشر، أفليست هنالك تفاضلات بين قبيل البشر، يجعل للفاضل جدارة في كيان يحلِّق على المفضولين، وأفضل التفاضلات هي الرباط الروحي بين الإنسان وربه، علمياً وتربوياً لحد العصمة بمراتبها، فهل المعصوم بعصمة إلهية لا تحق له الرسالة إلى البشر، لحد يُرمى إلى السحر والجنون، ما هذا إلّا تذليلاً لساحة الإنسانية وحطاً من سماحته لحدّ لا تليق حمل رسالة إلهية إلى نفسها، فليكن الرسول من غير جنسها أم تبقى ضالاً بلا رسول!.

وإنها شبهة تخايل للبشرية المتفلتة الشريرة كلما جاءها رسول، إنها لا تستأهل أن يؤتى خبر السماء وهي عائشة الأرض، تغافلاً عن القيم المودوعة لخليفة الأرض، وإنها موهوبة القدرة على الاتصال بالملإ الأعلى وهي مقيمة الأرض.

تبقى هنا آية تدل على ذلك الاختصاص، فليُطلب بها مدعي الرسالة قبل رميه بالسحر، ولكنهم عكسوا الأمر، تقديماً لتهمة السحر على ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾:

﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾:

﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١] ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا...﴾[٢] ﴿إِنَّا

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾[١] هذه الناقة نفسها آية إذ خُلقت دون ولادة متعوَّدة، وكيف خلقت هي آية؟ أحرى بنا ألا نخوض فيه، فنكتفي بما قاله الله ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾.

ثم وتقاسُم الشِّرب وهو نصيب الشرب سوياً، آية أخرى، كيف تشرب ناقة بمفردها كشِرب جُمهرة الناس المرسَل إليهم صالح؟! وقد تكون نبعة الشرب آية ثالثة كما يروى[٢] وهل أن هذه الآية المبصرة أبصرتهم؟ كلّا وهم عميٌ لا يبصرون:

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾:

والعقر هو إصابة الأصل والقعر، وهو بالنسبة للناقة النحر المستأصل نحروها نحراً لآية الرسالة، وأخذاً لشربها، وأكلاً للحمها، ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ بعد ذلك وحين رأوا العذاب ﴿نَٰدِمِينَ﴾ ولات حين مناص، وتراهم عقروها كلُّهم؟ وهذا خلاف النص في آية القمر ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[٣]!.

مهما كانت الشمس تعمه وسواهم كسائر آيات العقر: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾[٤] ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾[٥] - وذلك بعد عقرهم الناقة وتحديهم صالحاً بإتيان العذاب ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾[٦]،

---

(١) سورة القمر، الآية: ٢٧.
(٢) مجمع البيان وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إنه أوّل عين نبعت في الأرض هي التي فجرها الله عز وجل لصالح فقال: لها شرب ولكم شرب يوم معلوم.
(٣) سورة القمر، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الشمس، الآية: ١٤.
(٥) سورة هود، الآية: ٦٥.
(٦) سورة الأعراف، الآيتان: ٧٧، ٧٨.

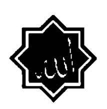
ذلك لأنهم شاركوا عاقرها إذ نادوه فتعاطى منهم سيفاً فعقرها كما في آية القمر، فهم كلهم مشاركون في درَك عن درَك، وقد عد عاقرها - فقط - أشقى الأولين(١).

«أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخطُ وإنما عَقَر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عمُّوه بالرضا فقال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ﴾ فما كان إلّا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة»(٢).

وقد نَسْتَلهم من «عقروها» أن كلّ مَشارك في ظلم أو معاون ظالماً يُجمع معه في إثمه، كلٌّ حسب دوره الفعال في الجريمة، وحتى في النيّةَ.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾:

تعقيب مكرور بصيغة واحدة لمصير المكذبين، وليُعلم أن صيغة الرسالات واحدة كصيغة المكذبين بها، سلسلتان متعارضتان في هذه المعركة المصيرية إلى يوم الدين.



(١) نور الثقلين ٥: ٥٨٧ قال رسول الله ﷺ لعلي ؑ: من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة قال: صدقت فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت لا أعلم يا رسول الله ﷺ قال: الذي يضربك على هذه وأشار إلى يافوخه.

(٢) نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين علي ؑ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)﴾:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ تنديد شديد بإتيانهم، و﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قد تتعلق بالآتين، أنكم أنتم المخصوصون بهذه العملية النكراء بين العالمين: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[1] وأخرى بالماتيين، فقد تلمح - إذاً - ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ دون «الناس» لعالم الجن، وإن قومه منهم كانوا كما الإنس يأتون الذكران منهم، والمعنيان - علّهما - معنيان ولكلٍّ وجهٌ، مهما كان الثاني أوجه.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾:

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٠.

وترى «من» هنا بيانية تبين ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾؟ والصيغة الصالحة لها ﴿أَزْوَاجِكُمْ﴾ أو «المخلوقة لكم»!

أم تبعيضية تعني عضو الجنس من الأزواج؟ وصيغتها السائغة لها «فروجَ أزواجكم»! إنها قد تعنيهما بياناً وتبعيضاً، والثاني لا يخص القبل، بل والدبر أيضاً مهما كان الأصل الصالح هو الأوّل، ولو كان إتيان أدبارهن محظوراً لما اختص التنديد بإتيان الرجال، وأما إذا اختص الرجل إتيان زوجه بدبرها تاركاً للآخر ففيه بحث آخر قد نفتي بالتحريم لأنه خلاف مصلحة الولادة الخاصة بإتيان القبل.

وقد تلمح ﴿رَبُّكُم﴾ أن قضية الربوبية الخلّاقة، المقتسِمة الناسَ إلى قسمي الرجال والنساء، اختصاص إتيان الجنس بالنساء، وأما الرجال مع الرجال لواطاً أمّا هو، أو النساء مع النساء مساحقة أمّا هي، فذلك تعدٍّ عن طور الخلقة وحكم الفطرة ومصلحة الولادة المقصودة بالزواج ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ صالح الربوبية، عادونَ قضيته الفطرة السليمة، عادون الحق المشترك بين الرجولة والأنوثة إلى المُجانس.

فالخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط المجرمون هي الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال شهوة من دون النساء: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1] - ﴿... بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[2] ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ...﴾[3].

فذلك الإتيان المتخلف جهالة وإسراف وتعد عن طور الفطرة الإنسانية وخلقتها، وقطع لسبيلها التناسلي أو العائلي!.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨١.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

وأما إتيان النساء شهوة قبلاً أو دبراً أما ذا؟ فلا محظور فيه لأنهن خلقن للرجال: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[1] مهما كان أصل الحرث هنا الولادة الحاصلة بالمقاربة العادية، ولكن الأخرى أيضاً هي على هامش الحرث، كما التفرج في حرث الزرع هو على هامش الحرث ولكن الأشبه الحرمة.

فقد برأ ﴿رَبُّكُم﴾ الذكر للأنثى والأنثى للذكر، وفطر كلاً منهما على الميل إلى قسيمه الإنسان تحقيقاً للحكمة العالية الربانية في امتداد الحياة الإنسانية من طريق التناسل، فكلما يدفع لتعطيل التناسل كأصل، هو خارج عن أصل الحل، سواء أكان لواطاً أم مساحقة، أو عادة سرية، أو إتيان حيوان أو إفراغاً للمني أو استعمال واسطة أمّاهيه من السبل القاطعة للنسل، اللهم إلّا في موارد استثنائية إلّا المنصوص على حرمته إطلاقاً كالأربعة الأولى، أم أحياناً كإفراغ المني عن الزوجة الدائمة دون رضاها ولا محظور، أو الإفراغ دائماً عن القبل، أم إتيانها دبراً كذلك مهما كان برضاها ودون محظور، فإنها تخرج بذلك عن كونها حرثاً عن بكرتها.

ومن المحظور تعقيم الرجل أو المرأة بالوسائل المصطنعة وسواها، إلّا إذا لزم الأمر ترجيحاً للأهم على المهم.

فكما أن إتيان الذكور لواطاً لا يرمي لهدف صالح، ولا يحقق غاية إنسانية، كذلك إتيان النساء النساء، والعادة السرية ككل، وعلى الهامش منع التناسل بأية وسيلة كانت.

وهنا في ﴿أَتَأْتُونَ . . . وَتَذَرُونَ﴾ لمحة لامعة لحرمة المذكورات على اختلاف دركاتها، فمبادلة ترك الزوجة بإتيان غيرها محظور، مهما كان المذكور هنا اللواط لشدة المحظور.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

وفي إهلاكهم لفعلتهم لمحة إلى عذابهم المستحق بها وهو القتل كما هو الثابت في باب الحدود، وما كان جوابهم عن ذلك التنديد الشديد القرين ببيان الحكمة إلّا أن:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾:

إخراجاً من قرية الدعوة بكل إحراج، دون عودة إلّا بانتهاء الدعوة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1]، ويتبين هنا أن آل لوط - وهم لوط والمؤمنون به أقارب وأغارب - كانوا يشاركونه في الدعوة، وكما لمحت لها ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ دون «مخرجاً» تهديداً لاستئصال جذور الدعوة عن القرية بأصلها وفصلها، ثم الجواب:

﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

مقالة تظهر البراءَة القاطعة عما كانوا يعملون، أبراءَة في القلب حيث هدّد بالإخراج؟ لو كانت هكذا لما ﴿قَالَ إِنِّى...﴾! بل هي استمرارية لمقالة النهي والتنديد، ثم استنصار من الله تعالى:

﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾:

﴿وَأَهْلِى﴾ هنا ليسوا هم - فقط - أقاربه وأنسبائه بل هم الآهلون للنجاة من المؤمنين معه، أقارب وأغارب، ولذلك لم يستثنِ عجوزه في الغابرين! وليس ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[2] لتدل على أهلية النسب والسبب فحسب، حيث الحالة الكارثة في القرية التي كانت تعمل الخبائث تقتضي جمعية المسلمين معه في بيت واحد وهم قلة قليلة، ثم عجوز البيت ما كانت من المسلمين.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٣٦.

﴿نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ من مسؤوليات وخلفيات ما ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أداءً لواجب الدعوة دون تساهل وتغافل، ونجاةً من أن يمسوا أهلي بسوءٍ ما يعملون، فإنهم هارعون إليه دونما تمييز كما هرعوا إلى ضيفه المكَرمين زعماً منهم أنهم غلمان، ونجاةً من أن يشملهم عذابهم بينهم.

﴿فَنَجَّيْنَهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٧٠﴾:

«نجينا..» من ثالوث العذاب، وقد صرح بثالث ثلاثة وهو استئصالهم عن بكرتهم و:

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝١٧٢﴾:

دليل على أن النجاة ليست فقط عن التدمير، بل وعن كل ما كان يخاف منهم، و﴿عَجُوزًا﴾ هي امرأته المتخلفة عن شرعته وهداه، والغابر هو الماكث بعد مضي ما هو معه، وكانت هذه العجوز ماكثة في كفرها بعد مضي ما معها من الدعوة الرسالية.

ف ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ هنا هم الماضون في كفرهم دون رجوع: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[1] لأنها - رغم كونها امرأة لوط - كانت من الغابرين رغم ملاصقة الدعوة طيلة حياة الزوجية.

وترى كيف ﴿دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ وهم غير أهله أجمعين وفيهم نساءٌ لسن يقترفن ما اقترف الرجال، وأطفال من القبليين غير مكلفين؟.

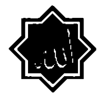
النساء البريئات من هذه الوصمة ما كنّ البريئات من الإدمان على الشرك والتكذيب بالرسالة، فليشملهن مطر العذاب، وأما الأطفال فليس تدميرهم مع الكبار - إن دمروا - عذاباً وكما سائر العذاب استئصالاً وتدميراً، الشاملة للمذنبين والبريئين.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٥٧.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾:

إنه مطر سوء وليس مطر الماء الخير، لأنهم منذَغرون ومتصلبون على الكفر: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[1].



(١) سورة الحجر، الآية: ٧٤.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

تأتي ﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ في أربع هذه منها، و﴿لْـَٔيْكَةِ﴾ شجر ملتف، وأصحاب الأيكة نُسبوا إليها وهي غيضة وريفة من الأشجار كانوا يسكنونها وهي بلدتهم، ورسولهم شعيب فيمن أرسله إليهم من أهل مدين وهم الأصلاء وهؤلاء فروع فـ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾[1] إذ كان منهم، وهنا ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ دون «أخوهم» إذ لم يكن منهم[2] وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.
(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤: ١٦٣ وفي الحديث أن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

ولقد كانوا مخسرين الناس، يبخسونهم أشيائهم، عاثين في الأرض إفساداً، فلذلك بزغت الدعوة الإصلاحية من صالح وفقاً لحالتهم البئيسة كما هي سنة الرسالات المستمرة.

فهنا أوامر ونواهٍ ثلاثة في ناحية هذه الدعوة المصلحة، بعد أن طمأنهم برسالته الأمينة:

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾:

فالكيل بين وافٍ وطفيف وزائد، إيفاءه واجب، وطفيفه محرم، وزائده راجح، وهنا أمر بواجب الإيفاء ونهيٌ عن محرم التطفيف والإخسار، ولأن الكيل يخص المكيل فامر ثان يخص الموزون:

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾:

وهو الميزان أياً كان، واستقامته هو اعتداله في الوزن، وقد يكون القسطاس مستقيماً والوزن غير مستقيم، فليكن ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ وصفاً لكلا الوزن والقسطاس، ثم ونهي يحلّق على كلّ إخسار وبخس كيلاً أو وزناً أم أياً كان في المعاملات الجماعية اقتصادية وثقافية وسياسية وأخلاقية أمّاهيه:

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾:

والبخس هو النقص، و﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ تعم كلّ أشيائهم في مخمّس النواميس وملحقاتها: نفساً وديناً وعقلاً ومالاً وعرضاً، فالبخس إياها محرم، وتركها تُخرم أيضاً محرمٌ، ومحاولة التعاون في كمالها راجحة أم واجبة، فإخسار الكيل واعوجاج القسطاس وبخس أشياء الناس إفساد، والعبث في الأرض إفساداً وهو السعي فيه إفساد على إفساد، في أية ناحية من واجب الصلاح والإصلاح من النواميس الخمسة.

فالإفساد الاقتصادي له دور هام بين سائر الإفساد، ينهى عنه كما ينهى

عنها في سائر الشرائع الإلهية، إصلاحاً للحالة المعيشية التي تلعب دوراً عظيماً في صالح الناس، وإبعادهم عن شر النسناس الخناس.

وأخيراً يستجيش شعيب مشاعر التقوى في نفوسهم كما بدأ، تذكيراً لهم بخالق الخلق أجمعين:

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾:

﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ هي الخليقة المجبولة المطبوعة بطابع الفطرة التي فُطر الناس عليها، فهي كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف، فمهما تحرك من الإنسان أيٌّ من أشيائه عقلاً وعلماً وجسماً، فالفطرة الإنسانية ثابتة كحجة بالغة لا تزول.

فالمؤمنون من الأوّلين كانوا يتقون، والمتخلفون منهم عن شرعة الله هم المتخلفون عن جبلتهم فلماذا قَفوا آثارهم، فأنتم على آثارهم تهرعون؟!

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾:

صيغة مطردة مكرورة بين المكذبين برسالات الله، كأنهم تواصوا به! شيطنة مدروسة مدسوسة بينهم كشريطة تدار على أسماع الدعاة إلى الله.

ولا فحسب التكذيب، بل والتحدي بأن يأتوا بعذاب الله إن كانوا صادقين:

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلست أنا ولا أنتم، وهو أقدر أن يأتيكم بعذاب، وما أنا إلّا رسول لا أقترح على ربي أصل العذاب ولا كَمَّه ولا كيفه ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾.

فحتى إن لم يأتكم عذاب لم يدل ذلك على كذبي في رسالتي، فإنها رسالة وليست ألوهية تقتضي القدرة على إتيان العذاب، ولا وكالة عن الرب أو نيابة تستدعي استجلاب العذاب.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾:

هنا عذاب يوم الظلة ولمدين الصيحة: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[١].

إذاً فيوم الظلة هي غير يوم الصيحة كما أن أصحاب الأيكة هم غير أهل مدين مهما كانت الرسالة إليهم واحدة فما هي - إذاً - الظُّلة؟.

يقال هي السحابة المطلَّة عليهم المُظلة، وهم يحسبونها مَظلَّة حيث أخذهم حرّ خانق حانق يكتم الأنفاس ويثقل الصدور[٢]، ثم تراءت لهم هذه السحابة الظُلَّة فاستظلوا بها فوجدوا لها برداً، فإذا هي تمطر عليهم ناراً، أم صاعقة مجلجلة تفزعهم فدمرتهم تدميراً[٣]، وعلى أية حال ليس هنا في النص إلّا ﴿يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ ولا بد أنها ظلة سماوية كما ﴿نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾[٤] ولكنها ظُلة تدمير وذِلة و﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ توحي بأنه كان شعبة من عذاب الجحيم[٥].

ذلك شطر من قصص الرسل والمرسل إليهم، السبعة، وما واجهوهم من التكذيب، وقبلها كلها ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ وهنا في الختام:

---

(١) سورة هود، الآية: ٩٤.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٦٤ عن تفسير القمي ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨٩] قال: يوم حر وكاتم.

(٣) المصدر في ﴿يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ بلغنا والله أعلم أنه أصابهم حرّ وهم في بيوتهم فخرجوا يلتمسون الروح من قبل السحابة التي بعث الله عزّوجلّ فيها العذاب فلما غشيهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين وهم قوم شعيب.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

(٥) في الدر المنثور ٥ : ٩٣ عن ابن عباس في تفسير يوم الظلة: أرسل الله عليهم سموماً من =

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

= جهنم فأطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر فحميت بيوتهم وغلت مياههم في الآبار والعيون فخرجوا من منازلهم ومحلتهم هاربين والسموم معهم فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم فتغشتهم حتى تقلقلت في جماجم وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ثم أنشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا تحتها جميعاً أطبقت عليهم فهلكوا ونجى الله شعيباً والذين آمنوا معه.

ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾:

فقد يعني الضمير الغائب ﴿ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾: القرآن، أم ويعني فيما يعني رسولَ القرآن، و«تنزيل» بديلاً عن «المنزل» علّه للتدليل على أنه كله منزل منه تعالى كأنه هو التنزيل، تنزيلاً من عليا الربوبية إلى دنيا العبودية، ومن عالي الغيب إلى ظاهرة الشهود للمربوبين، فليس تنزيلاً من مكان علٍ إلى مكان دان، وإنما من مكانة عالية إلى أُخرى دانية، دنوَّ الخلق عن الخالق مهما كان قلبَ الرسول العظيم ﷺ، والناس كلهم فقراء إلى الله وهو الغني الحميد الكبير المتعال العلي العظيم والقاهر فوق عباده، فرحماته رحمانية ورحيميةً ليست إلّا تنزيلاً من علوِّ الربوبية إلى دنو العبودية. والتنزيل هنا يشمل مرحلتي: الإحكام في إنزاله دفعياً، والتفصيل في تنزيله تدريجياً، وهو فيهما إحداث حديث الذكر ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ...﴾ وليس إبرازَ العلم الأزلي حتى يكون قديماً كما الذات وصفات الذات.

وإضافة التنزيل إلى رب العالمين للتأشير إلى أنه يحمل ربوبيته العالمية الكافلة لتربية العالمين إلى يوم الدين، دونما نَظِرَة وحي آخر يكمِّله أو ينسخه خلافَ سائر الوحي.

ليس القرآن تنزيل الروح القدسي الرسالي، ولا الروح القدس على

قلبه، فهذا وسيط الوحي وذلك مهبطه، وليس تنزيله إلّا من رب العالمين كما يراه صالحاً للعالمين.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾:

نزل بالوحي الأمين الروح الأمين إلى الرسول الأمين ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ دون - فقط - سمعك، فَمنْزِل القرآن هو قلبه المكين: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(١). و﴿بِهِ﴾ هنا هو القرآن المفصل المنزل نجوماً، دون المحكم النازل عليه ليلة القدر، والسر النازل عليه ليلة المعراج، إذ لم يكن هنا وهناك لوحيه أي وسيط: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٢) ولا صلة لتثبيت المؤمنين إلّا بما يسمعونه منه من الوحي المفصل دون الأسرار المستسرة الخاصة بساحة الرسالة.

ودلالة أُخرى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ وليس القرآن المحكم بلسان عربي أو سواه، فضلاً عن ﴿مُّبِينٍ﴾.

فجبريل الروح الأمين القدس نزل بالروح القرآن المفصل على قلبه ﷺ وهو أيضاً الروح القدس الأمين، فالنازل والمَنزِل والمُنزَل روحُ قدُس أمين، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، وتراه كيف ﴿نَزَلَ... عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ والقرآن المفصل بما يحمل من ألفاظ تُسمع لا بد لمَنزله من أذن أو سمع؟ فهل أنه نزول المعنى دون لفظ كيلا يحتاج إلى أذن؟ والقرآن يعني كلا اللفظ والمعنى، فالمعنى دون لفظ لا يُقرأ وإنما يُلهم، وليس الملهم قرآناً ينزل حيث القراءة تخص اللفظ!: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٧. (٢) سورة النحل، الآية: ١٠٢.
(٣) سورة القيامة، الآية: ١٨.

فنازل الوحي إلى قلبه أعم من القرآن حيث يعم محكمه الذي لا يُقرأ ومفصَّله الذي يُقرء.

أجل وللقلب سمع هو أسمع من سمع الأذن كما له بصر، وليس سمع الأذن إلّا ذريعة لسمع القلب كما بصر العين ذريعة لبصر القلب، وللقلب أن يسمع أو يبصر دون وسيط كما ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ دونما وسيط.

وكيف لا و«القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء» فالقلب إمام الأئمة فكيف لا يؤم به الحس وهو - فقط - مأموم غير إمام! وكيف لا؟ ومن لزامات الوحي ألّا يسمعه إلّا من يوحى إليه، فلو كان يحمل ألفاظاً صوتية - وبطبيعة الحال جاهرة حتى يُسمع - لكان يسمعه غير النبي ﷺ وقد كان يوحى إليه بمرأى ومسمع من الناس، فهو يسمع وهم لا يسمعون، وإنما يرون كأنه يغشى عليه من وطأة الوحي! وكان ينفث في روعه قرآناً وسواه من وحي[(١)].

فلا يُسمع إلى قول القائل إن النازل إلى قلبه هو المعنى - فقط - والألفاظ هي من صياغته فـ ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ...﴾[(٢)] وأسخف منه أن القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النبي ﷺ الملقاة من روحه الأمين إلى قلبه المكين، إذ ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾[(٣)] فإنما ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ...﴾ وهو ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهل أصبحت روحه الأمين ربَّ العالمين حتى ينزِّل القرآن على قلبه؟.!

ليس النص «قرأه الروح الأمين عليك» أم «نزل به عليك» حتى يحتمل

---

(١) الدر المنثور ٥: ٩٤ - أخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ.
(٢) سورة القيامة، الآيتان: ١٦، ١٧.
(٣) سورة هود، الآية: ٤٩.

قراءته على سمعه وإنما ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وهو عمق الروح حيث تتفأد بنور الوحي، ولا بد للقلب من نورانية تامة طامة استعداداً لنزول الوحي القمة الأخيرة ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾:

﴿نَزَلَ... لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ فالمُنْزَل هو القرآن العربي المبين ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ والغاية من ذلك الإنزال أن تكون من المنذرين، ولك اختصاص أن إنذارك ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أبين من سائر كتابات الوحي عربية وسواها، لو كان هناك قبل القرآن كتاب وحي عربي!، و﴿عَرَبِيٍّ﴾ هو الواضح المعرِب عن معناه، و﴿مُّبِينٍ﴾: يبيِّن الألسن ولا تبينه الألسن»[1].

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

هل «إنه»: القرآن ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؟ كما و﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[2]؟ إذاً فالقرآن نسخة عربية عن العهدين، وليس وحياً يستقل عن زبر الأولين ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[3].

ولا يعقل أن محمداً ﷺ - وهو أعقل العقلاء - يدعي كذباً أنه يستقل

---

(١) نور الثقلين ٤: ٦٥ في أصول الكافي علي بن محمد عن صالح بن أبي حماد عن الجمال عمن ذكره عن أحدهما عليه السلام قال سألته عن قول الله عز وجل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٥] قال:...

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ١٨، ١٩.

(٣) كتاب الهداية المطبوع بمعرفة المرسلين الأمر يكن بمصر سنة ١٨٩٨ ص ٤ ج ٢ وكتاب «القرآن والكتاب» للأستاذ حداد البيروتي تحت عنوان: هل بين القرآن والعهدين اتصال ونسب؟ قائلاً: هنالك تصاريح من القرآن أن بينه وبين العهدين اتصال ونسب حيث: التوراة إمامه وهو في زبر الأولين وهو تفصيل وتعريب للكتاب المقدس وهو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وهم علماء أهل الكتاب ويجب أن يقتدي محمد في قرآنه بالكتاب وأهله وإذا شك فيه فليسأل أهل الكتاب ليعلموه! ثم يحتج لكل بآية أو آيات على حدّ زعمه نأتي عليها بجواباتها بطيات آياتها وكما فصلناها في كتابنا «المقارنات».

في وحي القرآن ليستغله في شرعة مبتدعة جديدة يدعيها أفضل مما قبلها، ثم يصرح أن القرآن نسخة عربية عن العهدين، هدماً لما بناه وهدراً لما تبناه، لتطول ألسنة علماء العهدين الناقمين عليه، ودون أن يأتي بشيء جديد للمشركين!

ثم واقع الحال في العهدين، المتوفرة فيهما التناقضات والمضادات للواقع وبين آياتهما، دون القرآن الذي لا اختلاف فيه، ثم اختلاف المواضيع بينه وبينهما تكميلاً لنقص أو نقضاً لباطل، وحتى في العرض القصصي، ذلك الواقع المتهافت بينهما وبين القرآن يبطل فرية أنه نسخة عربية عن العهدين.

ثم المشركون الموجهة إليهم - في الأصل - هذه التوجيهات، لم يكونوا ليؤمنوا بالأصل المزعوم للقرآن فضلاً عن الفرع القرآن! فكيف يقول لهم ولماذا؟ إنه نسخة عربية عن العهدين.

وكذلك الكتابيون حيث يعترضون: فإذاً لست على شيءٍ جديد، فلتكن لنا تبعاً وكيف ترجو أن نتبعك؟.

ثم وكيف يصرح أولاً: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ. . .﴾ ثم يناقضه بـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إذاً فلم يوح إليه، إلّا إلى الأولين وهو راسمٌ رسمهم في هذا القرآن.

ثم ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1] عطفاً على ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني دليلاً ثانياً على استقلال وحي القرآن عما أوحي إلى الأولين، ولو كان علماً لهم أنه نسخة عربية لزبر الأولين لكان هدماً لبرهان القرآن أمام الكتابيين والمشركين بما ﴿يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾!

أم «إنه»: القرآن ببشارة له بوحيه بلسان عربي مبين، ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٧.

وكذلك رسول القرآن؟ وهذان واقعان لا مرد لهما مهما حرفت عن جهات اشراعها.

فبالنسبة لبشرى القرآن: ﴿... وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ ... ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُۘ﴾(١)، وكما جاء في كتاب اشعياء نبأ هذا الوحي العربي وإليكم الأصل العبراني نصاً (٢٨: ٩ - ١٤):

«اِتْ مِيْ يُورِهْ دِعاهْ وِاِتْ مِيْ يا بِينْ شِمُوعَاهْ غِكْمُولِيْ مِحالابْ عِتِيمِّي مِشَّادايِمْ كِي صَوَلا صاوْ صَوْلا صَاوْ قَوْلاً قَاوْ قَوْلاً قَاوْ زِعِير شَامْ زِعِير شَامْ ١٠ كِي بِلَعَجِي شَافاهْ وَبِلاشُونْ أَحِرِثْ يدَّبِرْ إِلْ هاعامْ هَذِّه ١١ آشِرْ آمَرْ إِلِيهِمْ زِئُتْ هَمْنُوحاهْ هانِيحُو لِعايِف وِزِئُت هَمِّرْجَعاه وِلا آبوء شِمُوعْ ١٢ وِهاياهْ لاهِمْ دِبَرْ يِهُواهْ صَوْلا صاوْ صَولا صاوْ قَوْلاً قاوْ قَولاً قاوْ زِعِيرْ شامْ زِعِير شامْ لِمَعَنْ يِلْخُوا وِخاشْلُوا آحُورْ وِنِشْبار وِنْقِشُوا وِنِلْكادُوا ١٣ لاخِنْ شِمعُوا دِبَرْ يِهُواهْ أَنِشيْ لا صُون مِشْلِيْ هَاعامْ هَذِّهْ أَشِرْ بِيروشالامْ» ١٤:

«لمن تُرى يعلِّم العلم ولمن يفقِّه في الخطاب أللمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي ٩ لأنه أمرٌ على أمرٍ أمرٌ على أمرٍ فرضٌ على فرضٍ فرضٌ على فرضٍ هنا قليلٌ وهناك قليلٌ ١٠ لأنه بلهجة لكناء بشفاه عجمية ويلسان غير لسانهم «العبراني» يعني «العربي» يكلم هذا الشعب ١١ الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الرازح وهذه هي الرفاهية فأبوا أن يسمعوا ١٢ لذلك سيكون كلام الرب لهم أمراً على أمر أمراً على أمر. فرضاً على فرض ثم فرضاً على فرض هنا قليلاً وهناك قليلاً. لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء فيُحطَّموا ويُصطادوا فيُؤخذوا ١٣ لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهُزءِ ولاة هذا الشعب الذي في أورشليم» ١٤(٢).

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٩، ٢٠.

(٢) الدر المنثور ٥: ٩٤ - أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال: كان نفر من قريش من =

فهذه الآيات البينات بشارة جميلة للقرآن ونبيه أنه يكلم هذا الشعب الإسرائيلي بغير لغتهم «كي بلعجي شافاه» بلسان أعجمي - غير لسانهم. . . ، ثم وبالنسبة للرسول ﷺ عشرات من البشارات سجلناها في «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ويقول عنه القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾(١).

فالقرآن بنبيه والمواصفات القرآنية والرسالية المحمدية ﴿لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ على تحرّفها(٢): ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ. . .﴾(٣).

﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾:

الواو هنا عطف على آية القرآن نفسه وفيه الكفاية عن أيّة آية، ثم آية ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ لا فحسب للكتابيين بل وكذلك للمشركين، حيث البشارة به فيها مَلحمة غيبية تدل على أنه من غيب الوحي على الرسول الأمين.

فإن لم يكن لهم - كتابيين ومشركين - آية بنفسه وببشاراته في زبر الأولين ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الأحرار، غير المحرفين الكلم عن مواضعه، إذ لم ينسوا حظاً عما ذكروا به.

= أهل مكة قدموا على قوم من يهود بني قريظة لبعض حوائجهم فوجدوهم يقرأون التوراة فقال القرشيون: ماذا نلقى ممن يقرأ توراتكم هذه لهؤلاء أشد علينا من محمد وأصحابه فقال اليهود: نحن من أولئك براء أولئك يكذبون على التوراة وما أنزل الله في الكتب إنما أرادوا عرض الدنيا فقال القرشيون فإذا لقيتموهم فسوّدوا وجوههم وقال المنافقون ما يعلّمه إلّا بشر مثله وأنزل الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ - إلى قوله -: وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٢-١٩٦] يعني النبي ﷺ وصفته ونعته.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

(٢) راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ص ١٠٨ - ١١٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

أم وكل علماء بني إسرائيل قبل نزول القرآن مهما كفر به بعضهم إذ نسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]: بنبإ القرآن ورسوله الآتي، فقد كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة وينتظرون هذا الرسول، ويحسون أن زمانه قد أظلهم، وأيامه قد أطلتهم، يحدِّث بعضهم به بعضاً ويتحدثون على المشركين مستفتحين بذلك الفتح المبين!.

إنه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ لا يثير قوميتهم، و﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ...﴾ يعلمه علماء بني إسرائيل، فقد تمت عليهم الحجة وطمت المحجة.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

﴿وَلَوْ﴾ هنا تحيل تنزيله على بعض الأعجمين، أعربياً ينزل على أعجمي ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[2] واختلاف لغة النازل عن لغة الرسول عرقلة في الدعوة، ونقص في الدعاية، ومثار للنكاية، فعذر للمعنيين بالدعوة الرسالية.

أم أعجمياً على أعجمي؟ وهو نقص في اللغة حيث العربية قمة بين اللغات والوحي الأخير قمة بين سائر الوحي، فليكن بلسان عربي مبين.

ثم والعرب الألداء وهم مبتدَأُ الدعوة ومنطلَقها ما كانوا ليؤمنوا به، فليكن عربياً منزلاً على عربي.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ﴾ عربياً أو أعجمياً ﴿عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم﴾ أصلاً أو ترجماناً ﴿مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ حيث النخوة العربية وقوميتها المتعرقة فيهم كانت تصدهم عن أن يؤمنوا به: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1] [2].

أجل و«لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب وقد نزل على العرب فآمنت به العجم فهذه فضيلة العجم»[3].

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[4] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ القويم القويم «نسلكه»: القرآن - إنفاذاً ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قطعاً لكافة الأعذار القومية والإقليمية واختلاف اللغة أماهيه، وسرداً لكافة البراهين القاطعة لوحي القرآن داخلية وخارجية، ولكنه ليس لينسلك في هذه القلوب المقلوبة فـ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ تخيُّراً منهم رغم بارعة الحجج إلّا عند رؤية البأس: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

و﴿كَذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد «نسلكه»: عدم الإيمان بالقرآن رغم ناصع البرهان ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ طبعاً عليها وختماً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[5] [6].

وهذا السلك هو من مخلفات السلك الأوّل المواجه بالتكذيب جزاءً

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٢) راجع تفصيل البحث عن الآية إلى سورتها.

(٣) نور الثقلين ٤: ٦٥ في تفسير القمي في الآية قال الصادق عليه السلام: . . .

(٤) سورة الحجر، الآيات: ١٠-١٥.

(٥) سورة الصف، الآية: ٥.

(٦) فهنا مراجع لضمير الغائب في نسلكه: قرآنا وتكذيباً به وإيماناً به، والأولان صالحان معنوياً والأخير لا يصلح كما بيناه.

وفاقاً، ومن مخلفات السلك الثاني: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ هنا في الرجعة أو قبلها، أم في البرزخ والأخرى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا... فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[١]، فلا تعني ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ سلك الإيمان فإن اللّه ليس ليحمل المكذبين على الإيمان، ولو حَمَل على إيمان فكيف ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ...﴾؟: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[٢].

﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ ذلك العذاب الأليم ﴿بَغْتَةً﴾ دون إخبار ولا إمهال ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به و﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ الإيمان بالقرآن.

﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

إنظاراً لكي نؤمن به، ولات حين مناص، وقد فات زمن الخلاص.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾:

فلقد كانوا يستعجلون بعذاب الله الموعود للمكذبين تحدِّياً على النبيين، استهتاراً واغتراراً بما لهم من مُتَع الحياة الدنيا، وهم بذلك الاستعجال العضال يكدِّرون خاطر النبي الأقدس محمدٍ ﷺ.

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾:

فقد «رئي النبي ﷺ كأنّه متحيّر فسألوه عن ذلك فقال: ولِمَ؟ ورأيت عدوي يلُون أمر أمتي من بعدي فنزلت: «أفرأيت...»»[٣].

فلقد كان يغمُّه متاعهُم خوفةً على شرعته وأمته، إمرةً لمن لا يؤمن ولا

---

(١) سورة غافر، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٣) الدر المنثور ٥: ٩٥ - أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال رئي...

يؤمَن[(١)] على المسلمين، فَطمْأَنه ربُّهُ أن أيديهم قاصرة عن القضاء على شرعة الله، مهما كانت طائلة في متع الحياة الدنيا، فإن للحق دولة وللباطل جولة، وسوف تزول كلّ المُتَع عن الكفار في دولة القائم المهدي (عج)[(٢)].

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾:

﴿مُنذِرُونَ﴾ هنا تأشير إلى تواتر الإنذار بحق المهلَكين ﴿ذِكْرَىٰ﴾ لهم عن غفوتهم فطرياً وعقلياً، فإن مواد الهدى مرتكزة في الفِطر والعقول، ولا يعني بعثُ الرسول كأصل إلّا ﴿ذِكْرَىٰ﴾ لمن استُغفلوا عن دلائل الإيمان، إيقاظاً لأصول الهدى، ثم الفروع تتبناها واردة على قضايا الفِطَر والعقول.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في ذلك الإهلاك، و﴿كُنَّا﴾ هنا تستأصل أصل كينونة الظلم في الله سبحانه وتعالى، إذ لا دافع له إليه، ولو كان لم يظلم لأنه عدل حكيم، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، خوفة من القوي أن يغلبه، أو يساميه في القوة، وكلٌّ ذلك مسلوب عن ساحة قدسه سبحانه.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾:

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٥ في الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام قال أري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منامه بني أمية يصعدون على منبره من بعده ويضلون الناس عن الصراط القهقرى، فأصبح كئيباً حزيناً قال: يا جبرئيل إني رأيت بني أمية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلون الناس عن الصراط القهقرى فقال: والذي بعثك بالحق نبياً إني ما اطلعت عليه فعرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يونسه بها قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ . . .﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠٥] وأنزل عليه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ . . .﴾ [القَدر: ١] جعل الله ليلة القدر لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم خيراً من ألف شهر ملك بني أمية.

(٢) تفسير البرهان ٣: ١٨٩ محمد بن العباس بسند متصل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: خروج القائم عليه السلام ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠٧] قال: هم بنو أمية الذين متعوا في دنياهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ - ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ عن الملإ الأعلى، رداً على المتطاولين على الذكر الحكيم أنه ﴿تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ﴾ ببرهان القرآن نفسه أنه ليس نازلاً إلّا بعلم الله، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾: الشياطين أن ينزلوا به، والابتغاء هو قبول البغي الطلب، فحتى لو طلب من الشياطين أن يتنزلوا بالقرآن ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ قبولاً لذلك الطلب، فإن قلوبهم مقلوبة عن الهدى مملوءة من الردى، فأنى لهم أن يحملوا بتلك القلوب المظلمة وحي القرآن؟.

ثم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لو حاولوا في قبول ذلك التنزيل، أن يقبلوه، لـ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ...﴾[1].

فإذا كانوا عن السمع معزولين فلا يسمعون مهما تسمعوا، فكيف يحملون الوحي - بقلوبهم المقلوبة - إلى قلوب النبيين؟.

وحتى لو ساغ لهم سمعه وحمله بقلوبهم فـ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ سماحاً لذلك الحمل العظيم لأنهم غير مأمونين، إذ يخلطون الحق بباطل يهوونه، رغم خالص الوحي الذي يحوونه! إذ ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ حمله خالصاً وأداءً كما حمّلوه قضية غلبة الشقوة عليهم لـ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ للحق الناصح «لمعزولون» ومن الشروط الأصيلة للتنزل بالوحي سمَعَهُ في قرارة نفس الوسيط.

فلو تنزلت به الشياطين على ذلك النبي الأمين وهو يلعنهم ليل نهار، لكان أحرى أن تُنزّل به على أوليائهم نقضاً لما يدعيه من وحي الرحمن، وكيف تصبح الشياطين بهذه القدرة الخارقة أرحم بعدوّهم من أوليائهم وأنعم، وهم يحاولون دائباً نقض الوحي ونقصه، تعبيداً لطرق الشيطنات.

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٨، ٩.

فـ ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بارزة كالشمس في رابعة النهار إذ ما تنزلوا به على أوليائهم، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ ظاهرة كالنار على المنار، فلو لم يكونوا معزولين لأتوا بمثله وأحرى لأوليائهم، فلا يرد أن ذلك البرهان دور مصرح، حيث التصديق بـ «لا يستطيعون - و - معزولون» منوط بتصديق القرآن أنه وحي الرحمن، كما أن هذا التصديق منوط بـ «لا يستطيعون - و - معزولون»؟ حيث الانعزال وعدم الاستطاعة باهر واقعياً إذ لم يأتوا بمثله إلى أوليائهم مهما حاولوا واحتالوا! إذاً:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾:

ولماذا تدعو مع الله إلهاً آخر وهو حسبك الكافي ونعم الوكيل؟ وذلك النهي الصارم ليس صداً عن اقترافه إشراكاً بالله، واعترافه بغير الله، وإنما هو استئصال لآمال المشركين أن يركن إليهم ويَميل بُغيةَ إيمانهم، أم تقليلاً لثورة كفرهم.

ثم ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ تنبيهة عالية للمؤمنين أن الداعي مع الله إلهاً آخر يعذَّب ولو كان هو الرسول العظيم، فضلاً عمن دونه من المؤمنين!

والقول إن التكليف لا يعني في نفيه وإثباته إلّا نفي النقص الحاصل وإثبات الكمال غير الحاصل، والرسول ﷺ بالغ ذروة الكمال فكيف ينهى عن الشرك ويؤمر بلزامات الإيمان والرسالة.

إنه مردود بأن العصمة لا تنافي الاختيار، ولا حد - كذلك - للكمال، وأن تكليف السلب والإيجاب لا يلازم اقتراف المنهي عنه وترك المأمور به، بل هو كأصلٍ إعلام بحكم الله، وإعلان للأمة بمرادات الله، وأن الرسول يحمله كرسول إلى الأمة بعد ما يحمله كمكلف من سائر المكلفين.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾:

وهنا انتقاله في النذارة من نفس الرسول ﷺ إلى عشيرته الأقربين،

ومن ثَمَّ إلى سواهم وإلى العالمين أجمعين، وهي طبيعة الحال في الدعوة الصالحة الرسالية، أن يبدأ الرسول بنفسه وذويه الأقارب، ثم الأغارب، حيث الأقربين هم الحملة الأولى للرسالة بعد الرسول، وفي تركهم إلى سواهم حجة على الرسول: كيف ترك ذويه واتجه إلى سواهم، ويكأن في دعوته غضاضة لا يقبلها ذووه! وهم أُعرف به وبدعوته فلو كان حقاً لما تركوه، وليعلم العشيرة الأقربون أنه لا تنفعهم قرابتهم منه شيئاً إلّا بالإيمان.

فلما نزلت هذه الآية بكى رسول الله ﷺ ثم جمع أهله فقال: يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ثم التفت إلى فاطمة فقال: يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنكم من الله غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»[1].

---

(١) الدر المنثور ٥: ٩٦ - أخرج ابن مردويه عن أنس قال لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤] بكى... وفيه ٩٧ - اخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل من طرق عن علي عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، دعاني رسول الله ﷺ فقال: يا علي! إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني مهما أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصممت عليها حتى جاء جبرئيل فقال: يا محمد إنك إن لم تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك فاصنع لي صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واجعل لنا عساً من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغ ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به فلما وضعته تناول النبي ﷺ بضعة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصفحة ثم قال: كلوا بسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما نرى إلّا آثار أصابعهم والله إن كان الرجل الواحد ليأكل ما قدمت لجميعهم، ثم قال اسق: القوم يا علي فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد النبي ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لقد سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم النبي ﷺ فلما كان الغد قال: يا علي إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فعدلنا بمثل الذي صنعت بالأمس من الطعام والشراب ثم اجمعهم لي ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا حتى نهلوا ثم تكلم النبي ﷺ فقال =

وقد يؤشر ذلك الأمر الإمر أنه كان في بداية الدعوة ولما يتسع نطاقها، كما ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1] فانتفض لتحقيق الأمر فنفض يده من أمرهم ووكلهم إلى الله، وبيّن لهم مراراً وتكراراً أن قرابتهم له لا تنفعهم ولا تغني عنهم من الله شيئاً، كيف ولا تنفعه رسالته لو لم يأتمر أمر ربه وهو في القمة المرموقة!.

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾:

خفض الجناح هو أبلغ اللين والرفق والضعة والحنان، تصوراً عن الطائر إذ يخفض جناحه إذ يهبط، ويخفضه حين يحتضن أفراخه، وكذلك يؤمر الرسول حين يهبط عن سماء الوحي برسالة الأرض والسماء، أن يخفض جناح الرحمة لأفراخه المؤمنين به، من أقارب وأغارب، دونما مماراة أو مماشاة مع المكذبين الأقارب، أم طرد للمؤمنين الأغارب، أم ترجيحاً بين من آمن للأقارب، وإنما ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وكما الطائر لا يطير عن أفراخه ولا يغيب في الحالات الحرجة، كذلك أنت يا أيها الطائر القدسي الرسالي دُم على أفراخك المؤمنين: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾[2] وقد كان خافض الجناح لهم على ما كان من بعضهم من جفاوة، فلا يواجههم - إذاً - إلّا بكل حنان وحفاوة، بل وبالنسبة لغير المؤمنين أيضاً علّهم يؤمنون.

= يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم أحداً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على أمري هذا؟ فقلت: - وأنا أحدثهم سناً - أنا فقام القوم يضحكون.

أقول وقد أخرج القصة باختلافات يسيرة مع الحفاظ على أصلها جم غفير من المحدثين (راجع الدر المنثور وجامع البيان ونور الثقلين والبرهان وبحار الأنوار).

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾:

وترى ضمير الجمع في ﴿عَصَوْكَ﴾ راجع إلى الكفار فقط؟ وهم أبعد مرجعاً! والبراءة لا تخص عمل الكافر، بل والأصل فيها كفره في قلبه حيث يخلِّف تخلفه في عمله! أم هو راجع إلى ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على قربها مرجعاً؟ وكيف يواجه الرسول المؤمن الفاسق بتلك البراءة ومن شروطات النهي عن المنكر لين الكلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

علّه راجع إليهما، والبراءة - إذاً - يخص ما يعملون، إذ لا براءة من المؤمن نفسه إن كان فاسقاً.

أم أن «ما تعملون» هي نفسه «إن عصوك» والعصيان يعم الجوانح إلى الجوارح، بل وعيان الجوارح هو من مخلَّفات عصيان الجوانح، إن كفراً فأعمال كافرة، وإن فسقاً ففاسقة، فـ ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ في الكافر يعم قلبه وقالبه، وفي المؤمن الفاسق عمله إلى تخلفه في قلبه أو نيته.

ثم ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ في مواجهة الكافر تختلف عنها أمام المؤمن، والبراءة من العصيان هي قضية الرسالة، والمجاهرة بها هي من أخريات المطاف في النهي عن المنكر، وقد تلمح الآيات التالية أن المحور هنا في «إن عصوك» هم الكفار وعلى هامشهم عصاة المؤمنين.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾:

و﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تلحيقة مكرورة طوال السورة في عرض الإيمان والكفر، فـ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أمام الكافرين و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أمام المؤمنين، فـ «توكل» في كلّ المجالات الرسالية ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ولا يهمك بعدُ ماذا يحصل بعد أن تُطبِّق أمر الله في دعوتك فإنه: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ في صلاتك وفي

الدعوة الرسالية[١]. ﴿يَرَىٰكَ﴾ بعين العلم والقدرة والعناية فلا تفلت عن رؤيته، إذ لا يلتفت عن رعايتك.

﴿يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩)﴾ منذ كنت في أصلاب طاهرة وأرحام مطهرة، وحتى رسالتك وإلى ارتحالك إلى رحمة ربك[٢] فهل ترى أن الله يتغافل عمن تكون حياته قياماً لدينه، وتقلُّبه فيها سجوداً ﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

وقد يعني ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ إلى ما عناه، أنه كان يرى في صلاته من خلفه كما يرى من بين يديه، تقلب العلم والرؤية للساجدين وهو في الساجدين، وكما يروى عنه ﷺ: «لا ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي ثم تلا هذه الآية»[٣].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٦٩ القمي حدثني محمد بن الوليد عن محمد بن الفرات عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ﴾ [الشّعَرَاء: ٢١٨] تقوم «في النبوة» ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشّعَرَاء: ٢١٩] قال: في أصلاب النبيين.

(٢) المصدر. روى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ وفي الدر المنثور ٥ : ٩٨ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ فقلت: بأبي أنت وأمي إني كنت وآدم في الجنة؟

فتبسم حتى بدت نواجذه ثم قال: إني كنت في صلبه وهبط إلى الأرض وأنا في صلبه، وركبت السفينة في صلب أبي نوح وقذفت في النار في صلب أبي إبراهيم لم يلتق أبواي قط على سفاح لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذباً لا تتشعب شعبتان إلّا كنت في خيرهما قد أخذ الله بالنبوة ميثاقي وبالإسلام هداني وبين التوراة والإنجيل ذكري وبين كلّ شيء في شرق الأرض وغربها وعلمني كتابه ورقى بي في سمائه وشق لي من أسمائه فذّ والعرش محمود وأنا محمد ووعدني أن يحبوني بالحوض وأعطاني الكوثر وأنا أوّل شافع وأوّل مشفع ثم أخرجني في خير قرون أمتي وأمتي الحمادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ورواه في البرهان ٣ : ١٩٢ عن ابن بابويه عن جابر قال سئل رسول الله ﷺ.. مثله وروى بطرق كثيرة. في تفسير البرهان ٣ : ١٩٢ القمي قال حدثني محمد بن الوليد ممن محمد ابن الفرات عن أبي جعفر عليه السلام قال: الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين قال: في أصلاب النبيين.

(٣) المصدر - أخرج مالك وسعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أبي هريرة قال=

أم وكل تقلّباته وتحولاته الحيوية في الساجدين وهم كلّ المؤمنين معه، والآية تتحمل مربعة المعاني أدبياً ومعنوياً.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾:

أجل إن الشياطين لا تتنزل إلّا على الشياطين وهم كلّ أفاك أثيم، دون المؤمنين الصادقين، ولا سيما المخلصين: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1].

والإفك هو قلب الخبر إلى غير واقعة، فالأفّاك هو المقلّب، والأثيم هو الفعال لكل إثم وقبيح ذميم.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ تسمُّعاً واستراقاً دون سماع صادق مسموح، فلذلك: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ فيما ينقلون عن الملإ الأعلى.

ولأن «السمع» تعم المصدر والمفعول، فمصدره يعني إلقاء التسمّع إلى الملإ الأعلى، ومفعوله يعني إلقاء ما سمعوه منه إلى شياطينهم، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ في تسمعهم وإسماعهم، وقد يعني يلقون - إلى ما عناه - ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ - ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ إلى هؤلاء الشياطين دونما تثبت فيما يسمعون ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ فيما ينقلون، وحتى القليل الصادقين في سمعهم إنما ينقلون ما يسمعون من الكذب، ونقلُ الكذب كذبٌ مهما كان صدقاً في النقل.

وفي صيغة «يلقون» لمحة باهرة أنهم كانوا يسمعون بسمعهم دون أنفسهم بعقولهم وقلوبهم، ففي إلقائهم سمعهم إلغاؤه بانقطاع صلته عن

= قال رسول الله ﷺ: هل ترون قبلتي هاهنا فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم وإني لأراكم من وراء ظهري وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة رأى من خلفه كما يرى من بين يديه وأخرجه مثله عن مجاهد.

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٠.

نفوسهم، ولا سيما ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يحوّلون أسماعهم إلى الشياطين بغير حساب، ومَثَله كـ ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾(١) - «إذ تلقون بألسنتكم» عناية إلى إلغاء الألسنة والأسماع عن الرباط بالعقول والأفكار، يقول ويسمع دون تعقل وتفكير.

وإذا كان ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يعني كلا الملقين والملقى إليهم، سقط القول: كيف ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ والشياطين كلهم كاذبون فيما يقولون أو ينقلون، مهما خلطوا صدقاً إلى كذبهم؟ حيث الأكثر يعني الملقى إليهم فيما ينقلون.

ولأننا لا نجد إفكاً ولا إثماً في هذا النبي الكريم، ولا كذباً في قرآنه العظيم، فليس إذاً مما تنزل به الشياطين، فصدق القرآن بوحيه الأمين، هو من القضايا التي قياساتها معها دون حاجة إلى برهان آخر، بل هو البرهان لكل برهان، والشاهد لكل حق.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾:

جواب آخر عن فرية أخرى أنه ﷺ ﴿شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾(٢) يخيِّل بشعره إلى الناس كلَّ ما يقوله كأنه حق يوحى إليه، حيث الشعر باب من السحر.

وترى من هم الشعراء؟ وما هو الشعر؟

الشعر لغوياً من الشَّعر: الدقة واللطافة في الإدراك، ويقال لما يقابل النثر حيث يجمع إلى لطائف المعاني وحقائقها لطائفَ الأوزان ودقائقها، وقد يَضل المعنى الحق بين الأمرين فيضل، ويقال لكل واحد أيضاً شعر،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.
(٢) سورة الطور، الآية: ٣٠.

معنى دقيق دون وزن الشعر، وزن الشعر دون معنى دقيق، والجامع للأمرين هو الشعر المطلق وأحدهما مطلق الشعر.

فقد كانوا يتهمون الرسول إنه شاعر وقرآنه شعر لجمعه الأمرين وزناً ومعنىً، فهو يسحر الناس بشعره، لا أنه يسخرهم بحقائقه، فإن لوزن الكلام تأثيراً في العقول والأحلام ليس لغير الموزون من الكلام، كما أن للمتخيلات الملتوية تأثيراً ليس للحقائق الصافية!. وفي الأصل العبراني؟؟ - (شاعر): שָׁעַר فكّر - تصوّر - اعتبر - حدس - قدَّر - افترض. و שֵׂעָר - (شعار) شعر - ألياف .

والشعور دقة في الإدراك، كما المَشعر هو مكان الدقة، وقد تغلب الشعر على الإدراكات الدقيقة المتخيلة الخليطة من حق وباطل، ويقال أيضاً للحق الدقيق.

فالشاعر غير المؤمن الصالح يستعمل الشعر والشعور في الباطل والغواية فـ ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ والشاعر المؤمن الصالح يستعملها في الحق والهداية ﴿. . . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟. . .﴾ وقد تعم «الشعراء» «من تعلموا أو تفقهوا بغير علم فضلوا أو أضلوا»[1] حيث يتبعون الأهواء والأوهام والخيالات و«هم القُصّاص»[2] إذ يقصونها على غثاء الناس، وكل غاوٍ من الشعراء له غُواة من أتباعه يتبعونه فيما يقول[3] .

---

(١) نور الثقلين ٤: ٧٠ المجمع روى العياشي بالإسناد عن أبي عبد الله عليه السلام: . . .

(٢) في اعتقادات الصدوق سئل الصادق عليه السلام عن الآية قال: هم القصاص.

(٣) الدر المنثور ٥: ٩٩ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وكان مع كلّ واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ. . .﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤].

«والشعراء» من النوع الأول هم غاوون و﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ حيث يذهبون في أقوالهم المذاهب المختلفة، ويسلكون الطرق المتشعبة، يهبون مع كلّ ريح، ويطيرون بكل جناح، فيرتكبون أي جُناح، تابعين لكل قائد، ومجيبين لكل ناعق، سَلِسوا القياد لمن يجرُّهم، متصرفين في وجوه الكلام من مدح وذم واستزادة وعَتْبٍ وغزل ونسيب ورثاء وتشبيب، أودية متشعبة وسبل مختلفة في الشعر فيها يهيمون:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾:

الهَيَمان هو الذهاب على وجه الاسترسال دونما حساب، كما وهيمان الحب هو المسترسل، منه فوصفهم بالهيمان فرط مبالغة في صفتهم بالذهاب في أقطارها، والإبعاد في غاياتها، والهيمان صفة من صفات من لا مُسكة له ولا رجاحة معه، فهي مخالفة لصفات ذي الحلم الرزين، والعقل الرصين.

ومن طبيعة الشعراء استرسال القول دون حساب في كلّ الوديان، «وفي كلّ مذهب يذهبون»(١)، وفق الانفعالات المسيطرة عليهم تحت وَقْع الدوافع الأحيانية والمؤثرات المصحلية الآنية.

يهيمون في كلّ الوديان حقاً وباطلاً، ويتلونون بكل الألوان حسب المصلحيات الوقتية، والشهوات الأصلية والجانبية، فلذلك ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ أمثالهم، ثم: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ نفاقاً عارماً بين أقوالهم المفْرِطة والمفرِّطة، وبين أفعالهم، إذ يعيشون في عالم من الخيالات والشهوات، فيؤثرونها على واقع الحياة والواقعيات، فيلقون القول مسترسلين دونما ضابطة أو رابطة إلّا ما تهواهم أنفسهم «يعظون

---

(١) نور الثقلين ٤: ٧٢ القمي في قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٥] يعني: يناظرون بالأباطيل ويجادلون بالحجج المضلين وفي كلّ مذهب يذهبون وإنهم يقولون ما لا يفعلون؟ قال: . . .

الناس ولا يتعظون، وينهون عن المنكر ولا ينتهون، ويأمرون بالمعروف ولا يعملون» (٥٢).

طبيعة الإسلام وهي الواقعية المطلقة والحقيقية المرسلة لا تلائمها طبيعة الشعراء الخياليين الهائمين في كلّ واد، حيث الإسلام يحرِّض على تصديق الحقائق وتحقيقها، دون تهرّب منها إلى وهميات، وليست معارضة الإسلام للشعر والشعراء إلّا في هذين البعدين البعيدين عن الواقعية المطلوبة: ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ وهما من خلفيات عدم الإيمان وعدم الثبات على خط الحق والواقع المصاب.

وأما الشعر المستقر على الحق، المُتَبنِّي إبطال الباطل وتحقيق الحق النابع عن الإيمان، البعيد عن التخيلات والوهميات وعن كلّ تفريط وإفراط، فلا يعارضه الإسلام بل ويحرّض عليه.

فكما يقول الرسول عن الشعر: «لإن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً»[١]، كذلك هو يقول جواباً عن: ماذا تقول في الشعراء؟: إن المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما ينضخونهم بالنبل»[٢] قال ﷺ لحسان بن ثابت اهجُ المشركين فإن جبريل معك»[٣] قال: «إن من الشعر حكمة»[٤] وكما الله يقول:

---

(١) الدر المنثور ٥: ٩٩ - أخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي ﷺ: . . .

(٢) نور الثقلين ٤: ٧٠ المجمع عن الزهري قال حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن كعب قال: يا رسول الله ﷺ ماذا تقول في الشعراء؟ . . .

(٣) الدر المنثور ٥: ١٠٠ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ . . .

(٤) المصدر أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: . . . وفيه أخرج عن ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: إن من الشعر حكماً وإن من البيان سحراً.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾:

مواصفات أربع تستثني من الشعراء، الموصوفين بها، وهي الإيمان وعمل الصالحات وذكر الله كثيراً والانتصار من بعد الظلم، والرسول ﷺ يتلوا آية الاستثناء على أصحابها[١].

هنا ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ يعني في شعر وسواه ليذهب بفضاضته، كما ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ﴾ تجعل الشعر ذريعة للانتصار لمن ظُلِم، ولا تخص ﴿ظُلِمُوا۟ۗ﴾ ظلماً شخصياً بالشاعر، أم وبمن يحبه وأكثر من نفسه كالرسول ﷺ ومن يحذو محذاه، أو وبأحرى أحب من كلّ محبوب وهو الله، هتكاً لساحة الألوهية أو الرسالة أو الإمامة أو الإيمان أم أياً كان من ظلم حيث يرجع إلى الشاعر فهنالك ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ﴾ دون إفراط أو تفريط وإنما جزاءً وفاقاً.

قد «قيل يا رسول الله إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك فقام ابن رواحة فقال يا رسول الله ﷺ ائذن لي فيه، قال: أنت الذي تقول: ثبت الله؟ قال: نعم يا رسول الله، قلت:

ثبت الله ما أعطاك من حسن تثبيت موسى ونصراً مثل ما نصرا[٢]

---

(١) الدر المنثور أخرج عن أبي حسن سالم البراد قال: لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ...﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤] جاء عبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وهم يبكون فقالوا: يا رسول الله ﷺ لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنّا شعراء أهلكنا؟ فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧] فدعاهم رسول الله ﷺ فتلاها عليهم، وفيه أخرج أحمد والبخاري في تاريخه وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل فكيف ترى فيه؟ فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما بوجههم مثل نفح النبل.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٠٠ - أخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال قال رسول الله ﷺ: ... قال: وأنت يفعل الله بك مثل ذلك ثم وثب كعب فقال: يا رسول الله ﷺ ائذن لي فيه =

أجل وحماية أعراض المسلمين هي تلو حماية عقيدة التوحيد والرسالة والإمامة وقد أمر بها الرسول ﷺ [(١)].

فهؤلاء الكرام ليسوا داخلين في الوصف العام للشعراء حيث امتلأت قلوبهم من عقيدة الإيمان واستقامت حياتهم على منهجه، فلا يعملون إلّا الصالح ولا يقولون إلّا الجميل، فتظهر سلبية الإيمان «لا إله» وإيجابيته «إلّا اللّه» في نثرهم وشعرهم.

والمذكورون هنا قد نافحوا عن العقيدة في إبّان المعركة المصيرية الضارية مع الشرك على الرسول ﷺ فأذن لهم أن يهجوهم.

وهذه ضابطة سارية أن الشعر حين ينبع عن التصور الإسلامي والعقلية الإسلامية السامية، يعتبر من الأعمال الصالحة الإيمانية - وأحياناً في قمتها.

= فقال: أنت الذي تقول:

همت؟ قال: نعم يا رسول الله قلت:

همت سخينة أن تغالب ربها فليغلبني مغالب الغلاب

قال: أما أن الله لم ينس ذلك لك ثم قام حسان الحسام فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه وأخرج لسانه أسود فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه فقال: اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم واهجم ومعك جبريل.

وفيه أخرج ابن سعد عن ابن سيرين قال: قال رسول الله ﷺ ليلة وهم في سفر ابن حسان بن ثابت فقال: لبيك يا رسول الله وسعديك قال أحد فجعل ينشده ويصغي إليه حتى فرغ من نشيده فقال رسول الله ﷺ: لهذا أشد عليهم من وقع النبل.

وفيه أخرج ابن سعد عن مدرك بن عمارة قال قال عبد الله بن رواحة قال لي رسول الله ﷺ كيف تقول الشعر إذا أردت أن تقول كأنه يتعجب لذاك؟ قلت: انظر في ذاك ثم أقول، قال: فعليك بالمشركين.

(١) المصدر أخرج ابن سعد عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: من يحمي أعراض المسلمين؟ فقال عبد الله بن رواحة: أنا وقال كعب بن مالك: أنا، فقال رسول الله ﷺ: أنت تحسن الشعر وقال حسان بن ثابت: أنا فقال رسول الله ﷺ اهجم فإن روح القدس سيعينك.

﴿... وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾(١) والمستقبل المفهوم من أداته هنا ليس بذلك البعيد في القيامة الكبرى فحسب، بل في البرزخ والرجعة وقبلهما أيضاً، فإن الله يجازي الظالم هنا كما يجازيه في الأخرى، مهما كان فيها الأوفى.

فقد ختمت السورة بمثل ما ابتدأت به: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٢)، و﴿مُنقَلَبٍ﴾ مصدر ميمي واسم زمان ومكان، فهو الانقلاب نفسه وزمانه ومكانه كما كان ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(٣).

و«آل محمد حقهم» في بعض الروايات لا تعني أنها كانت في القرآن ثم حذفت، بل هي تفسير تطبيقي بأبلغ مصاديق الظلم! ولا يعني «آل محمد» إلّا محمداً وآله عليهم السلام، أم هم فحسب كمصداق أهم ثان بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد تلا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الآية كما هيه(٤) برواية أهل البيت فليست إلّا هيه حسب القراءة المتواترة أن الظالمين سيعلمون منقلبهم علم اليقين وحقه وِردَ العذاب ولات حين متاب.

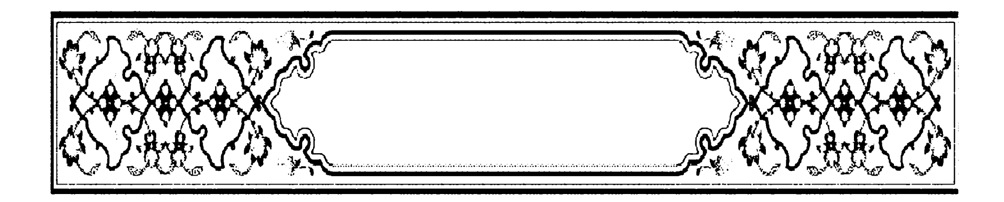
---

(١) سورة القمر، الآية: ٢٦. (٢) سورة الشعراء، الآية: ٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٩.

(٤) تفسير البرهان ٣: ٢٩٤ - ابن بابويه قال حدثنا محمد بن علي ماجيلويه قال حدثنا علي عن أبيه عن علي بن معبد عن الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أحب أن يتمسك بديني ويركب سفينة النجاة بعدي فليقتد بعلي بن أبي طالب عليه السلام وليعاد عدوه وليوال وليه فإنه وصيي وخليفتي على أمتي في حياتي وبعد وفاتي وهو أمير كلّ مسلم وأمير كلّ مؤمن بعدي قوله قولي وأمره أمري ونهيه نهيي وتابعه تابعي وناصره ناصري وخاذله خاذلي ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: من فارق علياً عليه السلام بعدي لم يرني ولم أره يوم القيامة ومن خالف علياً عليه السلام حرم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار ومن خذل علياً خذله الله يوم يعرض عليه ومن نصر علياً عليه السلام نصره الله يوم يلقاه ولقنه حجته عند المنازلة ثم قال: الحسن والحسين إماما أمتي بعد أبيهما وسيدا شباب أهل الجنة وأمهما سيدة نساء العالمين وأبوهما سيد الوصيين وولد الحسين تسعة أئمة تاسعهم القائم من ولدي طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي إلى الله أشكو المنكرين لفضلهم والمضيعين لحقهم بعدي وكفى باللّه ولياً وكفى باللّه نصيراً لعترتي وأئمة أمتي ومنتقماً من الجاحدين لحقهم ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَراء: ٢٢٧].

٢٧



مكية وآياتها ثلاث وتسعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

تتسمى هذه السورة باسم قهرمانتها: «النمل» المنقطعة النظير ذكراً في الذكر الحكيم، وقولاً يخرق العادة الجارية إن الحيوان لا تنطق، بلى وكما ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ ... فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا...﴾! وإنها من الطواسين الثلاث وتنقصها عن أختيها «م» المذكورة في الشعراء والقصص.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾:

«تلك النازلة في مثلث الزمان من الآيات المفصلات هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وهو جملة الآيات وهي أبعاضه ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ علّه النازل عليه ليلة القدر من حكيمة دون تفصيل، فإنه يبين تفصيله في هذه الآيات، وهو أمّ الكتاب لدى الله، فإنه يُبين محكمه للرسول ثم تفصيله إلى العالمين.

وعلّه عبارة أخرى عن القرآن، فإنه مبينٌ نفسه بنفسه ومبين رسالة من جاء به، أم وهو نبي القرآن حيث «كان خُلُقه القرآن» وكما يقال عنه «أنا القرآن والسبع المثاني وروح الروح بل روح المعاني» كما و﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[١] وكتاب حياة الرسول الرسالية مبين إشاراته ولطائفه وحقائقه، إبانة علمية وواقعية، فإنه ﷺ تفسير واقعي للقرآن مع ما يفسره علمياً!.

أجل ﴿تِلْكَ﴾ البعيدة المدى، القريبة الهدى، من حروفها الرمزية كـ «طس» وآياتها البينات المبينات، هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ المقروٌ على أسماع العالمين من إرسالية رسالية عُليا لخاتم المرسلين ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾:

ليس ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ بل هو ككل بمادته وماهيته ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، فلو أن للهدى والبشرى المصدرين مثالاً واقعياً لكان هو القرآن لا سواه، فإنه خالص الهدى والبشرى. ولماذا - فقط - «للمؤمنين»؟ وهو «هدى للناس - و - للعالمين» أجمعين!

إنه «بشرى» دون ريب - فقط - للمؤمنين، إذ لا يبشَّر الكافرون وإنما هم المنذَرون، وأما ﴿هُدًى﴾ فهي هنا تعني ﴿هُدًى﴾ في مثلثها: هدى أولى هي طبيعتها لحاملها، حيث يُتحرَّى عن هدى الله فيصل إلى القرآن وهو قمتها، وهدىً ثانية هي حصيلة الأولى حيث يعيشها في القرآن تخلقاً به علمياً ومعرفياً وعملياً، ثم ثالثة هي حصيلة الإيمان بالقرآن والتدبر في آيه الكريمة.

فـ ﴿هُدًى﴾ هنا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هي على غرار وقرار ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، فالقرآن هدى في مثلثها للمؤمنين المتقين ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[(١)] وأما الذين في قلوبهم زيغ فليس لهم هكذا هدىً، وإنما دلالية وهم لا يتحرونها، وهي في كلّ زواياها وحواياها - ولا سيما الزاوية القمة - حقيقة عميقة ضخمة، فإنه ليس - فقط - كتاب تفلسف ونظر بل هو في أصله كتاب القلوب والأنفس: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾[(٢)] فيسكب هداه على قلوب المهتدين، حيث يتلقونه بالإيمان واليقين، وكلما كان القلب أندى والفؤاد أهدى، أدرك صاحبه من هداه أندى وأهدى.

ليس مفتاح تفهم القرآن - فقط - الصلاحات المكرورة، وإتقان الأدب لغوياً ونحوياً، بل هو القلب المفتوح، الفاضي عما سوى الله، الفائض بنور معرفة الله، فلن تفتح كنوز القرآن - بعد المفاتيح الظاهرة - إلّا بمفتاح الإيمان، إذاً فهو ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على قدر إيمانهم وإيقانهم بوحي القرآن.

وليس المؤمنون هم الذين يؤمنون - فقط - بقلوبهم فلا يظهر في أعمالهم، عبادة لله وخدمة وعوناً لعباد الله، بل هم:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾:

هنا يتوسط كلُّ ما بين المبدأ والمعاد عملياً بين المبدأ: «للمؤمنين» فإن قمة الإيمان هي الإيمان بالله، والمعاد: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ جمعاً بين الأصول القمة والفروع القمة، فالصلاة هي القمة بين الواجبات العبادية، والزكاة قمة بين الواجبات الخَلقية.

ولماذا ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ﴾ بدلاً عن أخصرها «وبالآخرة»؟ لأن الإيمان

(١) سورة لقمان، الآية: ٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٣.

بالمبدأ، الظاهر في التصديق بالوحي، الناتج عنه إقامُ الصلاة وإيتاء الزكاة، هو الدافع للإيقان بالآخرة، كما الإتيان بها يدفع إلى أعمال الإيمان، فلا يؤمن بالآخرة إلّا المؤمن بالله وبوحي الله دون سواه، فإذ لا مبدأ لا مجال للمعاد، وإذ لا وحي فما هي فائدة المعاد؟!

كما الإيقان بالآخرة هو الذي يشغل بالهم بعد سائر الإيمان، ويصدهم عن جموع الشهوات الطائشة، حيث يغمر أرواحهم بتقوى الله وينظّفها عن طغوى اللهو، ويقابلهم تماماً:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾:

غير المؤمن بالآخرة، مهما كان مؤمناً بالله - على زعمه - أعماله - بطبيعة الحال - سيئة، ومن سوء حاله على سوء أعماله ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ - فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، هنا ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ نسبة الفعل إلى الله، وفي غيرها ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ...﴾[1] وكيف يضيف الله إلى نفسه فعلة الشيطان؟ وهو إغواء والله منه براء؟ إذ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]! أنه تعالى يزين لهم سوء أعمالهم سلبياً ألّا يصد الشيطان عن تزيينه، وإيجابياً إنه يزيغ قلوبهم بما زاغوا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3] كما ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4].

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ لذلك التزيين، حائرين عن الهدى، مائرين إلى الردى، عمي البصيرة بما تغامضوا عنها، وقد تصبح النفس البشرية عمهاً عن أعمالها

(١) سورة النحل، الآية: ٦٣.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الصف، الآية: ٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٧.

السيئة حين تخوض اللذات ولا تؤمن بالآخرة، والنفوس مطبوعة على حب الملذات، فتوجيهاً لها إلى حسنات ما لم تهتد بآيات الله ورسالاته البينات.

فكما النفس الإنسانية مستعدة للاهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى متحريةً عنها، كذلك هي مستعدةٌ للعَمَهِ والعمى إن طُمست منافذ الإدراك فيها: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ. . .﴾[1].

فالإيمان في أصله قيد الفتك، والإيمان بالآخرة بعد الإيمان بالله هو الزمام الذي يكبح نزوات النفس وشهواتها، تضميناً للقصد والاعتدال في الحياة الدنيا، ليضمن الفلاح في الأخرى، فالناكر للحياة الأخرى يظن الفرصة الوحيدة المتاحة له هي الحياة الدنيا، فتتزين له كلّ الشهوات والنزوات كغنائم يغتنمها فيها فيميد فيها ويعمه..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥﴾:

﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ليس هو الظلم في الحساب - وعوذاً بالله - فـ ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ وإنما هو الحساب الدقيق الذي لا يبقي على أثر، دون سماح فيه عن كبيرة ولا صغيرة ولا تخفيف ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝١٠٤﴾[2].

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾:

﴿لَتُلَقَّى﴾ تلقياً دون وسيط يكدِّره، وإنما يلقِّيك الروح الأمين كما يتلقّاه من رب العالمين، تلقياً حكيماً ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ﴾ وعليماً «من لدن عَليم».

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

وأنه ليس - فقط - تلقياً للسمع ألفاظه وإنما هو تلقٍ للقلب حيث يتفأد به بنور الوحي: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[(١)].

إذاً فكما المُلقِّي للقرآن حكيم عليم، كذلك الملقّى يصبح به حكيماً عليماً، والروح الأمين الوسيط حكيم عليم، وهما في الله الأصيل، وفي الملقَّى والملقّى به فرع ظرفاً صالحاً لتلقّيه.

ومن ذلك الظرف - كأصل - اللقيا المعرفية والعبودية حيث التلقي تلقُّن بلقاء في تكلف وصعوبة، فإن تطهير القلب لحد يصلح لتلقي القرآن صعب مستصعب لا يحتمله أحد إلّا محمد ﷺ، أن يصَّعد قلبه في لقاء ربه إلى أعلى القمم الممكنة لمن سوى الله، و﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ دون «الله» أم سائر صفاته، قد تلمح إلى أن ذلك التلقي انما هو بتلقيةٍ حكيمة عليمة ربانية، فالقرآن يحمل علماً وحكمة ربانية، فليُلقَّ ظرفاً حكيماً عليماً، وليكون نوراً نازلاً على نور، وكما وسيط وحيه نور، نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء.



(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

حلقة سريعة من الرسالة الموسوية تلقياً للوحي من النور النار في الشجرة، تدليلاً على أن تلقي القرآن ليس بدعاً من تلقي الوحي، فمن كان في ريب منه فليذكر:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾:

هنا «أهله» لا تعني - فقط - زوجته بنت شعيب، بل ومعها غيرها من ولد وسواهم لمكان ﴿سَـَٔاتِيكُم ... تَصْطَلُونَ﴾ والجمع ولا سيما المذكر منه لا يؤتى به لواحدة.

﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا...﴾ وحقيقة الإيناس هي الإحساس بالشيء من جهة

يؤنس بها ويُسكن إليها، ويا له من إيناس بعد الإياس في قرِّ الليل المظلم بوعثاء السفر، وفي خبر أنه في رجوعه من مدين ضل الطريق في ليلة ظلماء[١].

وقد كانت النيران توقد في البرية فوق البرية فوق المرتفعات لهدي السالكين في الليالي، فظنها كأنها منها، دون تأكّد فيها حيث ﴿ءَانَسْتُ نَارًا﴾ ولا تنافيه ﴿إِذْ رَءَا نَارًا...﴾[٢] حيث الرؤية قد تكون إيناساً دونما اطمئنان، فلذلك ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ...﴾ تردداً بين «خبر» علّه خبر السماء، وبين ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: استيقاداً بصلاءِ شهاب قبس مقتبس من النار، فالشهاب هو الشعلة الساطعة من النار المشتعلة، والقبس هو المقبس منها.

وعلّ ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ هنا تختص بـ ﴿ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ فعندئذ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وأما «خبر» فـ ﴿سَـَٔاتِيكُم...﴾ كأنه متأكد هنا من خبر السماء في النار، أم مطمئن إليه أكثر من أصل النار، وقد ذكرت في طه كما هنا وبعكس الترتيب: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[٣] فقد تختص «لعليّ» بالأولى، ثم «أو أجد» دون «نجد» - ﴿عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ خارجة عن «لعلّي» كأنها متأكدة أم راجحة مطمئنة، ثم النص ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا...﴾ دون «إنّا» ولو كانت هي النار المرئية لأي راءٍ لرأته أهله معه! وهذه ترجيحة أخرى لما ذكرنا، إن الهدى الرسالية هي الراجحة، بل ولأنها كانت هي المترقَّبة لموسى وبعد تأجيل ذلك الردح البعيد من الزمن، فيخبر - إذاً - بهذه الفروسية اللّامعة:

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٧٣ عن الباقر عليه السلام في ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ...﴾ [طه: ١٠] كان قد أخطأ الطريق.

(٢) سورة طه، الآية: ١٠.

(٣) سورة طه، الآية: ١٠.

﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ هنا، و﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ - وكما فصلنا - في طه!.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾:

هنا ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ وفي طه ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا. . .﴾[1] وهما تتجاوبان في معنى: حضر عندها، ثم هنا ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا. . .﴾ وفي طه ﴿. . . نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ. . .﴾[2] فقد كانت النداء من الشجرة المباركة الزيتونة المحلِّقة عليها نار النور ونور النار: كما في القصص: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[3].

﴿. . . نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا. . .﴾.

وترى ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ هو الله سبحانه وتعالى، بذاته المقدسة المتعالية عن الحدِّ والمكان؟ و﴿بُورِكَ﴾ الرامية إلى حادث البركة على من في النار تبعده عن ساحته تعالى، تقريباً إلى من باركه الله في هذه النار، كما و﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تسبحه وتنزهه عن أن يحل في نار أو نور هي من مربوبيه وهو رب العالمين، فقد متَّى المتى فليس له متى، ومكَّن المكان فليس له مكان!

أم ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ هو من ظهر سلطانه وقدرته ورحمته في النار؟ ولا يعبر عن سلطانه ورحمة بـ«مَن»! ولا تحلّ قدرته في شيءٍ، ناراً أم غير نار! فلا تعني ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ لا ذاته سبحانه ولا صفاته، حيث البركة هي منه إلى خلقه، فكيف ﴿بُورِكَ﴾؟ ومن هو الذي باركه؟ أم بارك نفسه ما لم يكن باركها من ذي قبل! ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾!

---

(١) سورة طه، الآية: ١١.
(٢) سورة طه، الآيتان: ١١، ١٢.
(٣) سورة القصص، الآية: ٣٠.

قد يعني ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ روح القدس، المبارك هنا بحمل الوحي الرسالي لموسى، فـ «من حولها» هو موسى حيث بورك بذلك الوحي.

أم ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ هو موسى بمن معه من وسيط الوحي أم ليس معه، حيث «أتاها» فحصل في جو النور النار، فـ «من حولها» هم الأنبياء الإسرائيليون الذين بوركوا بوحي السماء وهم مدفونون حول الواد المقدس، في القدس وما حولها.

وعلى أية حال فلا تخلو هذه البركة الخاصة في ﴿بُورِكَ﴾ عن وسيط الوحي ومن أوحي إليه، والمحور الأصيل هنا هو موسى، دون ذات الله أو صفاته تعالى ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عن هذه الشطحات الزور والغرور!.

إنها نورٌ كانت تتراءى ناراً قضية ظلم الليل وعدم وَضْح الوحي فيه، نورٌ وقّادة خلقها الله على الشجرة المباركة في الواد المقدس، ولقد مضت هذه البقعة في سِجِلِّ الوجود في الكيان الرسالي مباركةً مقدسةً بتجلي الوحي الموسوي فيها، تلقياً لوحي التوراة كما ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾:

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ...﴾[1] - ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]:

«إني أنا ربك - الله رب العالمين - العزيز الحكيم» تلمح كمجموعة أن صيغة النداء كانت تشملها كلها، فمثلت التعبير مطوي فيها، وفي كلِّ مجالة من عرضها تأتي ما تناسبها من هذه الثلاث.

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٠.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾:

﴿لَدَيَّ﴾ هنا تعني لدنية القرب في القمة المعرفية الرسالية، إذ يلقّى فيها الوحي، لا فحسب العلم والقدرة إذ يشملان كلّ كائن أياً كان وأيان، و﴿جَآنٌّ﴾ هي الحية الصغيرة الناعمة، فقد اهتزت عصاه بشاكلةٍ كأنها جانٌّ على كبرها حية تسعى فـ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ خوفة منها، فإذا بخطاب رب العزة ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولقد كان من حقه أن يخاف جانّ العصا ولمّا يتقدم من ربه الأمن وألّا يخف، إذ كانت عصاه سلاحه الذي يدفع به، فإذا هي حية تسعى، فلا قرار - إذاً - إلّا الفرار من عصاه المقلوبة من أمنه وتأمينه إلى بأسه، وقد ظلم نفسه من ذي قبل: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ...﴾!

وترى أن ﴿لَا تَخَفْ﴾ إخبار عن واقع يستغرق كلّ المرسلين قضية الرسالة وأنهم ﴿لَدَيَّ﴾؟ فلماذا خاف موسى هنا - وقد بدأت رسالته بالوحي الرسالي - من آيته الرسالية؟ وذلك تكذيب لما أخبر الله به ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ...﴾ أو تكذيب - لكونه رسول الله! ألأنه لم يكن ﴿لَدَيَّ﴾؟ وهو لدى الله في موقف الوحي الرسالي بآية من آياته! أم لم يكن حينه من المرسلين؟ وهو رسول بسند الوحي وآية الرسالة، أم أن هذه الضابطة مخصصة في موسى؟ وهي آبية عن التخصيص! ولو خصصت فلماذا إذاً ﴿لَا تَخَفْ﴾ سناداً إلى نفس الضابطة: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾!.

علّه داخلٌ في المستثنى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾: انتقاصاً قبل الرسالة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٦.

فقد ظلم نفسه من قبل دونما تقصير ثم بدل حسناً بعد سوء فغفر له ربه، إذاً فقد يكون من:

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾:

فهو بعد غفْره تعالى لا يخاف لدى الله فيما يأمره به الله ما ظهر جاناً أو ثعباناً، بل هو من الآمنين: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾[1] مهما كنت قبل ﴿مَن ظَلَمَ﴾ ولكنك بدَّلت بعدُ حسناً بعدَ سوء ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فـ ﴿لَا تَخَفْ﴾ المعلل بـ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ هناك، وبـ ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ...﴾ هنا، نهيٌ عن خوفه من ظلمه لمكان غفره تعالى، وكأنه خيِّل إليه الجان المحوَّل عن عصاه، عساه جزاءٌ عن ظلمه، غضاً عن غفره وتعالى تطامنا وتذللا.

وانقطاع الاستثناء هنا لا يرجع إلى معنىً صالح فإنه «لا يخاف.. إلّا من ظلم ثم غُفر» وليس للمغفور له أن يخاف كما ليس لغير الظالم أن يخاف، فإنما الخائف هو الظالم غير المغفور له وهو خارج عن نص الآية.

وقد يقال ﴿لَا يَخَافُ...﴾ ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ﴾ ولمّا يغفر له، فلا يخفف ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؟ ولكن حصر الخوف لدى الله بمن بدَّل، حسرٌ له عمن ظلم ولم يبدِّل وهو أحق أن يخاف لدى الله!

فـ ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إخبارٌ حال كونها إنشاءً لسلب الخوف لدى اللَّه عن ساحة المرسلين، وحتى من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم، فهو إذاً من الآمنين، ليس له أن يخاف لدى الله بعد ذلك الغفر الأمين.

ويا له من مسرح الخوفة المولية له مدبراً دون تعقيب، إذ ألقى عصاه فإذا هي تدب وتسعى بسرعة هائلة كأنها جان، فأدركت موسى طبيعة

(١) سورة القصص، الآية: ٣١.

الانفعالية، وهزَّته هزَّتُها المفاجئة التي لم تك تخطر ببال، وهو في تلك الحال المباركة ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ فيجري في جريه مولِّياً دون تفكير في الرجوع، فيأتيه النداء الحنون المنون ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ. . .﴾ وهذه ضابطة شاملة أنه إنما يخاف لدى الله ﴿مَن ظَلَمَ﴾ ثم لم يبدل حسناً بعد سوء، وهلّا يخاف غيرُ الظالم الله كما لا يخاف لدى الله؟ طبعاً يخاف الله ويخشاه حيث الخوف والخشية من الله هما قضية الضعة الكاملة أمام الله، فـ ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ﴾ لا تنفي إلّا الخوف عما يخيف من الكائنات المخيفة كحية العصا أمّاذا؟ جزاءَ الظلم، فأمّا الله فـ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(١) بالله، العارفين قدْر الله.

خوف وخشية عن الله هما قضية العلم بالله، وخوف لدى الله أم سواه عما سوى الله هو قضية عصيان الله، فـ «من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شي»(٢).

فقد كان يخاف موسى لما ظلم نفسه ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾(٣) ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾(٤)، وهذا خوف من غير الله قضيةَ الانتقاص بجنب الله.

ثم هنالك خوف من الله قضية العلم بالله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٥) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾(٦) أم خوف في اللّه حفاظاً على شرعة الله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾(٧).

فهنا خوف صالح وخوف طالح وعوان بين ذلك، وموسى ينهى عن العوان، وكلنا منهيون عن طالحه إلى صالحه.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٢) عيون الأخبار عن الإمام الرضا عليه السلام.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٤.
(٤) سورة القصص، الآية: ٣٤.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.
(٦) سورة الإنسان، الآية: ١٠.
(٧) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

والآن بعد ذلك الحنان من الرب المنان، وقد اطمأن موسى إلى أمن الحضور ورحمته يؤمر مرة ثانية بآية أخرى:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢)﴾:

لماذا ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ دون كُمِّك الداخلة يدك فيه دونما حاجة إلى إدخال؟

علّه لم يكن له كم فليدخلها في جيبه، أم ليتأكد انها أصبحت ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وإلّا فعلّها كانت في كمه، ومنذ فترة قصيرة بيضاء من سوء برص، فلا يجديه نفعاً: «وأخرج يدك من كمك»!.

ثم ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ هل تعني كلّ الآيات الموسوية وهي أكثر منها؟ كلّا، وإنما هي التي ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾[1] دون الباقية الخاصة ببني إسرائيل كما فصلناها في الأسرى على ضوء: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾[2].

ولم يأت هنا بعديد الآيات التسع إلّا ثنتين والسبع الأخرى مسرودة في الأعراف؟ حيث التركيز على قوة الآيات وهما نموذجتان من أقواهما لنعرف المكذبين بها ما أغواهم.

وقد تعني ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ اليد والعصا، حيث التسع كلها ظهرت منهما، إذاً فهما التسع في الأصل وكل التسع فروعها.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣)﴾:

ولماذا ﴿هَذَا﴾ و﴿آيَاتُنَا﴾ تتطلب «هذه»؟ علّه لأنها قولتهم الهاتكة لها

---

(١) والتسع هي: ١ - اليد البيضاء، ٢ - ثعبان العصا، ٣ - الطوفان، ٤ - الجراد، ٥ - القمل، ٦ - الضفادع، ٧ - الدم، ٨ - ضرب الأموال بنقص وطمس وأخذهم بالسنين، ٩ - فلق البحر.
والآيات الخاصة ببني إسرائيل هي: ١ - نتق الجبل، ٢ - تفجير اثنتي عشرة عيناً، ٣ - المن والسلوى.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠.

دون قول الله، فهم تغامضوا عن عديد الآيات، وحتى عن أنها آية إلهية، فلم يعتبروها إلّا شيئاً وأمراً مّا غير خارق للعادة، رغم أنها مبصرة لمن أبصر إليها وبها، ولكنهم كانوا قوماً عمين فـ ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ لا ريب فيه حيث يبين سحره للناظرين، وقد سبق لهم المسرح العظيم من صراع السحرة مع موسى في محشر الناظرين، وثبت للساحرين أنفسهم أن ما جاء به موسى آية بينة من رب العالمين!

ولماذا مبصِرة، وكل آيات الله مبصرة؟ علّها توصيفة تأكيدية لفرقة وتبيينية لآخرين! أم أن الآيات غير المبصرة حسياً أبعد عن الحجة وإن كانت أقرب إلى المحجة وأثبت، وآيات موسى كلها مبصرة.

ولماذا ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ والإبصار إنما هو للناظرين؟ علّها مبالغة في وضوحها كأنها هي التي تبصر الناظرين لشدة لمعانها، فتجلب الناظر لينظر إليها، إذاً فهي مبصرة في ذاتها، دون حاجة إلى دافع آخر، لكونها خارقة للعادة بينة لا غبارَ عليها.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾:

هؤلاء الأغاد المناكيد ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾: الآيات المبصرة «و» الحال أنهم ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ حيث تجاوزت أبصارَهم إلى عقولهم، وشملت أنفسهم اللهم إلّا قلوبهم المقلوبة عن الهدى، المليئة من الردى، ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ لا عن اقتناع أو شبهة فيها أو ريبة تعتريها، وإنما ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ جحداً بألسنتهم رغم استيقان أنفسهم، حيث القلوب قاسية لا تحن إلى هدى مهما استيقنت النفوس.

فـ ﴿أَنفُسُهُمۡ﴾ هنا لا تشمل قلوبهم، فإن ظنها فضلاً عن استيقانها يحمل أصحابها على التصديق.

وقد يلمح هنا الاستيقان دون الإيقان إلى استثناء قلوبهم عن أنفسهم،

فقد كانت حواسهم وافكارهم وعقولهم ومعها فطرهم تتطلّب ايقان قلوبهم لأنها ذرائع الإيمان والإيقان، ولكنهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ بألسنتهم وقلوبهم ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ بسائر ادراكاتهم، تغافلاً عنها وتجاهلاً عن تطلباتها، ﴿ظُلْمًا﴾ بأنفسهم وبالحق والذرائع الموصلة إليه، فقد ظلموا حواسهم إلى فطرهم وفكرهم وعقولهم، وتنازلوا عن استيقانها لقلوبهم، ﴿وَعُلُوًّا﴾ على الله ورسله برسالاته، فذلك الظلم الفاتك عبّد طريقهم إلى علوّهم، فصدوا منافذ الهدى عن قلوبهم، وفتحوا مسالك الردى إليها فختم الله عليها بما ظلموا وعلواً!.

هذه الآيات المبصرة كانت مستيقنة تطلب اليقين، ثم وحواسهم بسائر إدراكاتهم كانت تستيقن هذه الآيات تطلباً ليقين القلوب، ولكنهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا ... ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ تنازلاً وتغافلاً عن كلّ إدراكاتهم وحتى الحسية الحيوانية، فهم أصبحوا أنزل من الحيوان وأنذل وأضل سبيلاً، حيث تحلّلوا عن كافة الإحساسات والنفسيات إنسانية وحيوانية!.

وذلك هو أسفل دركات الجحود بالحق[1] ﴿فَانظُرْ﴾ عبر التاريخ ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ نظراً إلى مهالكهم بما ظلموا وعلوا ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فقد أفسدوا ذوات أنفسهم، وأفسدوا بذلك البلاد ومستضعفي العباد!.

(١) نور الثقلين ٤: ٧٥ بسند متصل عن أبي عمر الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل، قال: الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه فمنها كفر الجحود على وجهين - إلى قوله -: وأما الوجه الآخر من الجحود على معرفة وهو أن يجحد الجاحد وهم يعلم أنه حق قد استقر عنده وقد قال الله عز وجل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...﴾ [النّمل: ١٤].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

عرض حافل لمُلك سليمان وسلطته الروحية الرسالية مع الجن والإنس

والطير فهم يوزعون، في حلقات من حياته المنقطعة النظير مع الطير والنمل وملكة سبإٍ، تبرز سلطته الملكية بجنب سلطانه الرسالي، تبييناً لعدله في سلطانه الجامع غير الجامح، قصصاً حافلة بحركات ومشاعر ومشاهد، نبراساً ينير الدرب على الزعماء في كلّ حقل كيف يجب عليهم رعاية الرعايا والتجنب عن الخطايا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ﴾ تأكيدان اثنان لوهبة العلم الربانية، و﴿ءَاتَيْنَا﴾ في جمعية الصفات تأكيدة ثالثة تلمح لمختلف صنوف العلوم الربانية، الممكن إيتاءها للصالحين الخصوص، ثم ﴿عِلْمًا ۖ﴾ منكراً تأشير إلى فخامة ذلك العلم، كما و﴿ءَاتَيْنَا﴾ تشير إلى أنه ليس مما يحصل بتحصيل متعوَّد، بل هو إشراق رباني إلى قلوب الطاهرين على قدر الفاعليات والقابليات ﴿عِلْمًا ۖ﴾ ومعرفة بالله يتبع العقيدة الصالحة والعمل الصالح ﴿عِلْمًا ۖ﴾ يعلم صاحبه مصدَره، متجهاً إلى الله، منفقاً له في مرضاة الله، مقرِّباً له إلى الله، دونما صدّ للقلب عن الله، زائغاً عن مصدره ومورده، لا يثمر إلّا شقاوة، لأنه منقطع الصلة صادراً وواراداً، وبعيداً عن النور مادة.

وهنا نعرف موقف الواو في ﴿وَقَالَا...﴾ كأنها عطف على محذوف معروف من ﴿عِلْمًا ۖ﴾ هذا، وهو العقيدة الصالحة والعمل الصالح: ﴿ءَاتَيْنَا... عِلْمًا ۖ﴾ - فاعتقداه وعملا به ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ فذلك الحمد باللسان يتبع الحمد بالجنان والأركان، شكراً على عطية الملك المنان، و﴿فَضَّلَنَا﴾ ليس فقط في مجرد العلم، إذ لا فضل في مجرده عن أثماره، بل هو الذي قال الله عنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(١) -: بالله و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[(١)] علم التقوى والتقوى في العلم، جناحان يطير بهما العبد الصالح إلى قمم المعرفة والكمال.

ثم وليس ﴿فَضَّلَنَا﴾ هنا - فقط - بما علمنا مجرداً عما يرام منه مادة وفاعلية، بل ﴿فَضَّلَنَا﴾ بما يفضِّل عباداً على عباد وقمتهُ التقوى، و﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تعقيبة رقيبة على ذلك التفضيل في علم وسواه، إنه في العبودية والإيمان، دون العلم الفاضي عنهما، وإنما هو الفائض منهما، الصادر عنهما، والوارد موارد الحق المُرام فيهما.

ولقد أشير إلى العلم المؤتى لداود في ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾[(٢)] ولسليمان ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ﴾[(٣)] فهما المؤتَيان حكماً وعلماً، يشملان قمماً معرفية عالية فُضِّلا بها على كثير من عباده المؤمنين.

أجل وهم من القلة القليلة بين ﴿عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (١٤)﴾[(٤)] فتلك الثلة وهذه القلة هم القلة القليلة ﴿مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

ومن فضل داود المشار إليه بـ﴿فَضَّلَنَا﴾: ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾[(٥)] ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾[(٦)].

فقد كان داود يرتل مقاطع من الزبور فيتجاوب به ذرات الكائنات من حوله، مما يدل على العبودية العريقة القمة، وسليمان المسخر له الريح والجن والإنس بأمر الله قضيةَ طاعة الله كما قال الله: عبدي أطعني حتى أجعلك مَثَلي أنا أقول للشيء كن فيكون، أجعلك تقول للشيء كن فيكون!

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.
(٤) سورة القمر، الآيات: ١١-١٤.
(٥) سورة سبأ، الآية: ١٠.
(٦) سورة سبأ، الآية: ١٢.

لذلك لمّا «سأل رجل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: العلم بالله والفقه في دينه وكررها عليه، فقال: يا رسول الله ﷺ أسألك عن العمل فتخبرني عن العلم فقال: إن العلم ينفعك معه قليل العمل وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل»[1].

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

﴿وَوَرِثَ﴾ هنا لا تعني إرث النبوة، بل هو هنا المال، فالنبوة ليست لتورث لأنها وهبة إلهية كما هنا ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ فالله هو الذي علّم سليمان كما علّم داود فلا مجال لإرثه عنه بعد ما آتاه الله، إلّا تحصيلاً لحاصل ومن غير مصدره!

فالمال يورث بما فرضه الله كضابطة لا تستثنى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ . . .﴾ إرثاً دون تحصيل، ثم العلم غير الرسالي قد يورث ولكنه بتحصيل كما «العلماء ورثة الأنبياء» تعلماً منهم، ولكنما النبوة لا تورث إذ لا تحصل بتحصيل، وإنما هي وهبة إلهية لا تنتقل من نبي إلى نبي، بل هي عطية ربانية لمن يشاء: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2] فطالما العلم مصداق مجازي هامشي للإرث، فالنبوة غير داخلة في ميراث ولا مجازياً[3] فكيف يختص هنا الإرث بالنبوة توجيهاً لغصب فدك البتولة

---

(١) تفسير روح البيان ٦: ٣٢٦.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٤.

(٣) اللهم إلّا مجازاً بعيداً وضمن سائر الميراث، بمعنى أن الله تعالى أورث نبياً نبياً مثل النبوة السالفة أم فوقها أم دونها، وبين النبوة والميراث عموم من وجه، فقد يكون الابن نبياً دون أبيه أو يكون الأب نبياً دون ابنه فلا ميراث هنا وهناك أو يكون الأب والابن نبيين ولكن النبوة الثانية ليست في الحق إرثاً من الأولى إلّا بمجاز بعيد عن حقيقة الإرث ومجازه القريب.
وحتى إذا عم الإرث النبوة إلى المال فليس ليختص بغير المال على أية حال.

الزهراء عليها السلام سناداً إلى مختلقة مخالفة لكتاب الله «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة»! وكما يروي الحجاج بهذه الآية وأضرابها عن الزهراء سلام الله عليها بين جماهير المسلمين في مسجد النبي ﷺ على الخليفة أبي بكر[1]:

«أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ وقال عز وجل فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ وقال عز ذكره ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[2] وقال ﴿يُوصِيكُمُ

---

(١) وقد أخرجت بألفاظ تالية: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني» «.. يؤذيني ما آذاها ويغضبني ما أغضبها» «.. يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها» «.. يؤذيني ما آذاها وينصبني ما أنصبها» «.. يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها» «.. يسعفني ما يسعفنا» - و: «فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها ويقبضني ما يقبضها» «فاطمة مضغة مني فمن آذاها فقد آذاني» «.. يقبضني ما قبضها ويبسطني ما بسطها» «.. يسرني ما يسرها».

أخرج على اختلاف ألفاظها أئمة الصحاح الستة وعدة أخرى من رجال الحديث في السنن والمسانيد والمعاجم وإليكم جملة ممن رواها: ١ - أبو محمد ابن عيينة الكوفي المتوفى ١٩٨ كما في الصحيحين. ٢ - ابن أبي مليكة ١١٧ في رواية البخاري ومسلم وابن ماجة وابن داود وأحمد والحاكم. ٣ - أبو عمر بن دينار المكي ١٢٥ كما في صحيحي البخاري ومسلم. ٤ - الليث بن سعد المصري ١٧٥ كما في إسناد ابن ماجة وابن داود وأحمد.

٥ - أبو النضر هاشم البغدادي ٢٠٥ مسند أحمد. ٦ - أحمد بن يونس اليربوعي ٢٢٧ كما في صحيح مسلم وسنن أبي داود. ٧ - الحافظ أبو الوليد الطيالسي ٢٢٧ صحيح البخاري. ٨ - أبو المعمر الهذلي ٢٣٦ صحيح مسلم. ٩ - قتيبة بن سعيد الثقفي ٢٤٠ مسلم وأبو داود.

١٠ - عيسى بن حماد المصري ٢٤٨.١١ - ابن ماجة. ١٢ - أحمد بن حنبل ٢٤١ في مسنده ٤: ٣٢٢ و٣٢٨.١٣ - البخاري في صحيحه ٥: ٣٧٤.١٤ - مسلم ٢٦١ في صحيحه ٢: ٢٦١.١٥ - ابن ماجة في سننه ١: ٢١٦.١٦ - أبو داود في سننه ١: ٣٢٤.١٦ - الترمذي في جامعه ٢: ٣١٩.١٧ - الترمذي في نوادر الأصول ٣٠٨.

١٨ - النسائي في خصائصه ٣٥.١٩ - أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني ٨: ١٥٦.٢٠ - النيسابوري في المستدرك ٣: ١٥٤، ١٥٨، ١٥٩ - وإلى (٤٩) شخصاً ذكرهم العلامة الأميني في الغدير ٧: ٢٣١ - ٢٣٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

اللهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾[(١)] وقال ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(٢)] وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج نبيَّه منها؟ أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبي ﷺ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[(٣)]؟ أأغلب على إرثي ظلماً وجوراً ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[(٤)] [(٥)].

ورواية أبي بكر عن رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»، مضروبة عرض الحائط لمخالفتها نصوصاً من الكتاب، فإنها معلِّلة عدم الإيراث بالنبوة، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ وأضرابها تورِّث الأنبياء بعضهم عن بعض! إضافة إلى المتواتر عن الرسول في فاطمته أن أذاها أذاه ورضاها رضاه وقد تأذت ووجدت من فعلة الخليفة[(٦)].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.
(٥) بحار الأنوار ج ٦ نقلاً لها عن كتاب «بلاغات النساء» لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر قائلاً إنها من المشهورات بين الفريقين في كتاب الاحتجاج روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام أنه لما اجمع أبو بكر على منع فاطمة فدك وبلغها ذلك جاءت إليه وقالت له: يا بن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي لقد جئت شيئاً فرياً، أفعلى عمد تركتم كتاب الله...
(٦) في نور الثقلين ٤: ٧٥ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب وذكر مسلم عن عبد الرزاق عن معمّر عن الزهري عن عروة عن عائشة وفي حديث الليث بن سعد عن عقيل عن ابن عروة عن عائشة في خبر طويل تذكر فيه أن فاطمة أرسلت إلى أبي بكر تسأل ميراثها من رسول الله ﷺ القصة - قال: فهجرته ولم تكلمه حتى توفيت ولم يؤذن بها أبا بكر يصلي عليها.
أخرج البخاري في باب فرض الخمس ٥: ٥ عن عائشة أن فاطمة عليها السلام ابنة رسول الله ﷺ سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يقسم لها ميراثها ما ترك رسول الله ﷺ=

ذلك إرث المال، وأما الحال فلا إرث فيها وهي المذكورة قبلُ ﴿وَلَقَدْ

= مما أفاء الله عليه فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: لا نورث ما تركنا صدقة - فغضبت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرة حتى توفيت.

أقول: ما تركنا صدقة قد تعني أن ما تركناه صدقة لا نورثها، لا وما تركناه غيرها.

وأخرج في الغزوات باب غزوة خيبر ٦: ١٩٦ عن عائشة قالت: إن فاطمة عليها السلام - إلى أن قالت -: فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها.

وأخرج مثله مسلم في صحيحه ٣: ٧٢ وأحمد في مسنده ١: ٦، ٩ والطبري في تاريخه ٣: ٢٠٢ والطحاوي في مشكل الآثار ١: ٤٨ والبيهقي في سننه ٦: ٣٠٠ - ٣٠١ وكفاية الطالب ٢٢٦ وتاريخ ابن كثير ٥: ٢٨٥ وقال في ٦: ٣٣٣: لم تزل فاطمة تبغضه مدة حياتها، وذكره بلفظ الصحيحين الديار بكري في تاريخ الخميس ٢: ١٩٣.

ولقد بلغت من موجدتها أنها أوصت بأن تدفن ليلاً وأن لا يدخل عليها أحد ولا يصلي عليها أبو بكر فدفنت ليلاً ولم يشعر بها أبو بكر وصلى عليها علي وهو الذي غسلها مع أسماء بنت عميس: (طبقات ابن سعد - رسائل الجاحظ ٣٠٠ - حلية الأولياء ٣: ٤٣ - مستدرك الحاكم ٣: ١٦٣ - طرح التثريب: ١: ١٥٠ أسد الغابة ٥: ٢٥٤ - الاستيعاب ٣: ٧٥١ - مقتل الخوارزمي ١: ٨٣ - إرشاد الساري للقسطلاني ٦: ٣٦٢ - الإصابة ٤: ٣٧٨ - ٣٨٠، تاريخ الخميس ١: ٣٢٣).

وقال الواقدي كما في السيرة الحلبية ٣: ٣٩٠: ثبت عندنا أن علياً كرم الله وجهه دفنها رضي الله عنها ليلاً وصلى عليها ومعه العباس والفضل ولم يعلموا بها أحداً.

ومن جراء تلك الموجدة منعت أن تدخلها يوم ذاك عائشة كريمة أبي بكر فضلاً عن أبيها فجاءت تدخل فمنعتها أسماء فقالت: لا تدخلي، فشكت إلى أبي بكر وقالت: هذه الخثعمية تحول بيننا وبين بنت رسول الله ﷺ فوقف أبو بكر على الباب وقال: يا أسماء ما حملك على أن منعت أزواج النبي ﷺ أن يدخلن على بيت رسول الله ﷺ وقد صنعت لها هودج العروس؟

قالت: هي أمرتني أن لا يدخل عليها أحد وأمرتني أن أصنع لها ذلك - راجع (الاستيعاب ٣: ٧٧٢ - ذخائر العقبى ٥٣ - أسد الغابة ٥: ٥٢٤ - تاريخ الخميس ١: ٣١٣ - كنز العمال ٧: ١١٤ - شرح صحيح مسلم للسنوسي ٦: ٢٨١ - شرح الآبي لمسلم ٦: ٢٨٢ - أعلام النساء ٣: ١٢٢١).

وقد أخرج ابن قتيبة والجاحظ أن عمر قال لأبي بكر: انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها فانطلقا جميعاً فاستأذن على فاطمة فلم تأذن لهما فأتيا علياً فكلماه فأدخلهما عليها فلما قعدا=

ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا وَقَالَا . . .﴾ وكذلك بعدُ في قسم من قضاياها ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . . وَأُوتِينَا . . . إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ولو كانت هذه مما ورثه داود لم يكن للواو مجال في ﴿وَقَالَ﴾ بل الصحيح إذاً: قال، أم: فقال..

﴿. . . وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ. . .﴾:

هنا نعرف أن للطير منطقاً، فليس الإنسان هو الحيوان الناطق بين الحيوان، ولكن كيف تنطق الطير وماذا؟ إن علمه بحاجة إلى تعليم رباني يختص بأمثال سليمان ممن آتاهم الله علماً.

وهل أن الطير أيضاً عُلِّمت منطق سليمان إذ كلمته هدهد في حوار؟ طبعاً نعم! وإلّا فكيف عرفت مقال سليمان ثم أجابت ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ إلّا أنه ليس لزامه أن الهدهد تفهمت لغة الإنسان من سليمان، فالذي علِّم منطق الطير يعلم نطقها ويعلم كيف ينطق معها نطقها، و﴿عُلِّمْنَا

= عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليها السلام فتكلم أبو بكر فقال: يا حبيبة رسول الله ﷺ والله إن قرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إلي من قرابتي وإنك لأحبّ إليّ من عائشة ابنتي ولوددت يوم مات أبوك متّ ولا أبقى بعده أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ﷺ ألا إني سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول: لا نورث ما تركنا فهو صدقة، فقالت: أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتفعلان به؟

فقالا: نعم فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول: رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟ قالا: نعم سمعناه من رسول الله ﷺ قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي ﷺ لأشكونكما إليه، فقال أبو بكر: أنا عائذ باللّه تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة، ثم انتحب أبو بكر يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق وهي تقول: والله لأدعون عليك في كلّ صلاة أصليها، ثم خرج باكياً فاجتمع الناس إليه فقال لهم: يبيت كلّ رجل معانقاً حليلته مسروراً بأهله وتركتموني وما أنا فيه لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني بيعتي.

مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ تشمل النطق بلغتها بجنب تفهُّمها لغته، بل لا فكاك بين أن يفهم منطقها وبين أن ينطق به.

وكما ﴿عُلِّمْنَا. . .﴾ تشمل العلمين سماعاً وتكلماً، كذلك ﴿ٱلطَّيْرِ﴾ تشمل سائر الطير دونما استثناء، مهما برزت الهدهد في ذلك المسرح.

وهل إن ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ هنا تختص علمه بمنطقها بين سائر الحيوان؟ فكيف علِّم منطق النملة! ألأنها كانت من طيرها فتشملها ﴿ٱلطَّيْرِ﴾؟ ولا يقال لذوات الأجنحة منها طير!

أم لأن النملة اختصت بهذا النص بين الحيوان غير الطير، فلم يعلم منطق سائر الحيوان إلّا النملة؟. . ليس لنا إلّا متابعة النص، فقد علِّم منطق الطير والنملة ثم لا ندري هل علَم منطقاً آخر أم لا؟ اللهم إلّا أن تلمح ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ و﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ شيء من العلم بمنطق سائر الحَيوان بل وسائر الكائنات(١) وشيءٌ من المِلك والمُلك.

أجل ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لا تعني البعض الذي يعرفه الكلّ علماً فطرياً أو تعلماً، وإنما ﴿وَأُوتِينَا﴾ كعطاء خاص رباني كما ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ فذلك المؤتى له من كلّ شيء، شيءٌ من العلم الخاص والقدرة الخاصة أمّا هيه من المخبوءِ تحت ستار الغيب، لا يعلمها إلّا من علمه الله، و﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ حيث يبين اختصاص الفضل على سائر العالمين، إذ لا يناله أحد إلّا بما يؤتيه الله لا سواه.

إلّا أن هنا فرقاً بين ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ و﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ حيث

---

(١) المجمع روى الواحدي بالإسناد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: أعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والشياطين والدواب والطير والسباع وأعطي علم كلّ شيء ومنطق كلّ شيء وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة التي سمع بها الناس وذلك قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

الأول تلمح أنه علم منطق الطير ككل، والثانية لمكان «من» التبعيض تختص علمه وقدرته بالبعض، فقد علِّم - إذاً - بعض المنطق من سائر الحيوان وسواها، كما أوتي البعض غير العلم كما العلم، وليس منطق الطير كلَّ ما يُسمع منها، فقد يكون صوتاً دون معنى كما قد يكون منا، وقد لا يكون صوتاً نسمعه كما في النمل وأضرابها، فما يناله الإنسان من الصوت إنما هو عدد محدود من الارتعاش الصوتي وهو كما يقال ما بين ستة عشر ألفاً إلى اثنين وثلاثين ألفاً في الثانية، والخارج منها في الجانبين خارج عن حدود سمعه، وقد تنطق الطير أو سائر الحيوان دون صوت، وإنما بإشارات تلغرافية أو الرادار كما نراها من النمل وسائر الحيوان، فلا يختص المنطق بما له صوت، بل يعمه مسموعاً لنا وسواه، أم رمزاً لا يُسمع، والنطق هو إبراز ما في الباطن بآلة ظاهرة لساناً وسواه، و﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ تعم مثلث النطق. أجل وللطير منطق كما لكل حيوان حيث الكل أمم كما نحن: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[١].

ذلك! لضرورة التفاهم بينها لإدارة الشؤون الحيوية لها، وليس للإنسان التعرُّف إلى منطقها مهما حاول وزاول، لأنه من الأسرار الربانية يعلِّمها من يشاء!.

وحين يعلَّم سليمان منطق الطير ويؤتى من كلّ شيء فبأحرى الرسول ﷺ والأئمة من آله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين، أحرى بهم أن يعلّموا منطق الطير ويؤتَوا من كلّ شيء[٢] فإنهم أئمة سليمان ومَن فوقه

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) نور الثقلين ٤ : ٧٧ في الخرائج والجرائح قال بدر مولى الرضا عليه السلام أن إسحاق بن عمار دخل على موسى عليه السلام فجلس عنده واستأذن عليه رجل من خراسان فكلمه بكلام لم أسمع بمثله كأنه كلام الطير، قال إسحاق: فأجابه موسى عليه السلام بمثله ولغته إلى أن قضى وطره من=

من النبيين، وما هم بعالمين كلّ شيء خلافاً لما يروى[(١)] وترى «علمنا وأوتينا» - وهو شخص - أهي من سنة الرعونة والكبرياء في الملوك؟ وسليمان من

= مسائله فخرج من عنده فقلت: ما سمعت بمثل هذا الكلام! فقال عليه السلام: هذا كلام قوم من أهل الصين وليس كلُّ كلام أهل الصين مثله ثم قال: أتعجب من كلامي بلغته؟ فقلت: هو موضع العجب! قال عليه السلام: أخبرك بما هو اعجب منه أن الإمام يعلم منطق الطير ونطق كلِّ ذي روح خلقها الله تعالى وما يخفى على الإمام شيء.

أقول «لا يخفى على الإمام شيء» قد يعني لغة كلّ شيء لا كلّ شيء من كلّ شيء فإنه خاص بالله الذي لا يعزب عن علمه شيء.

وفيه عن المناقب لابن شهر آشوب محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النّمل: ١٦] أقول: وهذا يؤيد تبعيض العلم وكل شيء من كلّ شيء.

وفيه عن بصائر الدرجات بسند عن الثمالي قال كنت مع علي بن الحسين عليهما السلام فانتشرت العصافير وصوتت فقال: يا أبا حمزة أتدري ما تقول؟ قلت: لا قال: تقدس ربها وتسأله قوت يومها ثم قال: يا أبا حمزة ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النّمل: ١٦].

وعنه عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام لابن عباس: إن الله علمنا منطق الطير كما علم سليمان بن داود، ومنطق كلّ دابة في بر وبحر.

وفي تفسير البرهان ٣: ٢٠١ محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات بسند متصل عن محمد بن جعفر عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: استوصوا بالصنانيات خيراً يعنى الخطاف فإنه آنس طير الناس بالناس ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أتدرون ما تقول الصنانية إذ هي ترنمت تقول بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ حتى تقرأ أم الكتاب فإذا كان في آخر ترنمها قالت ولا الضالين.

أقول: والروايات في أنهم علموا منطق الطير وأوتوا من كلّ شيء علّها متواترة.

وقد يعني أن علمهم عليهم السلام أوسع من علمه كما عن نفس المصدر عن الفيض بن المختار قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام، أن سليمان بن داود قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النّمل: ١٦] وقد والله علمنا منطق الطير وعلم كلّ شيء، أقول: ولكن الكل نسبي لا يعني ككل ما يعلمه الله، وإنما البعض الأكثر شمولاً مما علم وأوتي سليمان.

(١) المصدر عن بصائر الدرجات أحمد بن محمد بن خالد عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام وتلا رجل عنده هذه الآية ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النّمل: ١٦] فقال أبو عبد الله عليه السلام ليس فيها «من» إنما هي «أوتينا كلّ شيء» أقول: إنه مضروب عرض الحائط لمخالفته تواتر القرآن وكما في روايات العرض.

أفضل الصالحين! قد يعني نفسه وأباه داود، أم ومن معه من النبيين وسائر المعصومين سلام الله عليهم أجمعين، وكما ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾.

وقد تلمح «علمنا وأوتينا» برجاحة الإعلان بما أنعم الله أو اختص بكرامته، كما ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(١) شرط ألّا تمازجه رعونة وكبرياء فإن الله منها براءٌ، بل هو هنا إعلان رسالي تدليلاً بذلك العلم على رسالته إلى الناس، فليس فقط تحديثنا بنعمة ربه راجحاً غير واجب.

فقد أذاع سليمان هذه العطية الربانية للناس تحدثاً بنعمة الله دون مباهاة ولا تنفُّجٍ على الناس، وكما يدل عليه بتعقيبه ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وليس منطق الطير وسائر الحيوان - ككلٍّ - بالساذج الحيواني دون العقول الإنسانية، وكما النملة والهدهد تبرزان هذه الحقيقة، إن لها معارف كما للإنسان أم وقد تكون أصغى وأوفى، وأنها تسبِّح بحمد ربها كما نسبِّح ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾(٢) ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(٣) (٤).

---

(١) سورة الضحى، الآية: ١١.

(٢) سورة النور، الآية: ٤١.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٤) نور الثقلين ٤ : ٧٨ - المناقب عن تفسير الثعلبي قال الصادق عليه السلام قال الحسين بن علي عليه السلام : إذا صاح النسر قال: يا بن آدم اعش ما شئت آخره الموت، وإذا صاح الغراب قال: إن في البعد عن الناس أنساً - وإذا صاح القبّر قال: اللهم العن مبغضي آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ويمد الضالين كما يمدها القارئ.

وفيه في مناقب أبي جعفر الباقر عليه السلام وسمع عصافير تصحن قال: تدري يا أبا حمزة ما يقلن؟ قلت: لا - قال: يسبحن ربي عز وجل ويسألن قوت يومهن.

وعن بصائر الدرجات بسند عن فضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كنت عنده إذ نظرت إلى زوج حمام فهدر الذكر على الأنثى فقال لي: أتدري ما يقول؟ قلت: لا - قال يقول: يا سكني وعرسي ما خلق الله أحب إليّ منك إلّا أن يكون مولاي جعفر بن محمد.

وفيه بسند عن سليمان من ولد جعفر بن أبي طالب قال: كنت مع أبي الحسن الرضا عليه السلام في حائط له إذ جاء عصفور فوقع بين يديه وأخذ يصيح ويكثر الصياح ويضطرب فقال لي: يا =

وإنما الميِّزة البارزة للإنسان بين سائر الحيوان هو التقويم الأحسن فيه قلباً وقالباً، وأنه لا يقف لحدٍّ، فله التكامل إلى قمم عليا من الكمال وأعلى من الملائكة المقربين، وللحيوان - ككل - مقام محدود، وحتى بالنسبة للحيوان الذي يتكامل وقليلٌ ما هو، وإن الكمالات الإنسانية روحية وسواها تتبنى المساعي على قدرها، والحيوان أوتيت المعرفة بالله غريزياً في كلّ وظائفها ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾!.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

الحشر هو إخراج جماعةٍ عن مستقرهم بإزعاج ودفعِ جماعة، وهكذا يحشر الجنود المتفرقون في مختلف مستقراتهم لهدف الغزو، أو عرضهم أمام قائدهم أمّاذا؟، والإيزاع هو المنع، وهنا الحبس عن تفرقهم وحشرهم أن «يحبس أولهم على آخرهم»(١). فقد أصبح جنوده من الأقسام الثلاثة محشورة مع بعض، دون سماح لهم بالتفرق والرجوع إلى مستقراتهم لفترة مقصودة فيما أهمه.

و﴿مِنَ﴾ هنا تبعِّض الجن والإنس والطير، فلم يكن الكلُّ بأسرهم جنودَه، فمن يبقى بعدهم أجمع حتى يحاربهم؟ أيحارب الحَيَوان الوحش أو الملائكة أمّن هم؟ ولم يتجاوز ملكه ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات! والشيطان - وهو من الجن وزعيم مردة الشياطين - لم يكن من جنوده، ومنهم محاربون له معارضون: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾(٢)، ثم

= فلان تدري ما يقول هذا العصفور؟ قال قلت: الله ورسوله وابن رسوله أعلم قال: إنها تقول إن حية تريد أن تأكل فراخي في البيت فخذ معك العصا وادخل البيت واقتل الحية، قال: فأخذت النبعة - وهي العصا - ودخلت إلى البيت وإذا حية تجول في البيت فقتلتها.

(١) نور الثقلين ٤: ٨٢ القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية...

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

الشياطين العمال لم يكونوا كلهم من جنوده، بل ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾[(١)] ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾[(٢)] ومنهم من لم يطلع عليهم كمملكة سبإٍ حتى أخبره الهدهد! ثم الطير وهي البلايين البلايين لم تكن لتحشر عن بكرتها، ومنها الملايين من الهداهد، وهو يقول عند تفقد الطير: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ...﴾ فهو هدهد خاص بين كلّ الهداهد، كان من الطير المشحورة، أم هو صاحب هذه النبوة الخاصة في هذا الحشر بين عدد من الهداهد.

إذاً فجنوده من كلّ صنف من الثلاثة هم النخبة الصالحة لحرب أعدائه من محاربي الجن والإنس، المكافحين فيها، وكيف يأتمن شياطين الجن في الحرب ولهم إدغال وإخلال؟! وأخيراً كيف بالإمكان أن يسافر بذلك الحشد الهائل من كلّ الجن والإنس والطير حتى يأتوا على واد النمل، وهو من الوديان الصغيرة المناسبة لطبيعة حال النمل؟!.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

لقد سار الموكب الملكي الرسالي مصيره ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾، وترى أين ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ولها وديان في مختلف الأرض؟ فلو كان وادياً كسائر الوديان لكان حق التعبير «وادياً للنمل»! فقد تعني ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ وادياً خاصاً مميّزاً عن سائر الوديان لجمهورية النمل العجيبة بين جمهوريات الحيوانات[(٣)] وقد ألفت لها كتابات ومنها حياة النمل.

---

(١) سورة ص، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٢.

(٣) تبلغ أصناف النمل ألفاً وتزيد، وكل صنف يمتاز عن غيره بميّزة، وكل جمهورية من هذه الجمهوريات لها ملكة أو أكثر ذات جناح، وقد تتألف قرية النمل من نصف مليون نملة..

ومما يزيد ذلك التميُّز اختصاصاً ﴿أَتَوۡا۟ عَلَىٰ﴾ دون «مرو على» أو «مروا بـ» مما يلمح أنه إتيان قاصد دونما صدفة غير مقصودة.

ولأن مملكة سليمان كانت فلسطين الواسعة والعراق، فقد يكون ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ وادياً في فلسطين(١) وما يدرينا أين هو منها؟ وكيف هو؟ والنص مقتصر على ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾.

فبصرت به نملة من النمال فارتاعت لذلك الحشد الحافل، وخافت على قومها أن تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم على غفلة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ فأهابت بهم أن ﴿ٱدۡخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمۡ...﴾ وقد تلمح ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ وهو الكسر أنها تعني فيما تعني كسرهم عن كيان العبودية انعطافاً إلى زينة الدنيا كما يُروى(٢).

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٢ عن تفسير القمي في الآية فإنه قعد على كرسيه وحملته الريح فمرت به على واد النمل وهو واد ينبت فيه الذهب والفضة وقد وكل به النمل وهو قول الصادق عليه السلام : إن لله وادياً ينبت الذهب والفضة وقد حماه الله بأضعف خلقه وهو النمل لو رامته النجاتي ما قدرت عليه.

أقول قصة حمله على كرسيه هنا تخالف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡا۟﴾ [النّمل: ١٨] الدالة على إتيانه بجنوده وكيف تحمله الريح على كرسيه وجنوده مشاة؟ وأما قصة إنبات الذهب والفضة فمما لا نصدقها ولا نكذبها فهي مردودة إلى قائلها.

وفي البحار ١٤ : ٩٤ يه بإسناده إلى حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن سليمان بن داود عليهما السلام خرج ذات يوم مع أصحابه يستسقي فوجد نملة قد رفعت قائمة من قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك لا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب بني آدم، فقال سليمان عليه السلام لأصحابه: ارجعوا لقد سقيتم بغيركم.

(٢) بحار الأنوار ١٤ : ٩٢ ن. ع بسند متصل عن داود بن سليمان الغازي قال: سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عليهم السلام في قوله عزّ وجلّ : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النّمل: ١٩] - قال لما قالت النملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمۡ...﴾ [النّمل: ١٨] حملت الريح صوت النملة إلى سليمان وهو مار في الهواء والريح قد حملته فوقف وقال عليّ بالنملة، فلما أتي بها قال سليمان: يا أيتها النملة أما علمت أني نبي الله وأني لا أظلم أحداً؟ قالت النملة: بلى قال سليمان: فلم حذرتنيهم ظلمي وقلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النّمل: ١٨] قالت النملة: خشيت أن ينظروا إلى=

أجل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ . . .﴾ فهل قالت بصوت ناعم أسمعه الله سليمان ولا يسمعه أي إنسان؟! حيث العدد في الارتعاش الصوتي للإنسان محدود ليس ليسمع أدنى منه ولا أعلى، أم قالت بالتلغراف اللاسلكي أو جهاز الرادار المودوع في قرنيها، فهي تُبادل الخواطر بتلك الوسائل العجيبة، فتفهُّم قولها هو من خوارق العادة للإنسان في بعدي مادة الخاطرة وإيصالها دون صوت، والبشرية اليوم مهما وصلت إلى استخدام الرادار اللاسلكي في نقل الأقوال، لم تصل حتى الآن إلى حد نقل الخواطر دون أية وسيلة صوتية، وحتى إذا وصلت إليه يوماً مّا فليست لتفهم خواطر الحيوان أيّاً كان، فإنه من تعليم الملك المنّان!.

وعلّ نملة هذه هي الملكة في واد النمل، - كما يلمح لها تأنيثها - أو الخطيبة الممثلة لها، فخاطبت النمل خطابها العجيب:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ . . .﴾:

ويا لمساكن النمل من أعاجيب في هندساتها وتنظيماتها، وهل أتاك نبأ البيوت التي تتخذها تحت الأرض وتجعل لها أعمدة وبهوات متسعات: (صالات) في كلّ بهوة أبواب مفتَّحات إلى حُجَر صغيرات تسكن فيها، وآخر تخزن فيها الحبوب والغلال وبينها الطرق والمسالك والشوارع بحيث تهتدي بها إلى أعلى الأرض وتجتمع من تلك البيوت وبهواتها وحجراتها وأعمدتها قرى كاملة ذات بيوت كثيرة.

= زينتك فيفتتنوا بها فيعبدوا عن الله تعالى ذكره - وفي العلل: فيعبدون غير الله تعالى ذكره، وفي العيون: فيعبدون عن ذكر الله تعالى، ثم قالت النملة: هل تدري لم سخرت لك الريح من بين سائر المملكة (الملكة) قال سليمان: ما لي بهذا علم، قالت النملة: يعني عَزَّوَجَلَّ بذلك: لو سخرت لك جميع المملكة كما سخرت لك هذه الريح لكان زوالها من يدرك كزوال الريح، فحينئذ تبسم ضاحكاً من قولها. أقول: وللنظر في بعض فقراتها مجال إذ تخالف القرآن أم لا توافقه.

والأغرب من ذلك أنها قد تملك عدة قرى كأنها مستعمرات تصل بينها بطرق كما تفعل الأمم المتمدنة وتصل بين مستعمراتها بالسكك الحديدية.

وهي لا تقتصر على فن واحد من العمارات، فقد تبني بيوتاً فوق الأرضية كما تحتها، من أوراق الأشجار والأغصان وقصور الخشب المتساقطة من الأشجار العتيقة وتبني مساكن وتُرى أمام الناظر كأنها آكام ما بين عشرة أقدام إلى خمسة عشر قدماً، ويكثر ذلك تحت شجر الصنوبر، ثم نوع ثالث من مساكنها تنحت من الأشجار العتيقة بيوتاً كما نتخذ نحن من الجبال بيوتاً[1].

---

(١) للاطلاع إلى إجمال من حياة النمل راجع إلى ما جمعه الشيخ الطنطاوي في تفسيره الجواهر، مما وصل إليه العلم حتى الآن، ومما جاء فيه أن النمل تفعل فعل الملوك فتدبر وتسوس كما يسوس الحكام، فتراه كيف يتخذ القرى تحت الأرض ولبيوتها أورقة ودهاليز وغرفات ذوات طبقات منعطفات، وكيف تملأ بعضها حبوباً وذخائر وقوتاً للشتاء، وكيف تجعل بعضها بيوتها منخفضاً مصوباً تجري إليه المياه وبعضها يكون حولها مرتفعاً لئلا يجري إليه ماء المطر. ومن حكمة النمل أن الحبوب المخزونة عندها إذا أصيبت بماء المطر تنشرها أيام الصحو فيقطع حبة القمح نصفين ويقشر الباقلا والعدس والشعير ويقطع حب الكريزة أربع قطع كيلا تنبت، مما وصل إليه الإنسان بعد تجارب عدة!.

* ذكاء النمل:

ومن عجائب تدبير النمل أنه رأى رجل أن النمل يتكاثر على شجرة في حقوله فعمد إليها وحفر حولها وملأ الحفرة ماء وظن أنه نجا منها وبات ليلاً خالي البال منشرح الصدر مطمئناً على شجرته الغالية فأصبح فرأى الورق مغطى بالنمل ونظر الحفرة فوجدها مملوءة بالماء، وبينما يتفقد السبب إذ رأى أوراقاً متراصة على سطح البركة من شاطئها إلى جذع الشجرة والنمل يمر عليها كأنها قنطرة إلى حيث تطلع على تلك الشجرة! ومن عجائب كدحه في عمله الجبار أنه قضى عالم من علماء الرومان طول حياته في التنظر في حال النمل فشاهد نملة تشتغل طول يومها فحسب ما حفرته وبنته في ذلك اليوم نسبة إلى جسمها وشغل الإنسان وجسمه فوجد أنها لو كانت رجلاً مشتغلاً هذا الشغل لكان يحفر خليجين كلّ منهما طوله اثنان وسبعون قدماً وعمقه ٥، ٤ أقدام، وأخذ هذا الطين وصنع منه آجراً وبنى به أربع حيطان على الأربعة الجوانب للخليجين كلّ حائط من قدمين إلى ثلاثة ارتفاعاً، ونحو ١٥ بوصة سمكاً وغلظاً ويدعك تلك الحيطان من الداخل فتصير ملساء وكل هذه الأعمال بلا مساعد آخر في النهار كله مع أن الأرض مملوءة بالأعشاب الصغيرة والأخشاب والأشجار وجذوعها الهائلة =

وهناك عجائب أخرى في حياة النمل قد يقتضي سردها مؤلفات عدة، ثم

= والأرض وعرة المسالك فيها آكام من الردم! سبحان الخلاق العظيم.

* قوة النمل:

وقد تبلغ قوة نملة أقوى من إنسان ٣٠٠٠ مرة وكما يروى عن المستر، د. دي بواء العالم الطبيعي أنه قال: رأيت نملة تحمل حصاة من أسفل العرامة إلى أعلاها فوزنت النملة والحصاة وزناً دقيقاً بأدق الموازين وقسمت ارتفاع العرمة فوجدت بعد الحساب أن الرجل لكي ينافس النملة في رفع الأثقال يجب أن يحمل حملاً وزنه نصف طن ويصعد به ٢٥ درجة من درجات السلالـم الاعتيادية، وقد أكد أحد عارفي طبائع النمل أنه إذا كان رجل يزن (١٥٠) رطلاً وله قوة بالنسبة إلى وزنه كقوة النمل لاستطاع أن يحمل على ظهره قاطرتين من أكبر قاطرات السكك الحديدية من غير ترنّح.

وقد روى الأستاذ رفنون أن في افريقيا نوعاً من النمل يسمى (بول دوج) يستطيع أن يمشي واثباً وكل وثبة نحو قدم، فإذا رام الإنسان أن يجاريه وجب أن يثب الوثبة الواحدة نحو ١٤٤ قدماً.

* حشم النمل:

ومن عجيب حياة النمل بقره وهو نوع من البعوض النباتي المائل إلى الخضرة وهو كثير في الجناين فالنمل يقنص هذا البعوض ويأخذه إلى عشه ويحميه ويغذيه، وهذا البعوض يفرز مادة لزجة يستطيبها النمل والعجب أنه لا يفرزها ما لـم يدغدغه النمل بخرطومه وقد حاول داروت أن يجعل بعوضة تفرز عسلها إذ دغدغها فلم تفرز شيئاً فلما أطلق عليها نملة دغدغتها فأفرزت العسل.

* النمل جراح:

وهل خطر لك أن النمل جراح حاذق، ففي البرازيل نوع من النمل القاطع للورق يحسن الجراحة كأمهر جراح فمتى جاءت إليه نملة تقاسي من جرح خطراً يستدعي بعض الجنود الاختصاصيين ثم يضم شفتي الجرح معاً ويأمر الجندي أن يمسكهما معاً بفكيه ويبقى هذا ممسكاً بهما إلى أن يخيطهما الجراح على طول الجرح بواسطة خيوط يفرزها من نفسه!.

* جبانة النمل:

ومن أغرب الأمور للنمل أنه يدفن موتاه في مقبرة خاصة وذلك أن بعض النملات ترفع الجثة بواسطة خراطيمها وتتبعها النملات الأخرى في موكب جليل وتسير جميعاً خارج الوكر إلى مكان معين تدفن فيه موتاها!.

* قرى النمل:

وقرية النمل تتشكل من ستة عشر قسماً: ١ - باب القرية، ٢ - مدخل القرية، ٣ - مكان الحرس لمنع دخول الغريب، ٤ - أوّل طبقة لراحة العمال في الصيف، ٥ - الطبقة الثانية لراحة العمال في الصيف، ٦ - مكان تناول الغذاء، ٧ - مخزن الأقوات، ٨ - ثكنة الجنود، =

لا نصل إلى كلّ اسرارها وكما قال الله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(١).

﴿... قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

خطيبته متأمرة في شعبها تنادي من تحت إمرتها حفاظاً عليهم من التحطم، سياسة قيادية حيادية للنمل الخارج عن مساكنها للحاجة المعيشية ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ عن بكرتكم، كي ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ ثم حفاظاً على كرامة سليمان وجنوده وهي تعرفهم كما هم، تعقب على ندائه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إذ لا يرون ما تحت أقدامهم، فلا يحطمونكم عمداً وعداء، وإنما غفلة لا شعورية! وقد تعني ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جنوده دون نفسه ولكنه لا يناسب إضافة سليمان إلى جنوده في ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾. وأعجِب بنملة من النمل تبرهن نداءها الحيادية بأن ذلك الحشد العظيم من الإنس والجن والطير ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهي النملة تشعر تحطيمهم لا عن شعورهم!

أدرك سليمان قالةَ النملة وهشَّ لها وانشرح صدره بها كما يهش الكبير العادل الحنون للصغير الذي يحاول النجاة من أذاه، دون أن يضمر أذاه:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا...﴾ تبسُّمةً ضاحكة، فرحةً بما عرف، وتعجباً مما تعرّفت وقالت، وكيف تبسم ضاحكاً وهو دون الضحك آتياً قبله، فلا تبسُّم حال الضحك كي تصح ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾؟ علّه لأنه تظاهر بحالة التبسم وهو ضاحك، حفاظاً على سؤدد الملك، تبسماً يُخفي ظاهر

= ٩ - الغرف الملوكية حيث تبيض فيه ملكة النمل، ١٠ - إصطبل لبقر النمل مع علفه، ١١ - إصطبل آخر لحلب البقر، ١٢ - مكان لتفقؤ البيض عن الصغار، ١٣ - صغار النمل وبيضه، ١٤ - صغار النمر، ١٥ - مشتى النمل وبيمينه جبانة لدفن الموتى، ١٦ - مشتى الملكة. وقد وردت روايات في عجائب شأن النمل، يراجع فيه إلى المفصلات كالبحار وسواه.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

الضحك فيه إلى باطنه، كيلا يجلب أنظار جنوده كيف يضحك سليمان لا من شيء يضحكه؟ إذ لم يسمع قالة النمل إلّا سليمان.

لقد شعرت النملة عصمة سليمان واعتصام من في إمرته من جنود، لحد لا يحطّمون النمل قاصدين، فضلاً عن حطم الإنس، فما لأناس - بعدُ - لم يشعروا أن الأنبياء معصومون؟! وترى النملة أرادت بما قالت الحذار عن حطم النمل بحياتها المادية، أم حيويتها المعنوية إذ خافت هي على النمل - إذا رأت سليمان وجنوده في تلك الحشمة العالية - أن تتأرجف عما هي عليها فتقع في كفران نعمة الله، وكما تلمح له قالة سليمان: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ...﴾ وتحطيم الحيوية أخطر من تحطيم الحياة؟ أم هي مريدة كلا الأمرين، لا ندري..

وهنا ندرس أن تحطيم النمل وأي حيوان غير مسموح في شرعة الله اللهم إلّا دون شعور، فليشعر الإنسان في مشيه ألا يحطّم دون مبرر، جوياً أو برياً أو بحرياً، وكما ندرس كف الأذى عن كلّ حيوان، بل ونبات، حالة الإحرام وفي حرم الله، فنتمرَّن هكذا حتى نعيش غير محطّمين الضعفاء أياً كانوا وأيان حتى النبات والحيوان فضلاً عن الجن والإنسان.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿فَتَبَسَّمَ﴾ تبسم الفرحة بهذه النعمة الناعمة أن عُلِّم منطق النمل، فاستفاد منه التحذر عن تحطيمها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مما يشعرنا أن علينا أن نشعر وندرك من حولنا وتحت أقدامنا، فلا نتمشى تحطيماً غافلاً لذي روح، فضلاً عما فوقه من تحطيم في تقصُّد.

والإيزاع هو الحبس عن التفرق، حبس الأوّل إلى الآخر والآخر إلى الأوّل وهو هنا حبس طاقات سليمان عن التمزق والتفرق، جمعاً لجوارحه

وجوانحه كلها في شكر الله، وحشراً لطاقاته كلها في خدمة الله، وهكذا إيزاعِ للشكر ليس - بطبيعة الحال - إلّا بطريقة الوحي والإلهام، حيث الإنسان - أياً كان - لو خلي وطبعه، لا يستطيع أن يجنِّد كلّ طاقاته وإمكانياته في سبيل شكر نعم الله كما يحق ويليق بساحته.

فسليمان هنا يتطلب إلى ربه أن يُلهمه شكر نعمته، إضافة إلى ما تدعوه إليه فطرته وعقليته وشرعته، شكراً إلهامياً ليس فقط من مقولة الألفاظ، وليس الشكر - كذلك - قالةً تُلفظ، بل هي حكاية عن واقع الشكر بجانحة أو جارحة، فقد تعني ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ...﴾ هنا ما تعنيه ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[1]، ثم ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ كخلفيّة لذلك الإيزاع الحبسِ الإلهام، أو هو مصداق عملي للشكر بعد مصداقه الروحي، فإيزاع الشكر هنا يحلِّق على الشاكر بكل كونه وكيانه، وكأنه الشكر بعينه، بقلبه وقالبه، ولا يتيسر ذلك الشكر التام الطام إلّا بإلهام من الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2]!

﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ...﴾ وهي الوحيدة: ـ لمكان نعمتك - النعمة الرسالية، معرفية وعملية، ولحدٌّ ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ - ومنطق النمل وسائر الحيوان! وكذلك التي ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾: والدي داود حيث أوتي ما أوتي من ملك النبوة السامية، ووالدتي إذ ولدتني من والدي بكل طهارة ونزاهة، دون ما تتقوله التوراة المحرفة، إن سليمان ولد من امرأة أورياه التي اغتصبها منه داود وحاشاه[3] وهو هبة الله لداود ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

(٣) ففي صموئيل الثاني الإصحاح ١١ :«و كان وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. =

سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[(١)] - ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[(٢)] فهل إن الهبة الإلهية يولد من امرأة ذات بعل يغتصبها داود؟!.

أجل وإن سليمان هو من المشهود لهم بما نقول: وأشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها» وما هذه الفرية الوقحة التوراتية المزورة إلّا تستراً لأهلها وراءها فيما يفتعلون من دعارات وافتضاحات، وسليمان المفترى عليه يستوزع ربه شكر النعمة الغالية على والديه كما عليه، ومنها عرض براءته في هذه الإذاعة القرآنية، قضاءً صارماً على هذه التهم المزورة.

﴿أَنْ أَشْكُرَ . . . وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ دون ما لا ترضاه مهما أنا أرضاه، وإنما ﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ فسليمان الذي يستوزع شكر نعمة الله، ليس ليقف على حالة الشكر وقالته، بل و﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ جمعاً لشكر العمل إلى شكر الحالة والقالة.

= فأرسل داودل وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بشبع بنت اليعام امرأة أوريّا الحثّي. فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إني حبلى.
فأرسل داود إلى يوآب يقول أرسل إليّ أوريّا الحثّي. فأرسل يوآب أوريّا إلى داود. فأتى أوريّا إليه فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داود لأوريا انزل إلى بيتك واغسل رجليك - إلى أن يقول في احتياله على أوريّا - اجعلوا أوريّا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. . إلى قوله: فلما سمع امرأة أوريّا أنه قد مات أوريّا رجلها ندبت بعلها ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيتها وصارت له امرأة وولدت له ابن. . ».
هذا! وفي إنجيل متى ١ : ٦ - أن داود الملك ولد سليمان من أوريا!
لا فحسب بل داود نفسه أيضاً كما في المزامير ٥١ : ٥ : هأنذا بالإثم صوّرت وبالخطيئة حبلت بي أمي!

(١) سورة ص، الآية: ٣٠.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٥.

﴿... وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هنا وفي يوم الدين، فنراه يضرع إلى ربه بعد ملكه ونبوته بنعمته أن يدخله في الصالحين، وهكذا تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته، والتشوُّف والتشرُّف إلى رضاه ورحمته في الآونة التي تتجلى فيها نعمته تعالى عليه.

والملاحظ في ذلك المسرح من دعاء سليمان والتجائه أنه لا تُزهيه زهوة المُلك ورعونته، خلاف كلّ من يزدهي من الملوك والزعماء بكل زهوة وزهرة، فهم يسطون كلما ازدادوا سلطة وقوة، وسليمان يزداد تطامناً في عبوديته وشكر النعمة الربانية عليه قائلاً: رب ازعني - كأنه غير موزع: أن أشكر - كأنه غير شاكر: وأن أعمل صالحاً ترضاه - كأنه تارك أو مقصر: وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين - كأنه ليس من الصالحين، حين يتخوف على نفسه مِن غَلَبِ النّعمة أن تنقلب عليه نَعمة، ملتجياً إلى ربه مستدعياً أن يثبته على الروحية الرسالية ويزداد.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾:

﴿ٱلطَّيْرَ﴾ هنا هي مختلفها من جنوده المحشورين معه في مسيرته، ولما ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ كما تفقد الإنس والجن من جنوده، فلم يجد الهدهد ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ مما يلمح أنه واحد منتخب من الهداهد، أم قائد في جيش الهداهد، وتعريفه باللّام يخصصه بالتفقد، إما لوحدة في شخصه أم شخصيته القيادية[1].

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٠٥ - أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: ذكر لنا أن سليمان أراد أن يأخذ مفازة فدعا بالهدهد وكان سيد الهداهد ليعلم مسافة الماء وقد كان أعطي من البصر بذلك شيئاً لم يعطه شيء من الطير لقد ذكر لنا أنه كان يبصر الماء في الأرض كما يبصر أحدكم الخيال من وراء الزجاجة.

والتفقد هو تعرُّف فقدان الشيء حين فُقِده لماذا فقد، ولمكان ﴿ٱلطَّيْرَ﴾ ككل لم يكن تفقده يختص بالهدهد، بل يشمل جنود الطير كلها، فلما لم ير الهدهد من بينها ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ. . .﴾ مما يدل على أن سائر الطير كانت حاضرة لديه وهو يراها - بما فيها سائر الهداهد المجندة - إلّا أن تُعنى غُيَّب آخرون من ﴿كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ - ولكنه هنا يعني الهدهد الخاص، المعين لنوبته في ذلك العرض.

وقد يلمح ذلك التفقد لمدى اليقظة والدقة والحزم من سليمان في عرض جنوده، حيث لا يتغافل عن جندي واحد من حشره الضخم الهائل من الجن والإنس والطير، الذي يوزع جمعاً لأوله إلى آخره وآخره إلى أوّله كيلا يتفرق ويتتكث.

وليدرس قواد الجنود من سليمان درسهم في هذه المراقبة التامة والتفقد الشامل، تحكيماً لعرى التجنيد، دونما تغلُّب ولا تلفُّت.

﴿فَقَالَ﴾ هنا قولة جاهرة أمام الجيوش، ليعلم الجميع ويعرفوا غائبهم، فلو أسرّه أم أجمل شأن الغائب لكان سابقة سوء لكل الجند إذ لا يُعرف المتخلف بعينه، ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ. . .﴾ ونراه هنا لا يوجه التخلف إلى ﴿ٱلْهُدْهُدَ﴾ حين يتفقده فيفقده، أخذاً بالحائطة متهماً نفسه: ﴿مَالِيَ﴾ كأنه حاضرٌ وهو لا يراه لنقص في رؤيته، أم حاجز عن مرئيه، فلما تأكد من سلامة نظره، انتقل إلى مرحلة ثانية ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ وقد تلمح «كان» للغياب عن الحضور في حشر الجنود، إنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ عن الحشر، لا إنه غاب بعد الحضور، وإلا لم يكن لـ«كان» مكان.

كما قد يلمح جمع ﴿ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أن هناك غُيَّباً غير الهدهد، أمن الجن أو الإنس أو الطير أم ومن الهداهد؟ لا ندري، إلّا أن هناك «غائبين» وعلّ تخصيصه التحذير بخصوص هذا الجندي الغائب، كان لحاجة حاضرة إليه،

وقد تكون دلالته على موضع الماء كما يروى(١) ولأن الغائب عن حشر الجنود دون إذن يؤدَّب كيلا يكرر غيابه وينتبه الآخرون فـ : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ مما يلمح ثانية أن الحاجة إليه كانت مدقعة حيوية لصالح الجنود، وقد يعني شديدُ العذاب نتفَ ريشه(٢)، وأشد منه ذبحه، أو

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٣ في بصائر الدرجات بسند متصل عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال قلت له : جعلت فداك أخبرني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورث النبيين كلهم؟ قال لي : نعم، قلت من لدن آدم إلى أن انتهى إلى نفسه؟ قال : ما بعث الله نبياً إلّا ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أعلم منه، قال قلت : إن عيسى ابن مريم كان يحيي الموتى بإذن اللّه؟ قال : صدقت - قلت : وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقدر على هذه المنازل؟ قال فقال : إن سليمان قال للهدهد حين تفقده وشك في أمره ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النّمل : ٢٠] فغضب عليه فقال : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النّمل : ٢١] وإنما غضب عليه لأنه كان يدله على الماء، فهذا وهو طير قد أعطي ما لم يعط سليمان وقد كانت الريح والنمل والجن والإنس والشياطين المردة له طائعين ولم يكن يعرف ما تحت الهواء، وإن في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر الآن إلى أن يأذن الله به مع ما يأذن الله مما كتبه للماضين جعله الله لنا في أم الكتاب إن الله يقول في كتابه : ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النّمل : ٧٥] ثم قال : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطِر : ٣٢] فنحن الذين اصطفانا الله فورثنا هذا الذي فيه كلّ شيء.

وفيه عن تفسير القمي قال الصادق عليه السلام قال آصف بن برخيا وزير سليمان لسليمان عليه السلام : أخبرني عنك يا سليمان صرت تحب الهدهد وهو أخس الطير منبتاً وأنتنه ريحاً؟ قال : إنه يبصر الماء وراء الصفا الأصمّ، فقال : وكيف يبصر الماء من وراء الصفا وإنما يوارى عنه الفخ بكف من تراب حتى يؤخذ بعنقه؟ فقال سليمان : قف بأوقاف أنه إذا جاء القدر حال دون البصر . .

وفيه عن المجمع وروى العياشي بالإسناد وقال قال أبو حنيفة لأبي عبد الله عليه السلام : كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال : لأن الهدهد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى أحدكم الدهن في القارورة فنظر أبو حنيفة إلى أصحابه وضحك قال أبو عبد الله عليه السلام : ما يضحكك؟ قال : ظفرت بك جعلت فداك، قال : وكيف ذلك؟ قال : الذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى الفخ في التراب حتى يؤخذ بعنقه؟ قال أبو عبد الله عليه السلام : يا نعمان أما علمت أنه إذا أنزل القدر أغشي البصر؟

(٢) ومن العذاب الشديد إيداعه القفص، والتفريق بينه وبين إلفه، وإلزامه صحبة الأضداد، أو خدمتهم أو خدمة الأقران.

وفي البحار ١٤ : ١١٢ عن تفسير القمي في سرد القصة وقال الصادق عليه السلام . . . لأعذبنه عذاباً شديداً : لأنتفن ريشه . .

عذابه هو ما دون ذبحه في الشدة كأن يلقى بعد نتف ريشه في الشمس بين النمل ويقرن بالأضداد.

ولكن سليمان لم يكن ملكاً جباراً يحكم دون حجة، ولمّا يسمع حجة الهدهد الغائب، ولا حُكْمَ على الغائب، فلذلك يبدِّل تهديد العذاب والذبح بـ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ فما لم يأت بسلطان مبين فالحكم كما حكم لأنه عصى..

وترى الهدهد هو من المكلفين حتى يعصي أمراً فيهدَّد بشديد العذاب؟ بصورة عامة نعم! فيما يرجع إلى حيونة الشعور بالمحبور والمحظور: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1] ولا يعني حشرهم يوم الحشر إلّا جزاءهم بما عملوا فضلاً وعدلاً.

ثم بصورة خاصة حين يأمر النبي حيواناً أو ينهاه بأمر الله، وهو يشعر مكانة النبوة ويعرف الله فهو - إذاً - مكلف في ذلك الحقل، مهما لم تشمله الشرعة الإلهية العامة للمكلفين.

فآية الأنعام في وجهة عامة، وآية النمل هذه في وجهة خاصة برهان قاطع لا مرد له أن الهدهد كسائر الجنود من الطير والجن والإنس كان من المكلفين في حقل التجنيد، مهما اختصت الشرعة الإلهية ككل بالجن والإنس وأضرابهما من ذوي العقول.

وسلطان مبين من الهدهد الذي يخلصه من شديد العذاب، هو الحجة التي تبين عذره أن ﴿كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾.

وفائدة أخرى من ذلك التهديد السماح في تأديب الحيوانات إذا عصت

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

عارفة ولحد القتل، إلّا أن تتبين حجةٌ تعذرها فيما عصت، وعدم السماح في إيذائها دون تقصير، قصوراً أم بغير قصور، فقد يعمل الحيوان خلاف رضاك وهو لا يعرف رضاك فكيف تعذبه بقصوره، إلّا تنبيهاً لكيلا يكرر فعلته شرطَ أن ينتبه.

فحين تضرب حمارك العاصي في مشيته، وقد عرّفته واجبه في مشيته، فما أنت - إذاً - بظالم، إنما أنت مؤدب تأخذ حقك ممن تنفق عليه، وأما إذا لم تنفق عليه واجب النفقة فله العصيان في واجب الخدمة، أم إذا لم تعرِّفه واجبه، فلا ضرب هنا وهناك إذ لا تخلف تقصيراً عن واجب الخدمة، وضربتك هنا وهناك ضربة ظالمة تعاقَب بها وقت المعاقبة.

فحذار حذار عن ظلم من لا يجد عليك ناصراً إلّا الله، فإنه من أظلم الظلم وأنكاه، أم كيف تظلم من سخّره الله لك، وذلك مس من كرامة الله، فلتكرم حيواناً هو تحت إمرتك، ولتنفق عليه ما يقيم أوده، ويقوى به على واجبه، ولتعفُ عنه ما وجدت إليه سبيلاً، ثم تأديبه تقصيراً عن خدمة أم تعدياً عليك.

عليك أن تراعي الحيوان كما الإنسان، بل والحيوان أحرى برعايتك إذ لا يقدر - في الأكثر - على الدفاع عن نفسه، فلا تغتنم سلطتك عليه أن تعتدي عليه.

وهكذا ندرس في مدرسة الإحرام أن ظلم الحيوان حرام أياً كان، إلّا ما تستثنيه شرعة العدل وقضية العقل.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾:

هل إنه ﴿فَمَكَثَ﴾ سليمان، فإنه ثبات مع انتظار ولم يكن إلّا لسليمان، والهدهد كان ناظراً للرجوع دون مكوث؟ أم ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد في تفتيشه عن سبإٍ وهو بانتظار الرجوع خوفاً من سليمان أن يؤنبه أو يعذبه؟ والمعنيان

يناسبان أدب اللفظ والمعنى، فهما - إذاً - معنيّان، تقريباً للأوّل لسابقه سليمان موضوعاً للقصة، وللثاني للاحقه: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ...﴾.

و﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ هو في زمن قريب لمكث سليمان والهدهد، وغير بعيد أن تعني مكثَ الهدهد بعد رجوعه ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ عن موقف سليمان، إذ لم يكن يخافه لغيابه وله حجته وهو عدل لا يجور، وقد يعني بُعدي الزمان والمكان، وفي الثاني يخص مكث الهدهد والأول يعنيهما، إذاً فقد يعني من ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مثَّلت المعنى وهو غير بعيد.

﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ...﴾ مفاجأة - بداية لقاء سليمان - تطغي على موضوع غيابه، وتكسر من حدة الغضب الملكي بغيابه، حيث يترفع عليه علماً بما جهل وحيطة بما لم يحط به.

وكيف تحيط الهدهد علماً بما لم يحط به سليمان وهو نبي معصوم؟ ذلك حيث العلم المحيط ككل مختص بمن يحيط بكلِّ شيء، ثم الحيطة بما لا صلة له لازمة للرسالة ليست لزامَ الرسول، فللَّه أن يعلّمه مثل الهدهد دون الرسول، وقد يروى أنه «سئل علي عليه السلام وهو على منبر الكوفة عن مسألة فقال: لا أدري، فقال السائل ليس مكانك هذا مكان من يقول: لا أدري، فقال عليه السلام: بلى والله هذا مكان من يقول: لا أدري، وأما من لا يقول ذلك فلا مكان له، يعني به الله[1].

فقد كان المسؤول عنه بين ما يختص علمه بالله، أم لا صلة له بالرسالة والإمامة.

﴿... أَحَطتُ ... وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وقد سميت سورة من القرآن بسبإٍ، حيث اختصت بهم آيات سبع منها، طياً لدورهم الحائر وكورهم البائر في دركاتهم السبع من نوازل البلاء بعد منازل الترح والخيلاء.

---

(١) تفسير روح المعاني ١٩: ١٨٨.

ونبأ سبإٍ اليقين هو خبر ذو فائدة عظيمة رسالية لسليمان لتصل دعوته إلى هؤلاء الضالين الساجدين للشمس من دون الله.

وتراه كيف يصدِّق في دعواه - وبين الشام واليمن مسيرة شهر أو أكثر - يصدِّق أنه طار في مكثه غير بعيد مسيرة شهرين في سفرته المرجّعة إلى اليمن ومنه إلى الشام؟ إنه حريٌّ به أن يحتمل صدقه كما ﴿قَالَ سَنَنظُرُ...﴾ حيث المجال مجال خوارق العادات، فما قالة النملة الحكيمة العاقلة وتفهُّم سليمان بأقل عجباً من هذه السفرة الطائلة، ولا تجنُّد الطير له والجن بأقل خارقة منها.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ هي الملوكية المطلقة العنان وكأنهم عبيدها، وقد تعني ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ المِلك والمُلك معاً، فإن عنى المُلك أتى بلفظه الخاص «امرأة ملكة» فقد عنى الأمرين وذلك أنحس استبداد واستعباد.

فالسلطة المالكة للشعب هي الاستبدادية كما تؤيدها ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾ مهما دلت ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ على لون من الشورى الملكية، إلّا أن ﴿فِيٓ أَمۡرِي﴾ هي أمر السلطة المتأرجفة بما هددها سليمان، فاضطرت إلى استفتائهم، ولا تدل ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ بعد ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا﴾ إلّا على أنها كانت تقطع أمورها برأيها على مشهدهم ومرآهم، وعلّه دون شورهم وهواهم كما هو طبيعة الحال في الملكية، وقد تعني «تشهدون» شهودهم لقطع أمرها كرئيسة للشورى، ولكنها لها أمرها فيها إلّا أن تقنع بعدم صلوحه لحقل الحكم، كما في قصتها الحاضرة إذ لم تقبل آراءَهم وخطّأهم فيما رأوا.

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هي بمناسبة ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ ليست إلّا من كلّ

الأشياء الملكية، دون ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ لداود وسليمان فإنها بمناسبة الملكية الرسالية هي من لزامات السلطة الرسالية من خوارق العادات.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ما يدل على عُظمها في سلطتها الملكية، فهو عظيم في كونه، عظيم في كيانه السلطوي على شعبها، فما العرش إلّا رمزاً للسلطة الملكية، وقد خص بالذكر بين الحزم الملكي وثراءه وسعته وجنوده المجندة ورعيته المطيعة المملوكة، لأنه يكفي إشارة نموذجية إليها كلها.

ومملكة سبإٍ واقعة جنوبيَ الجزيرة باليمن، وقد كانت في تلك الفترة تملكها امرأة:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

وتراهم حين ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إذاً فهم قاصرون في ضلالهم حيث يخلي الله بينهم وبين الشيطان ليزين سوء أعمالهم فيحسبونها حسنة، فهم - إذاً - مصدودون عن سبيل الله ولذلك لا يهتدون؟.

ولكن الشيطان لا يقدر على ذلك التزيين والصد إلّا لمن يطيعه تخلفاً عن الهدى، وتجلباً إلى الردى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] والشيطان يزيدهم ضلالاً على ضلالهم ثم الله لا يحول بينه وبينهم جزاءً وفاقاً لما ضلوا وهم مبصرون ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2] ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...﴾[3].

(١) سورة الصف، الآية: ٥.
(٢) سورة الزخرف، الآيتان: ٣٦، ٣٧.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٥.

ولقد كان الهدهد يعرف الله والشيطان والشمس والملكة وقومها، ونظر إلى جو المملكة فوجد ما وجد، وأنبأ سليمان كما وجد، مما يدل على عقلية بارعة مؤمنة للهدهد، وسليمان يسمعه دونما مهانة له ولا استصغار، على صغاره وعظم نبئه وخارقة سفره! مما ينبِّه السلطات الملكية أن الإصغاء إلى المنبىءِ أدب بارع مهما كان صغيراً وكان نبأً غريباً مُحيراً وبعيداً عن التصديق، وهو في نفس الوقت متخلف لغيابه دونما استئذان!. وهنا بعد عرض النبإ يلحِّق تلحيقاً رسالياً كأنه رسول أو مرسل من جانب الرسول:

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾:

فإن كانت الشمس تُخرج بعض الخبءِ إشراقاً عليه من ظلمة، فالله يخرج كلّ خبء في السماوات والأرض دون إبقاء، والشمس أيضاً من خبئهما حيث أخرجها من دخان السماء وأشرقها!.

ومهما نحتمل أن الآيتين هما من كلام الله دون نقل لكلام الهدهد، حيث السجدة واجبة عند سماعه أو استماعه أو قراءته، ولكنه يناسب وكونه كلام الهدهد، لأنه على أية حال كلام الله، نقلاً أم سواه، وظاهر السياق أنه من كلام الهدهد تفسيراً لثالوث الشيطنات: ﴿وَزَيَّنَ . . . فَصَدَّهُمْ . . . فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وإن كان أيضاً كلامه تعالى في ذلك المسرح أم هو الذي يفسر الثالوث بما فسّر، فالمحتملان - إذاً - معنيّان، وأعجِب بعظة الهدهد في ذلك الموقف الحرج، ما ينقلها الله في القرآن ويصدقها، سبحان الخلاق العظيم!

و﴿أَلَّا﴾ هنا مشددة «أن لا» كعطف تفسير لـ «أعمالهم» فـ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ إيجابية إذ ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وسلبه ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ. . .﴾ و«أن» هنا تفسيرية فـ «لا يسجدوا» نهي عن السجود لله بعد الأمر

بالسجود لغير الله، معاكسة المضادة لـ «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فهما خطوتان رئيسيتان من خطوات الشيطان في صده عن سبيل الله.

فكلمة التوحيد بادئة بالسلب وخاتمة بالإيجاب تأكيداً للإيجاب الذي هو خالص التوحيد.

وكلمة الإشراك بادئة بإيجاب العبادة لغير الله ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وخاتمة بالسلب ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ لا توحيداً ولا إشراكاً، توحيداً في السجود لغير الله!

و﴿ٱلْخَبْءَ﴾ مصدر بمعنى المفعول مبالغة في معناه وهو الاستتار الشديد، إذاً فهو المستور الأشد فلا تدركه الحواس الظاهرة ولا العقول الباطنة، فما تدركه الحواس بآثاره قد يخرجه الإنسان في محاولات علمية، وما تدركه العقول بآثاره قد تخرجه في محاولات عقلية، وأما ﴿ٱلْخَبْءَ﴾ المستور عن كلّ الإدراكات، البعيد عن تناول العقل والعلم، فالله هو الذي يخرجه في السماوات والأرض.

و﴿ٱلْخَبْءَ﴾ هنا يعم كلّ خبءٍ، ١ - من المادة الأولية التي كانت خبأً في علم الله، ٢ وقدرته، فأخرجها إلى الوجود، ٣ - ثم زبد الأرضين ودخان السماوات المخرجان من تفجرة المادة الأولية، ٤ - ثم كلّ منهما من أصله الثاني: دخان السماء وزبد الأرض فكانت السماوات وكانت الأرضون، ٥ - ثم أخرج خبء الماء من السماء وخبء النبات من الأرض بماءِ السماء، ٦ - ثم كلّ خلق من شيء في كلٍّ منهما وفي تبدلات كيماوية وفيزيائية، مادة إلى طاقة وطاقة إلى مادة أماهيه و﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، ٧ - ثم الخواطر المخبوءة لكلٍّ عن كلٍّ فقد يخرجها الله تعالى بعباد مخلصين ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[2]، ٨ - ثم النيات والعقائد والأقوال

(١) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٢) سورة طه، الآية: ٧.

والأعمال المخبوءَة يوم الدنيا بعد مضيها حيث يخرجها الله يوم الأخرى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ . . .﴾[1].

ولكن ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تختلف ظرفاً وسواه في هذه الثمانية، ففي الأربعة الأولى ليست السماوات والأرض ظرفاً لإخراج الخبءِ فإنهما هما الخبءُ فيهما على اختلاف مراحلهما، فالمعنى إذاً «يخرج الخبءَ الكائن في السماوات والأرض» لا أنه يخرجه فيهما.

ثم في الخامس والسادس هما ظرفان لإخراج الخبءِ حيث يخرج الله فيهما كلّ خبءٍ من خلق جديد شيئاً من شيء، فيهما، وفي السابع ظرف الإخراج خاص لعباد الله الخصوص، وفي الثامن هو الآخرة، فـ ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ الكائن في السماوات والأرض يخرجه بعد انفطارهما، في يوم الجزاء.

ومن الخبء وأخبأه وحي النبوة، فإنه غيب عمن سوى الله، يخرجه عن غيب علمه في أم الكتاب إلى غيوب القلوب الرسالية ملائكية وبشرية، مراحل تسع من الخبء الذي يختص إخراجه بالله دون سواه ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ من سر أو أخفى ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فلا خبءَ لنا ولا غيب إلّا وهو خارج عنده دون إخراج، وإنما يخرج لنا الخبء في السماوات والأرض. وذلك هو ﴿ٱللَّهُ﴾ دون سواه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كما هو، وهو لا سواه ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ السلطة الشاملة على كلّ خبءٍ بإخراجه وإدراجه في مختلف مدارج الكون، دون عرش ملكة سبإٍ وسواها من ملوك لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

هذا العرش الضئيل الذليل الرذيل الذي يؤتى به قبل ارتداد طرف من مسافة شهر، وتأتي صاحبتها إلى سليمان طائعة مستسلمة مسلمة، فأين عرش

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

من عرش، وأين صاحبة عرش من صاحب عرش، فلا تشابه بينهما إلّا في الاسم!.

هنا وبعدما تم العرض من الهدهد لسبب الغياب، وأن الله أخرج خبء سبإ لسليمان بما غاب جندي له عن حشره، هنا لا يتسرع في تصديقه لزهوة الاتساع في ملكه، ولا تكذيبه لاستصغاره وأنه ادعى حيطة له علمية أحوط من سليمان الملك النبي، وإنما يأخذ في التفتيش عن نبئه تأكداً من صدقه أو كذبه:

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿سَنَنظُرُ﴾ هنا هي نَظْرة الواقع انتظاراً، كما هي النظر في الواقع فلا تحصل إلّا نظِرَة نفس الواقع، دون نبإٍ آخر من شاهد آخر، ثم المحمّل لذلك التحقيق هو الهدهد نفسه، قطعاً لعذره، وحملاً عليه ما ادعاه من سفرته البعيدة لوقت قريب غريب، دون سائر الأمناء: عفريت من الجن أمّن عنده علم من الكتاب، فأحسِن بنظر في أمر يحمله صاحب الدعوى فيه!.

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ الذي كتبته إليها وقومها ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ بهاء السكت في كلّ القراءات دون كسر، دون أعطه إياهم، علّه كيلا يأخذوك فيذبحوك أو يأسروك، وإنما «ألقه» وطبعاً من فوقهم جواً أو كوّة، ولكي ينتبهوا من الإلقاء نفسه إنه أمرٌ خارق للعادة ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ إلى مكان بعيد عن أخذك، غير بعيد عن نظرك ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَٱنظُرْ﴾ إليهم نظر البصر والسمع ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ القول بعضهم إلى بعض، و﴿يَرْجِعُونَ﴾ كلهم إلينا، و﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ردة فعل بعضهم إلى بعض ثم إلينا، ثم خبّرنا بما ﴿يَرْجِعُونَ﴾.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾:

ذهب بكتابه المختوم غير المعلوم فألقاه إليهم، وطبعاً إليها كأصل في

خطابه كما النص ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ﴾ دون «إنا» مهما كان خطاب الكتاب إلى الكلِّ، وقد تلمح ﴿أُلۡقِيَ﴾ المجهول أنها لم تعلم من ألقاه وكيف ألقاه مهما عرفت متاه، فلو كانت عارفة لأعلنت هذه العجيبة المنقطعة النظير، عجباً على عجب الإلقاء، بعجب ﴿كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ ولتحرِّز الملأ أكثر مما حرضتهم على إفتائهم في أمرها.

﴿قَالَتۡ﴾ بعدما قرأت الكتاب، وهو طبعاً كان بلغتها لكي تفهمه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ وهم ملأ الحاشية الملكية المساعدة للسياسة في المملكة ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ﴾ إذ تلقته بإلقاء دون إيتاء، فهو تلقٍّ خلاف المتعود من لُقيا الكتاب ولكنه ﴿كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ وطبعاً من كريم، فكتاب الكريم كريم إلى أيٍّ كان، وكتاب اللئيم لئيم إلى أيٍّ كان، وليدرس الدعاة إلى الله كيف عليهم أن يكتبوا كتاباتهم الدعائية إلى أضدادهم، فضلاً عن أعضادهم، وكما نرى كتابات الرسول محمد ﷺ إلى الملوك والشيوخ وسائر الزعماء، كيف تحوي كرامات وكرامات، وقد أثرت في الأكثرية الساحقة منهم حُسناً.

لقد كانت لغة الكتاب الكريم وصيغته تحمل كلّ حزم وجزم، ابتداءً ببسم الله وانتهاءً إلى الإسلام لله، ولم يكن ليخفى صيت سليمان وصوته عن الملكة وملئها، وعلى أية حال فقد حق كرم الكتاب رغم دعوته المرة عندها، لحد تصارح ملأها رغم ملكتها البارزة أمامهم، إنه ﴿كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾.

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ مجرداً عن كلّ مواصفة وتعريفة به، إذ كان معروفاً لديها وسائر الملوك ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ فالتأكيد الأوّل يؤكد كونه من سليمان، والثاني مضمونه في عرضها لمتنه الكامل، وقد تلمح ﴿إِنَّهُۥ﴾ هنا وهناك أنهما تعليلان لبيان كرم الكتاب، فكونه من سليمان من كرمه، وافتتاحه بسم الله الرحمن الرحيم، من أكرمه، حيث المشركون كانوا يتعقدون في الله أنه رب الأرباب، فلا يتأنفون - بطبيعة الحال - عن ذكر اسمه، بل ويؤصِّلونه في

عبادتهم لأصنامهم: ﴿هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] - ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[2]! فـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ افتتاحية بارعة ترعبها، وهي أفضل آية في الوحي كله، وعلّها تختص الرسالة القرآنية، ومن قبل لسليمان ﷺ، وكونها في النمل دليل قاطع لا مرد له إنها آية من كتاب الله خلاف ما يزعمه البعض من إخواننا السنّة إذ لا يبتدئون بها في الفاتحة أم وسواها من السور.

فكيف يصح كونها آية في النمل وليست آية في سواها وليست هي إلّا هيه؟! وهنا ندرس الأدب في مفتتح كلّ كتاب مهما كان إلى المشركين، وليعلموا شرعة الكاتب وعقيدته.

ثم ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ هو كلّ محتوى الكتاب، مسنوداً إلى البسملة، فـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣١﴾ لا باسمي وبِسَمة المُلك والقوة، وإنما بسم الله، فالعلو علي كرسول علوٌّ على الله، وإتياني مسلمين إتيان في الإسلام لله، فقد فسّر متنُ الكتاب فرعاً من فروع ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فـ ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ هي ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فقد كان الكتاب «بسم الله - و - لا إله إلّا الله»!.

ثم ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ...﴾ كمتن الكتاب، قد تلمح أن سليمان كتب اسمه آخر الكتاب وكما هو قضية الحال في أدب الكتاب الحاوي اسم الله ألّا يقدم عليه اسم لسواه.

وهنا ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾ دون ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ تفسر ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أن ليس هو - فقط - الإسلام لله، بل هو بالفعل إسلام لسليمان، مهما كانت النتيجة الإسلام لله، فكما قالت: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

وقد تعني ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ كرسول، علواً على رسالة الله، إذا ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ لله، ولكنه قد يكون تكليفاً بالإسلام قبل وصول الحجة، فليأتوا مسلمين له حتى يجدوا مجالاً لإسلامهم لله.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢)﴾:

بطبيعة الحال هؤلاء كانوا ملأ الفتيا السياسية في البلاط، لا كلّ الملإ العائشين تحت إمرتها، والفتوى من الفتى: الطري من الشباب، فهي النظرية الفتية فيما يطرح من هامة المسائل التي هي محط السؤال والقيل والقال، فـ ﴿أَفْتُونِي﴾ تعني ابدوا لي بالرأي الفتي الناضج ﴿فِي أَمْرِي﴾ الإمر بأشد المآزق السياسية الملكية، حيث حار دونها لبها، فليشر عليها المشاركون معها في صالح المُلك، لا سيما وإنني لا أخبئ عنكم أمراً أقطعه في سياسة البلاد، وقد ابتليت بأمر هو المحور الأصيل فيها ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ كسراً: حتى تشهدونني كيف أقطعه، استصواباً له بمشهدكم، وقطع الأمر هو الرجوع بعد إجالة الآراء ومخض الأقوال إلى رأي واحد يصح العزم على فعله، والعمل عليه دون غيره، تشبيهاً بالإسداء والإلحام في الثوب النسيج، ثم القطع له بعد الفراغ منه، فكأنها أجالت الرأي عند ورود ما ورد عليها من دعاء سليمان لها إلى الإيمان به والاتباع له فميلت بين الاجابة والامتناع والملاينة والمخاشنة، فلما قوي في نفسها أمر الملاطفة عزمت على أمرها، وذلك هو قطع الأمر.

وحيث الكتاب الملقى إليها بمضمونه زلزل كيانها وكسر من سورتها فهي لا تضمر حرباً ضد سليمان، وإلا فلماذا المشورة، إلّا أن رجال الحاشية حسب عادتهم أبدوا قوة واستعداداً للحرب، وخضوعاً لأمرها على أية حال:

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾:

﴿نَحْنُ﴾ بكامل استعدادنا للحرب ﴿أُولُو قُوَّةٍ﴾ عِدَّةً وعُدَّة، لا فحسب بل

و﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ تقديماً لكافة قواتنا واستعداداتنا للذب عن العدو، وعلى أية حال ﴿وَالْأَمْرُ﴾ الملكي أمراً أو نهياً في كلّ مأزق ﴿إِلَيْكِ﴾ وليس إلينا، مما يؤكد أن السلطة كانت فردية استبدادية، مهما تشاورت الملكة في هذا الأمر الخاص، ولكنهم عطفوه إلى أمرها المتداول على سائر الأحوال ﴿فَانظُرِي﴾ أنت في نفسك ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ولكنها في موازنة القوة بين الجانبين مالت إلى سلاح الحيلة والملاينة، قبل سلاح المخاشنة، وبطبيعة الحال حين تنحل المشكلة بملاينة لا تصلح المخاشنة، فتمهيداً للمصالحة تُنذرهم بإفساد الملوك المتغلبين في الحروب حين تلمّح ميل رجال الحاشية إلى الحرب فزيفت هواهم وسفهت رأيهم في شوراهم، وأبانت لهم إن الصلح خير وإن أحضرت الأنفس الشح، وأن الأجدر بذوي العقول الصائبة البداية بالتي هي أحوط وأحسن فـ :

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

هذه شيمة الملوك وطبيعتهم قضيةَ زهوة المُلك والتوسع فيه، فإذا دخلوا قرية أفسدوها عن بكرتها، إباحة لذمارها وانتهاكاً لحرماتها، وتحطيماً للقوات المدافعة عنها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا﴾ الحافظين لمكتها ﴿أَذِلَّةً﴾ تذليلاً لعناصر المقاومة فيها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد عن الكرامة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ بطبيعة أحوالهم.

ومما يطفئ نائرتهم، ويسكن ثائرتهم وفائرتهم إعلان الحب وإعلام الود بذريعة «هدية».

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

ولماذا ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ ومرسلة متعدية بنفسها؟ لأن مفعولها محذوف هو المرسلون بها، ولماذا ﴿إِلَيْهِم﴾ دون «إليه»؟ علّه حفاظاً على سؤددها

وجبروتها، كأنها لا تحسب هنا حساب الشخص، أم أنها تحسبه مثلها مشاوراً ملأه في أمره كما شاورت ملأها في أمرها، أم لأن الهدية تهدِّء من ثورة الحاشية فيهدأ الملك..

هدية هي في الحق تجربة، فإن قُبلت فما أمرهم إلّا الدنيا وبالإمكان أن تعالج المشكلة بها، حيث وسائل الدنيا تجدي في حل مشاكلها، وإن لم تُقبل فهو - إذاً - أمرِ العقيدة، فلنتَّبعها إن صحَّت بحُججها، فلِمَ إذاً المحاربة المفسدة المذلّة المدمِّرة[1]؟.

إنها ترسل هديتها برسلها زعماً منها أن سليمان ملك كسائر الملوك الذين لا يريدون بالقتال إلّا فتح البلاد وغنم الأموال وأسر العباد، فعملت وفق ما زعمت وأرسلت إلى سليمان ما أرسلت.

هنا يسدل الستار على واقع تصميمها في ذلك المشهد المتضارب الآراء، وإلى مشهد الهدية الواصلة إلى سليمان:

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ الرسول بالهدية مهما كان معه غيره ﴿سُلَيْمَٰنَ قَالَ﴾: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾: تجذبونني إمداداً ﴿بِمَالٍ﴾ ضئيل قليل وكل متاع الدنيا قليل، أو تمهلونني لكي أمهلكم، أو أهملكم في دعوتي ﴿بِمَالٍ﴾ أو تؤجلونني تأخيراً عن دعوتي ﴿بِمَالٍ﴾ إمداداً ضد الدعوة الرسالية ﴿بِمَالٍ﴾؟.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٩ عن تفسير القمي في القصة: ثم قالت: إن كان نبياً من عند الله كما يدعي فلا طاقة لنا به فإن الله عزّ وجلّ لا يغلب ولكن سأبعث إليه بهدية فإن كان ملكاً يميل إلى الدنيا قبلها وعلمت أنه لا يقدر علينا فبعث حقة فيها جوهرة عظيمة وقالت للرسول قل له يثقب هذه الجوهرة بلا حديد ولا نار فأتاه الرسول بذلك فأمر سليمان ببعض جنوده من الديدان فأخذ خيطاً في فمه ثم ثقبها وأخذ الخيط من الجانب الآخر..

وهو بطبيعة الحال أقبل عليهم قبل إبراز المال بوجه طلق يرحب بقدومهم ويتهلل للقائهم كما هو دأب الداعية الربانية بالنسبة لكل وارد أو شارد، ثم استشفَّ غرضهم من وفودهم وتعرَّف رأيهم، فتقدموا بما حملوه من مال يبتغون بها رضىً وقبولاً من النبي الكريم.

و«الهدية على ثلاثة أوجه هدية مكافأة وهدية مصانعة وهدية لله عزّ وجلّ»[1].

ولو كانت الهدية هدية التحية كان يقبلها، كيف لا وقد قبل فخذ جرادة من نملة؟ ولكنها كانت هدية المصانعة والتعمية عن الدعوة، رشاءً لعيناً بديلاً عن تصميم الداعية، فاستنكر موقفهم استهزاءً بالمال، وأنها هدية مضلة في مجال التعويض عن عامة الدعوة الربانية، أتقدمون هذا الرخيص التافه البخيس وعندي خير منه ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ كرسول ملك ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ على الإطلاق، وحتى في كلّ المنال، فضلاً عن خير الحال والكمال، فما عاد شيء من عرض الأرض التافه يسرني، فكيف يرضى مثلي أن يُمدَّ بمال يصانع به دعوة ربه، ولا يلهيني عن دعوتي ملء الأرض ذهباً، ولا حيطتها ملكاً.

﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ في مقياس الملك بقسطاس الزهوات والشهوات والمعطَيات المادية، وأنا لست ممن يصانع الملكة بمالها أو جمالها، اللهم إلّا بإيمانها وكما لها ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ونحن بقضيتنا فارحون، وأين هدية مَلِكية من قضية رسالية؟.

أنتم تهشّون بهذه القيم التي لا قيمة لها عندنا؟ ولا نحسبها في حساب، إلّا ما يرضي ربنا!.

هنا ﴿ءَاتَىٰنِۦَ﴾ بيِّن لا ريب فيه لسليمان فإنه ككلٍّ عطيةٌ ربانية، فكيف تقابله «ما أتاكم» وليست السلطة الجبارة الملكية مما آتاه الله؟.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٦ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام.

الجواب ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ...﴾[1] فكل المحاولات للحصول على الملك فاشلة إلّا أن يشاء الله، ولكنها مشية المحنة والعذاب للملك الجابر: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾[2] فالملك الحق يحمل المشية التشريعية الربانية إلى التكوينية، والباطل يحمل الثانية وتخييراً دون تسيير، ألا يحجز - أحياناً - بين طالب الملك وطلبه، مهما حجزه تشريعياً.

وكيف يخاطبهم وهم رسل الملكة ﴿أَتُمِدُّونَنِ ... مِّمَّا آتَاكُم﴾ ولم يكن الإمداد إلّا من المَلِكة، ولا إيتاء المُلك إلّا لها؟.

﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ تعنيها بحاشيتها الملكية ورسلها الأعضاد، حيث الهدية كانت بهم أجمع مهما كانت هي الأصل، ثم في تعبير الجمع تصغير لشأنها، قصداً إلى دمجها في ملئها إذ لا يرى لها شأناً تليق به أن تُذكر باسمها أو رسمها وكما قالتها هي ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم...﴾ إذ دمجت سليمان في ملئه، وهكذا يُعنى من «ما آتاكم» حيث العطية الملكية تشملهم مهما كانت هي الأصل، فهم بأجمعهم يحملون أوزار المُلك بأوضاره.

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٣٧﴾:

﴿ارْجِعْ﴾ خطاباً للرسول الأصل، وكما قال من قبل ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ الرسول بالهدية ﴿إِلَيْهِمْ﴾ الملكة بملئها، وطبعاً رجوعاً بالهدية إذ لم يقبلها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾: لا طاقة لهم في قبالها ومقابلتها في عِدة أو عُدة أو قوة[3] تهديداً شديداً لهم، حيث الهدية كانت ناطقة بأنهم غير آتيه مسلمين،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥، ٥٦.

(٣) البحار ١٤: ١١٢ وقال الصادق عليه السلام... ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [النّمل: ٣٧] يقول: «لا طاقة لهم بها».

وقد تطلّب منهم في كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾. ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً﴾ بعدما كانوا أعزة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، فقد يُخرَج المحارب من بلده ذليلاً غير صاغر، بل هو مكابر تذله القوة، ولكنهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ حيث يلمسون الذل والصغار بكل كيانهم أمام جنود الله.

ولأن سليمان تلمَّح من حالة الملكة وقالتها وهويتها أنها لا تريد العداء، بل ويدفعها ذلك التهديد الحديد أن تأتيه بملئها مستسلمين، لذلك يعد لها عُدَّة لإتيانها إيّاه صاغرة مستسلمة، فحاول في إحضار عرشها قبل حضورها لتفاجأ برؤيته فتدفعها إلى إسلامها بعد استسلامها، حيث إن في هكذا مفاجأةٍ لرؤيتها عرشَها حجة بارعة ربانية[1] بعد حجة الكتاب الملقى إليها.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

وهنا ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾ بطبيعة الحال هم الملأ القيادي سياسياً وروحياً، لأنهم من أعضاد الملك الرسالي، فهم النخبة المنتخبة من كلّ الإنس والجن الذين هم في حيطته الرسالية الملكية، وليعرف بالنخبة بينهم اقترح عليهم ﴿يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ فتقدم في ذلك السباق ﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فتبين انه الشخصية الثانية بعد سليمان عليه السلام.

وتراه متى ﴿قَالَ﴾... أدون فصل عن رجوع المرسلين ولمّا يصلوا؟

وصيغته الفاصحة «وقال...» عطفاً على «ارجع» ثم و﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي﴾ تلمح لِما قبل وصولهم لا قبل شروعهم في سفرتهم، فهنا اقتراح للإتيان بعرشها عنده قبل إتيانهم إياه، وليست خارقة العادة في الإتيان بعرشها إلّا أن

(١) نور الثقلين ٤: ٨٧ عن جوامع الجامع يروى أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان فجعل عرشها في آخر سبعة أبواب ووكلت به حرساً يحفظونه فأراد سليمان أن يريها بعض ما يخصه الله به من المعجزات الشاهدة النبوية.

يكون بعد خروجها ثم وصوله قبل وصولها، وحراك العرش - بطبيعة الحال - أبطأ من حراكهم، فليصل بعدهم، فوصوله قبلهم حجة إلهية، إضافة إلى أنه لم يكن له التصرف في عرشها بعد أن يأتوه مسلمين، ثم وأراد أن يختبر عقلها ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ﴾ ولا يجوز تنكير عرشها بعد إسلامها، ولا تستفيد منه حجة إذا أتي به بعدها! كما وأراد ألّا يبقى لقلبها تعلق بما وراءها حين تأتيه مسلمة وقد كانت تحب عرشها هائمة فيه! ولكن يبقى مجال القول في ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ إنه قبل رحيلهم حالة إسلامهم، كما تؤيده قولها بعد ما رأت عرشها ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وليؤكد سليمان أحلامها أمر أن ينكِّروا عرشها اختباراً لفراستها ومدى إسلامها.

وهل عجز سليمان نفسه عن أن يأتي بعرشها قبل قيامه من مقامه أم قبل أن يرتد إليه طرفه، فتطلّب إلى ملئه ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾؟ طبعاً لا، فإنه كان إمامهم وأقوى منهم كلهم في كلِّ ما لهم ومنهم، ثم «ولم يعجز سليمان عن معرفة آصف لكنه أحب أن يعرف أمته من الإنس والجن أنه الحجة من بعده وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته كما فهم سليمان في حياة داود ليُتعرَّف إمامته ونبوته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق»[1] فقد امتاز من بين الملإ عفريت من الجن بين الجان، والذي عنده علم من الكتاب بين الإنس، وليُعلم من هو أحرى

(١) البحار ١٤: ١٢٧ روى العياشي في تفسيره بالإسناد قال التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى عليه السلام ويحيى بن أكثم فسأله عن مسائل قال: فدخلت على أخي علي بن محمد عليهما السلام بعد أن دار بيني وبينه من المواعظ حتى انتهيت إلى طاعته فقلت له جعلت فداك إن يحيى بن أكثم سألني عن مسائل أفتيه فيها فضحك فقال: فهل أفتيته؟ قلت: لا قال: ولِمَ؟ قلت: لم أعرفها قال: وما هي؟ قلت: قال أخبرني عن سليمان أكان محتاجاً إلى علم آصف بن برخيا؟ ثم ذكر المسائل الأخرى قال: اكتب يا أخي: بسم الله الرحمن الرحيم سألت عن قول الله تعالى في كتابه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠] فهو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان. .

بخلافته بين الجن وبين الإنس، فامتاز آصف بن برخيا وزير سليمان، أنه هو خليفة بين الملإ كلِّهم.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾:

يقال: عفريت من الجن هو المارد الخبيث! وكيف مارد؟ وهو أول المستجيبين لسليمان في مهمة إلقاء الحجة الرسالية! وكيف خبيث؟ وهو ﴿عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾!؟ وقضية القرآن البيان أن يرد على دعواه في قوته وأمنه لو كان خبيثاً مارداً! والمارد الخبيث من الجن يعبر عنه بالشيطان كما ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾[1].

ثم ﴿عِفْرِيتٌ﴾ لغوياً من عفره في التراب: مرّغه ودسّه فيه، إشارة إلى قوته، كما التعفير هو المس بالتراب، ومن معاني العفريت النافذ في الأمر مع دهاءٍ، وقد يكون تفسيره بالخبيث المنكر تفسيرياً لا لغوياً، دون سناد إلى أية حجة إلّا تناقله بين المفسرين!.

وكما الذي عنده علم من الكتاب كان أفضل من سواه بين الإنس، فليكن عفريت من الجن أفضل من سواه بين الجن، وعله من مرسليهم، وكيف يؤتى المارد الخبيث من الجن تلك القوة الخارقة ولا يؤتاها المؤمن التقي منهم وبينهم رسل الجن؟.

و﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ﴾ قد تعني قيامه عن شغله المرسوم في سلطته، وهو يناسب نصف النهار وإلى ساعة ودقيقة وأقل منها، إذ لم يعلم متى - هي - قالة عفريت.

---

(١) البحار ١٤ : ١١٠ عن تفسير القمي في تفصيل القصة.. فلما أخبر الله سليمان بإقبالها نحوه قال للجن والشياطين ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾. قال عفريت (من عفاريت الجن) ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ...﴾ أقول لو كان العفريت شيطاناً مارداً لما تحول عن الشيطان إلى ﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [النمل: ٣٩]. وفي الدر المنثور ٥ : ١٠٨ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله: قال عفريت من الجن، قال: عظيم كأنه جبل.

أم قيامه من مقامه تحديد زمني قدر ما يعرف من الزمان لمجرد القيام عن الجلوس؟ كلٌّ محتمل، وعلّ الثاني اضبط وأفضل، حيث الأوّل لنا غير محدَّد، فلا يناسب كتاب البيان، ولكن العبارة الصالحة عنه «قبل قيامك» لا ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾! وقد تكفي في ذلك المجال معرفة الحاضرين عنده بمدى قيامه من مقامه، ولنا إجماله، وكما في ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ إذاً فالأوّل أولى، وأبعد تقدير لذلك القيام وهو نصف نهار، يكفي خارقة للعادة في الإتيان بعرشها فيه من مسيرة شهر للسَفْر العاديين فضلاً عن عرشها، ثم القادر على أن يأتي به في ساعة أم سويعات من مسيرة شهر، قادر على الإتيان به في ثوان.

﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾:

أترى من ﴿الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ﴾ هنا؟ وما هو الكتاب؟ وما هو علمه؟ وكيف أتى بعرشها قبل أن يرتد إليه طرفه وهو بحاجة إلى سرعة هائلة ودون موانع في الطريق لا تناسب وجسم العرش بثقله؟

هل ﴿الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ﴾ هو من الجن، عفريت أقوى من الأوّل؟ وتعبيره الصالح «عفريت آخر»! ثم تَقابلُه لعفريت من الجن يحكم أنه من الإنس! وكيف يُحرم مؤمنو الإنس عما يقدر عليه عفاريت الجن، والإنس أفضل من الجن - ككل - ولا سيما في المجال الرسالي أصالة ووصاية..

أم هو سليمان نفسه مخاطباً عفريت الجن، حيث ﴿الَّذِى﴾ للإشارة إلى شخص معين معلوم ولا معلوم هنا إلّا سليمان نفسه وقد مضى دور العفريت ولا ثالث هنا معروفاً في السياق، وأن القدسية الخاصة المتميزة لسليمان تقتضي أن تكون الخارقة بيده لا سواه؟.

لكنه لا يلائم السياق الفاصح الواضح، حيث إن سليمان هو المتطلِّب لإحضار العرش عنده، فكما ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ﴾ لعفريت الجن تعني إتيانه إلى سليمان، كذلك ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ﴾ للذي عنده علم من الكتاب ليس يعني إلّا سليمان، كما «مقامك» و«رآه» و«عنده» و«قال. . .» كلها تعني سليمان المُحضَر عنده العرش! وحين يأتيه بعرشها أحدٌ من حواشيه، لم يكن هذا ليدل على أنه أقوى منه وأحرى[1] بل إنما يدل على أن الآتي به بأمره يصلح أن ينوبه حياً وميتاً! ثم «الذي» بوصفها تعرِّف مكانة الآتي به مسنوداً إلى لياقته ولباقته، ومكانة سليمان عُرِفت من ذي قبل بأكثر من ذلك!

أم هو «خضر» عليه السلام؟ قد يجوز في نفسه ولكنه لا دليل عليه يتّبع، مهما كانت لخضر مكانته العالية، ثم لا رجاحة له على من سواه في ذلك المسرح مهما كان أرجح منهم في سواه، حيث النص: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ ولم يكن خضر من ملئه وحواشيه وأعضاده الملكية.

إنه آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيه وخليفته كما في متظافر الأحاديث.

ومنها ما يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ذاك وصي أخي سليمان بن داود[2].

وأما الكتاب! فهل هو كتاب التشريع؟ وكثير هؤلاء الذين يعلمونه تماماً وفوق ﴿عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ اللامحة إلى بعض العلم، ولا يقدرون على ذلك

---

(١) قد مضى رواية العياشي عن علي بن محمد الهادي عليه السلام وفيه: وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته. .

(٢) نور الثقلين ٤: ٨٨ في روضة الواعظين للمفيد قال أبو سعيد الخدري سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله جلّ ثناؤه ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [النّمل: ٤٠] قال ذاك. .
ومثله ما عن بصائر الدرجات عن جابر عن الباقر عليه السلام وعن عمر الحلال عن أبي عبد الله عليه السلام وعن عيون الأخبار عن عمر بن واقد عن موسى بن جعفر عليه السلام، وعن الكافي عن أبي الحسن صاحب العسكر علي الهادي عليه السلام.

ولا ما دونه من خارقة ربانية! وليس الإتيان به من الواقعات الشرعية المكلف بها مُدراءُ الشرعة حتى يكفيهم علمهم بها لتحقيقها!.

أم هو كتاب التكوين - المعبر عنه في أحاديثنا بالاسم الأعظم وله ثلاثة وسبعون حرفاً، وقد أوتي الذي عنده علم من الكتاب حرفاً منه وأوتي الرسول محمد ﷺ وأهل بيته المعصومين ذلك الاسم إلّا حرفاً واحداً؟

والتكوين والتشريع هما من مختصات الربوبية علماً وقدرة، وليست الآيات الرسالية مما يعلمها أو يقدر عليها الرسل، والرسول محمد ﷺ وهو أول العابدين وأفضل العارفين لم يكن عنده هذه الآيات مخوّلة: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

فإنما الرسل مجاري لتحقق الآيات الرسالية بإذن الله على أيديهم، لتدل على اختصاصهم بالله ورسالتهم من الله، فقد خاف موسى من حية تسعى محولة عن عصا ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٢] فلو كانت آية بعلمه وقدرته لما خافها.

وفي عيسى ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾[٣] وهو القدرة الإلهية بعلم هما المصدر لآياته وسائر أفعاله الخاصة به.

وما علم آصف بن برخيا بجنب علم محمد ﷺ بالكتاب إلّا كقطرة من يم[٤] فهل هو بعدُ كان عنده علم من كتاب تكوين لم يكن عند محمد؟!

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة طه، الآية: ٦٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٠.
(٤) تفسير البرهان ٣: ٢٠٤ عن الكافي عن إبراهيم بن هاشم عن سليمان عن سدير قال: كنت أنا وأبو بصير وميسر ويحيى البزاز وداود الرقي في مجلس أبي عبد الله عليه السلام إذ خرج إلينا وهو مغضب فلما أخذ مجلسه قال: عجباً لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب ما يعلم الغيب إلّا الله=

قد يعني «الكتاب» هنا كتاب المعرفة الربانية، فكلما كانت معرفة الله أكمل فآيات الله الجارية بإذنه على أيدي العارفين به أكثر وأكمل.

فعلم الكتاب كله يختص بالله، إذ لا يعرف الله حق المعرفة إلّا هو، ثم المعرفة القمة الممكنة لمن سوى الله هي التي كانت لمحمد ﷺ وأهليه المعصومين، وهي تنقص حرفاً واحداً من كتاب المعرفة الكاملة، وهو حرف الذات القدسية، ثم الاثنان والسبعون حرفاً الباقية[1] من ذلك الكتاب تعني معرفة الله القمة لهم عليهم السلام إلّا معرفة الذات، فهم مهما حرموا من حق معرفته الخاصة به «ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادك» ولكنهم زُوِّدوا المعرفة الحقة الممكنة في حقهم، فهم يعرفون الله بكل حروف المعرفة وجوانبها إلّا حرف الذات وجانبها.

والحرف الواحد من هذا الاسم الأعظم المختص بالله، هو جانب

= لقد هممت بضرب خادمتي فلانة فذهبت عني فما عرفتها في أي البيوت هي من الدار فلما أن قام من مجلسه وصار إلى منزله دخلت أنا وأبو بصير وميسر على أبي عبد الله عليه السلام فقلنا له: جعلت فداك وسمعناك تقول في أمر خادمك ونحن نعلم أنك تعلم علماً كثيراً لا ينسب إلى علم الغيب؟ فقال: يا سدير ما تقرأ القرآن؟ قلت: قد قرأناه جعلنا الله فداك فقال هل وجدت فيما قرأت من كتاب الله ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النّمل: ٤٠] قلت: جعلت فداك قد قرأته قال فهل عرفت الرجل وعرفت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال قلت فأخبرني حتى أعلم، قال: قدر قطرة من المطر الجود في البحر الأخضر ما يكون ذلك من علم الكتاب، قلت: جعلت فداك ما أقل هذا؟ قال: يا سدير ما أكثره لمن لم ينسبه إلى العلم الذي أخبرك به يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرّعد: ٤٣] والله عندنا ثلاثاً.

(١) المصدر بصائر الدرجات محمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن محمد بن الفضيل عن ضريس الوابشي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت: جعلت فداك قول العالم: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فقال: يا جابر إن الله جعل اسمه الأعظم ثلاثة وسبعين حرفاً فكان عند العالم منها حرف فأخسفت الأرض ما بينه وبين السرير التفت القطعتان وحوّل من هذه على هذه وعندنا اسم الله الأعظم اثنان وسبعان حرفاً وحرف في علم الغيب.
أقول: وبهذا المعنى استفاضت الأحاديث عنهم عليهم السلام.

الذات وصفات الذات وحقيقة الصفات الفعلية، وسائر الحروف وهي سائر الجوانب المعرفية، مقسمة بين المخلصين من عباد الله، وكلما ازدادت هذه الحروف المعرفية، زاد الله صاحبها حملاً لشرعته، ومظهراً لآيات علمه وقدرته: «عبدي اطمعني حتى أجعلك مِثْلي أنا أقول للشيء كن فيكون، وأجعلك تقول للشيء كن فيكون» مهما اختلفت «كن» التكوينية من الرب، عنها في المربوبين، فإنها فيهم بأمر الله دون توكيل ولا تخويل، فـ ﴿إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] دون سواه، فـ ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المعرفي في الاسم الأعظم، يأتي به قبل أن يرتد إليه طرفه، فأوتي من فوق سليمان وآصفه ما فوقهما من الخوارق وكما يروى عن أئمتنا المعصومين عليهم السلام[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

(٢) ومما ورد في علمهم عليهم السلام أفضل من آصف ما في عيون الأخبار بإسناده إلى عمر بن واقد قال: إن هارون الرشيد لما ضاق صدره مما كان يظهر له من فضل موسى بن جعفر عليه السلام وما كان يبلغه عنه من قول الشيعة بإمامته واختلافهم في السير إليه بالليل والنهار خشية على نفسه وملكه ففكر في قتله بالسم - إلى أن قال -: ثم إن سيدنا موسى عليه السلام دعى بالمسيب وذلك قبل وفاته بثلاثة أيام وكان موكلاً به فقال له: يا مسيب! قال: لبيت يا مولاي، قال: إني ظاعن في هذه الليلة إلى المدينة مدينة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأعهد إلى ابني عليّ ما عهده إلي أبي وأجعله وصيي وخليفتي وأمره أمري، قال المسيب: فقلت: يا مولاي كيف تأمرني أن أفتح لك الأبواب وأقفالها والحرس معي على الأبواب؟ فقال: يا مسيب ضعف يقينك بالله عز وجل وفينا؟ قلت: لا يا سيدي قال: فمه؟ قلت: يا سيدي ادع أن يثبتني فقال: اللهم ثبته، ثم قال: إني أدعو الله عز وجل باسمه العظيم الذي دعا به آصف حتى جاء بسرير بلقيس ووضعه بين يدي سليمان عليه السلام قبل ارتداد طرفه إليه حتى يجمع بيني وبين ابني علي بالمدينة، قال المسيب فسمعته عليه السلام يدعو ففقدته عن مصلاه فلم أزل قائماً على قدمي حتى رأيته قد عاد إلى مكانه وأعاد الحديد إلى رجله فخررت له ساجداً لوجهي شكراً على ما أنعم به عليّ من معرفته...

أقول: وما أهم السرعة الهائلة الخارقة لإنسان دون تحوّل إلى طاقة فإنها الموت - من السرعة في جماد لا حياة له فلذلك يقول أبو عبد الله عليه السلام في رواية سدير عنه: يا سدير ألم تقرأ القرآن؟ قلت: بلى - قال: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ [النمل: ٤٠] قال قلت: جعلت فداك قد قرأته، قال فهل عرفت الرجل وهل=

وهذه الحروف المعرفية من الاسم الأعظم يمنحها الله لمن يشاء، فهي

= عرفت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال: قلت أخبرني به، قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم، قال قلت: جعلت فداك ما أقل هذا؟!.
وفيه في الخرائج والجرائح روي أن خارجياً اختصم مع آخر إلى علي عليه السلام فحكم بينهما بحكم الله ورسوله فقال الخارجي: لا عدلت في القضية، فقال عليه السلام: اخسأ يا عدو الله، فاستحال كلباً وطارت ثيابه في الهواء فجعل يبصبص وقد دمعت عيناه فرقّ له فدعا الله فأعاده إلى حال الإنسانية وتراجعت إليه ثيابه من الهواء، فقال: آصف وصي سليمان قص الله عنه بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ . . .﴾ [النّمل: ٤٠] أيهما أكبر على الله؟ نبيكم أم سليمان؟ فقيل: ما حاجتك إلى قتال معاوية إلى الأنصار؟ قال: إنما أدعو على هؤلاء بثبوت الحجة وكمال المحنة ولو أذن لي في الدعاء لما تأخّر.
وفي البحار ١٤: ١١٥ عن الاختصاص للمفيد بسند متصل عن أبان الأحمر، قال قال الصادق عليه السلام: يا أبان كيف تنكر الناس قول أمير المؤمنين عليه السلام لمّا قال: لو شئت لرفعت رجلي هذه فضربت بها صدر ابن أبي سفيان بالشام فنكسته عن سريره ولا ينكرون تناول آصف وصيّ سليمان، عرش بلقيس وإتيانه سليمان به قبل أن يرتد إليه طرفه؟ أليس نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الأنبياء ووصيه أفضل الأوصياء؟ أفلا جعلوه كوصي سليمان عليه السلام حكم الله بيننا وبين من جحد حقنا وأنكر فضلنا.
أقول: وفي الأثر المستفيض أن من عنده علم الكتاب هو علي عليه السلام وبنوه المعصومون وممن أخرجه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١: ٣٣٦ عن عبد الله بن عطاء ما لفظه: قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله ابن سلام فقال: أنا ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
والدشتكي الشيرازي في روضة الأحباب والسيوطي في الإتقان ١: ١٣ حيث قال: وقال سعيد بن منصور في سننه حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر قال: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٤٣] أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه السورة مكية، ومنهم الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٤٩ نقله عن المحدث الحنبلي أنه روى عن أبي حنيفة أنه قال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٤٣] هو علي عليه السلام لشهادة قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنا مدينة العلم وعلي بابها ونقل عن الثعلبي في تفسيره عن عبد الله بن سلام أنه سئل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الآية؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: إنما هو علي عليه السلام، وسليمان القندوزي في ينابيع المودة ١٠٢، وروى الثعلبي وابن المغازلي بسنديهما عن عبد الله بن عطاء قال: كنت مع محمد الباقر رضي الله عنه في المسجد فرأيت عبد الله بن سلام فقلت هذا ابن الذي عنده علم الكتاب؟ قال: إنما ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام
وروى الثعلبي وأبو نعيم بسنديهما عن زاذان عن محمد بن الحنفية قال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ =

الكتاب المعني هنا، فلا يعني الاسم الأعظم مقولة اللفظ، إذ لا اسم لفظياً له ثلاثة وسبعون حرفاً! وحتى لو كان فلا أثر لما دون كلّ حروفه وإن نقص حرفاً واحداً فضلاً عن حرف واحد منه! ثم ولا تأثير للعلم بالاسم اللفظي أياً كان، فاسم «الله» «هو» هما أعظم الأسماء الإلهية على الإطلاق، ولا تأثير لهما بمجرد العلم بهما ولقلقة اللسان فيهما فضلاً عن أسماء سواهما وهي كلها دونهما!.

وفي الحق إن الاسم وهو الدال على مسمى، هو واقعه بدلالة واقعية، والاسم اللفظ هو المعرفة الكاملة بالله وهي الاسم الأعظم معنوياً، فالذي عنده علمٌ من الكتاب منحه الله ما يأتي به العرش من مسافة شهر قبل ارتداد الطرف! وطبعاً بدعائه ربه دونما استقلال، فهل أتى به دون تغيير ولا تحوير فيه ولا في مسيره؟ وموانع الجدران والأتلال والأشجار تمنعه! وسرعة السير هكذا تحوِّله، فإن لكل عنصر قابلية خاصة لسرعةٍ مّا، لو تجاوزها لتجاوز عن كيانه إلى ما يقبلها!.

قد يقال إن ذلك كله بسيط بجنب القدرة الإلهية، ما لم يكن محالاً ذاتياً، وكما في السرعة المعراجية فوق الضوئية بملايين الأضعاف لاجتياز تلك المسافة الهائلة مرجّعاً في سويعات؟ ولكن المركبة الفضائية المعدة للسفرة المعراجية كانت تحافظ على الحياة الروحية والبدنية لصاحب المعراج دونما تحويل (راجع تفسير سورة النجم من الفرقان).

= ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٤٣] علي بن أبي طالب عليه السلام وروى عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النّمل: ٤٠] قال: ذلك أخي سليمان بن داود، وسألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٤٣] قال: ذاك أخي علي بن أبي طالب عليه السلام وروي في المناقب عن أحمد بن محمد عن موسى بن جعفر عليه السلام وعن زيد بن علي عليه السلام ومحمد بن الحنفية وعن سلمان الفارسي وعن أبي سعيد الخدري وإسماعيل السدي أنهم قالوا في الآية: هو علي بن أبي طالب عليه السلام (ملحقات إحقاق الحق للعلم الحجة السيد شهاب الدين الحسيني المرعشي ٣: ٢٨٠ - ٢٨٢).

وعلى أية حال فلا بد لهذه السرعة الهائلة للعرش من خارقة هي مصدَّقةٌ فلسفياً وعلمياً، وقد أثبت علم الفيزيا إمكانية تحول كلٍّ من المادة والطاقة إلى الأخرى، وواقع التحويل معروف على ضوء المحاولات الجادة العلمية المتحضرة الحاضرة.

وقد اثبت العلم إمكانية تحويل المواد إلى طاقات وأمواج بالإمكان إرسالها سريعاً كإرسال الصُّورَ التلفزيونية والأصوات الراديوئية أماهيه، مهما لم يقدر العلم حتى الآن على تحقيقه.

فقد يجوز أن عملية الإتيان بالعرش في هذه السرعة الهائلة كانت بتحويلها إلى طاقة وأمواج ثم استجلابها بسرعة تناسب ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ثم رجْعها إلى ما كانت عرشاً كما هو، إذاً فهو مثلث من خوارق العادات دون محاولة علمية تجريبية، وإنما بما أراد ابن برخيا بقدرة الله، دون إرسالية للأمواج المحولة عن العرش في مكانه، بل هو استرسال من مسافة شهر بإرادة آصف مزودة بمشيئة الله!

وقد يعنيه المروي عن أئمتنا عليهم السلام «أن آصف بن برخيا قال لسليمان عليه السلام: مد عينيك حتى ينتهي طرفك، فمد عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ثم نبع عند مجلس سليمان بالشام بقدرة الله قبل أن يرد طرفه»[1]!.

فلا يعني غوره ذهابه في الأرض كما هو مثل الماء الغائر، حيث نبع ولا ينبع العرش بحاله كما لا يغور، بل يلمح غوره إلى تحوّله إلى غيره من طاقة لطيفة، فكما الماء يغور في جانب من الأرض ثم ينبع من جانب آخر، كذلك غار العرش في الجو غور الطاقات الموجية، ثم نبع عند مجلس سليمان كما كان.

---

(١) نور الثقلين ٤: ٨٧ في جامع الجوامع وروي أن آصف بن برخيا...

وقد يعنيه أيضاً انخساف الأرض وانخراقها بينه وبين العرش تأويلاً له بانخراق جو الأرض، إذ لا يكفي في تخطي هذه السرعة الهائلة - فقط - تحويل العرش إلى الأمواج، فلا بد لها من تعبيد المسيرة الجوية خرقاً وخسفاً حتى تتم الخارقة الربانية كما تمت وهذه خارقة رابعة.

والظاهر من ارتداد الطرف هو التقاء الجفنتين بعد افتراقهما، فجفن العين هو دائم الانطباق والافتتاح كعملية أوتوماتيكية دون إرادة، كما تلمح لها ﴿يَرْتَدَّ﴾ دون «يرُد» وذلك أبلغ ما يوصف به في السرعة، وقد يعنيها ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ بعد ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ ف ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ﴾ أقل من طرفه إلى أن يبلغ إلى واحد الزمان الأم[1].

فليكن غور العرش تحولاً له إلى أبسط طاقة موجية كأخفها وزناً وأسرعها قابلية للحركة لكي تجتاز مسيرة شهر في واحد من الزمان أم يزيد لأقل من ارتداد الطرف.

ومهما استطاع العلم في مستقبل أن يحوّل - حسب المحاولات والمعادلات الفيزاوية - مادة إلى طاقة موجية ولمّا، فليس بمستطاعه - وإن بلغ القمة المستطاعة لمن سوى الله - ذلك المربع البارع من خرق العادة بمجرد المشيئة ودون محاولة عملية إلّا دعاءً[2] فتلك - إذاً - هي من آيات الرسالة الربانية، وهي هنا كحجة ثانية لاهتداء الملكة إلى الله كما اهتدت فأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٨٨ بصائر الدرجات عن أبي عبد الله عليه السلام . . . ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين. .

(٢) نور الثقلين ٤ : ٩٢ عن مهج الدعوات في دعاء العلوي المصري عن علي عليه السلام : إلهي وأسألك باسمك الذي دعاك به آصف بن برخيا على عرش ملكة سبأ فكان أقل من لحظ الطرف حتى كان مصوراً بين يديه. . » وفيه (٩٠) عن الإمام علي الهادي عليه السلام كان عند آصف حرف فتكلم به فانخرقت له الأرض فيما بينه وبين سبأ. . ومثله في سائر روايات القصة أنه دعا، فلم تكن منه المشية دون دعاء، أو عملية علمية تجريبية.

كلام حول تبدل المادة طاقة وموجة:

فالذرة هي طاقة متكاثفة معقَّدة كما الطاقة هي ذرة منطلقة متحررة، ولا اختلاف بينهما إلّا بالتكاثف والانتشار، والعلم الحديث بدأ بمحاولة تبديل المادة إلى طاقة خالصة، أي نزْع الصفة المادية للعنصر بصورة نهائية، وذلك على ضوء جانب من النظرية النسبية لـ «البرت انيشتاين» إذ تُقرر أن كُتلة الجسم نسبية وليست ثابتة، فهي تزيد بزيادة السرعة، كما تؤكد التجارب التي أجراها علماء الفيزياء الذرية على الإلكترونات التي تتحرك في مجال كهربائي قوي، ودقائق (بيتا) المنطلقة من نويّات الأجسام المشعَّة(١).

ولما كانت كتلة الجسم المتحرك تزداد بازدياد حركته، وليست الحركة إلّا مظهراً من مظاهر الطاقة، فالكتلة المتزايدة في الجسم هي إذن طاقته المتزايدة.

فلم يَعُد في الكون عنصران متمايزان أحدهما المادة التي يمكن مسُّها، وتتمثل لنا في كتلة، والآخر الطاقة التي لا تُرى وليست لها كتلة، كما كان يعتقد العلماء سابقاً، بل أصبح العلم يعرف أن الكتلة ليست إلّا طاقة مركزة.

ويقول آينشتاين في معادلته إن: «الطاقة = كتلة المادة × مربع سرعة الضوء، وسرعة الضوء = ٨١٦٠٠٠ ميلاً في الثانية» كما أن الكتلة = الطاقة ÷ مربع سرعة الضوء، وبذلك ثبت أن الذرة بما فيها من بروتونات والكترونات ليست في الحقيقة إلّا طاقة متكاثفة، بالإمكان تحليلها وإرجاعها إلى حالتها الأولى.

---

(١) يقال أولى الاستحالات التي حصلت لعنصر ثابت كانت في ١٩١٩ م بواسطة راذفورد بآلية ساذجة جداً وقد فصل في كتاب الطاقة الذرية من السلسلة العلمية: ماذا أدري ص ٦١.

فهذه الطاقة هي الأصل العميم للعالم في التحليل الحديث وهي التي تظهر في أشكال مختلفة وصور متعددة: صوتية ومغناطيسية وكهربائية وكيماوية وميكانيكية أمّاهيه؟، وعلى هذا الضوء لم يعُد الازدواج بين المادة والإشعاع بين الجسمانيات والموجات، أو بين ظهور الكهرب على صورة مادةٍ أحياناً، وظُهوره على صورة كهرباء أحياناً أخرى، لم يعد ذلك غريباً، بل أصبح مفهوماً بمقدار، ما دامت كلّ هذه المظاهر صوراً لحقيقة واحدة هي الطاقة.

ولقد أثبتت التجارب علمياً صحة هذه النظريات، إذ أمكن للعلماء أن يحوّلوا المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة.

فالمادة تتحول إلى الطاقة عن طريق التوحيد بين نواة ذرة الهيدروجين ونواة ذرة ليثيوم، فتنتج عن ذلك نواتان من ذرات الهليوم، وطاقة هي في الحقيقة الفارق بين الوزن الذري لنواتين من الهليوم، والوزن الذري لنواة هيدروجين ونواة ليثيوم.

والطاقة تتحول إلى المادة عن طريق تحويل أشعة «جاما» وهي أشعة لها طاقة دون وزن، تتحول إلى دقائق مادية من الإلكترونات السالبة والإلكترونات الموجبة، التي تتحول بدورها إلى طاقة، إذا اصطدم الموجب منها بالسالب.

ومن أعظم التفجيرات للمادة الذي توصَّل إليها العلم، هو التفجير الذي يمكن للقنبلة الذرية والهيدروجنية أن تُحققه، إذ يتحول بسببها جزءٌ من المادة إلى طاقة هائلة.

وتقوم الفكرة في القنبلة الذرية على إمكانية تحطيم نواة ذرة ثقيلة بحيث تنقسم إلى نواتين أو أكثر من عناصر أخف، وقد تحقق ذلك بتحطيم النواة في بعض أقسام عنصر اليورانيوم، الذي يطلق عليه اسم اليورانيوم ٢٣٥ نتيجة لاصطدام النيوترون بها.

وتقوم الفكرة في القنبلة الهيدروجينية على ضم نُوى ذرات خفيفة إلى بعضها، لتكون بعد اتحادها نُوى ذرات أثقل منها، بحيث تكون كتلة النواة الجديدة أقل من كتلة المكونات الأصلية.

وهذا الفرق في الكتلة هو الذي يظهر في صورة طاقة، ومن أساليب ذلك دمج أربع ذرات هيدروجين بتأثير الضغط والحرارة الشديدين، وإنتاج ذرة من عنصر الهليوم، مع طاقة هي الفارق الوزني بين الذرة الناتجة والذرات المندمجة وهو كسر ضئيل جداً في حساب الوزن الذري.

رجوع إلى الآية بتكملتها:

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ استقراراً عن تلك السرعة الهائلة، واستقراراً إلى أصله عن الموجة المحول إليها، فقد تمت في ذلك الاستقراء خوارق أربع تكفي كلّ واحدة حجة بارعة.

﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ ليس من فضلي أنا ولا آصف ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ بلوى حسنة تبرز شكراناً أم كفراناً بهذه النعمة السابغة الفائقة وسواها مما أنعم به عليّ، ولقد استشعر أن النعمة كهذه الخارقة البارقة ابتلاءٌ مخيف ضخم، أمامها مسؤولية هامة خطرة، فالمنعَم بحاجة إلى يقظة ليجتازها سليماً مسلماً شاكراً، فإن زهرة الحياة وزهوة النعمة قد تدفع الإنسان إلى الكفران، بل هو طبيعة الحال إلّا لمن اعتصم بالله فعصمه الله.

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ دون ربـــه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ غني عن أن يُشكر، وغني عن ألّا يُكفر، فإنما الشكران والكفران راجعان إلى الشاكر والكافر.

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾:

﴿نَكِّرُواْ لَهَا﴾ غيروا معالمه المميزة له بحيث لا يُعرف لأوّل وهلة ﴿نَنظُرۡ

﴿أَتَهۡتَدِيٓ﴾ إلى عرشها المستأنَس لها طيلَة ملْكتها، وكان من حقها في نظرتها البدائية ألّا تعرفه لتنكُّره واستبعادها الإتيان به بهذه السرعة.

ومن خلال ذلك الهدي «تهتدي» إلى ربها حيث تجوِّز خارقة السرعة، اهتداء ذا بعدين في ذلك المضمار ﴿أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ كملئها الذين كانوا معها، إذ لم يهتدوا لا إلى معرفة العرش، ولا بمعرفته إلى معرفة الله، وهنا تعرَّف سليمان إلى ذكائها وإسلامها بذلك الاختبار والاعتبار.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

هنا ينكَّر السئوال ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ﴾ دون «أهذا» كما نكِّر عرشها، فهو بين مثلث من التنكير ثالثه بُعد المسافة وسرعة السير، وأنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال، فأين عرشها في سبإٍ وعليها أقفالها وحُرّاسها، وأين بيت المقدس بمسيرة شهر، وكيف جيء به ومن ذا الذي جاء به؟ ولكن العرش رغم كلّ ذلك التنكير هو عرشها، وهي تعرفه، فانتهت إلى جواب محتاط أريب أديب: ﴿قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ فروسية بارعة في مواجهة هذه الظاهرة المريبة العجيبة، وما قولة ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ في هذه المجالة المريبة إلّا تصديقاً لأنه هو وكما يؤيده ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ فإنه في ظاهر السياق من قولها تثبيتاً لـ ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ وإنها بُعد ليست بحاجة إلى آية للإسلام.

وقد يعني الضمير المؤنث في ﴿قَبۡلِهَا﴾ آية العرش، فقد علمنا من إلقاء الكتاب إلينا ومن مضمونها أنك على حق ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ وما قصة الهدية إلّا تأكُّدة لما علمنا أنك لست من أهل المُتَع الدنيوية، ويا للعرش آية مؤكدة لآيات سبقته، وقد كان من قبل عرشاً للسلطة المشركة، وهكذا يبدل الله آية الضلال آية الهدى.

وقد يعني ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا﴾ أن عرشها أتي به قبل ارتداد طرف وهي بعد في قصرها، حيث فقدته بأسره دون أن تفتح الأبواب أو ترى حملة

يحملونه، وصالح الآية البينة يقتضيه حتى تعزم على الرحيل إلى سليمان مسلمة عارفة بالقضية، مهما كان إسلام التسليم أم إسلام الاستسلام، ولكنها أسلمت بعدُ مع سليمان لله رب العالمين.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

الصد، بمعنى الفصل المانع، يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد وهو هنا «ها» الملكة، و﴿مَا كَانَت...﴾ فاعله - بطبيعة الحال - فالواو - إذاً - حالية، والمصدود عنه هو سبيل الله، فهي تقول هنا: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ حال أنها قبل استسلامها وإسلامها صدها ما كانت تعبد من دون الله عن عبادة الله، فإنها كانت من قوم كافرين، وقد زال ذلك الصد - منذ بلوغها كتاب سليمان إلقاءً إليها، ورجوع المرسلين بهديتها بما حملوه من تهديد - زال لحد الاستسلام، ثم هنا الإسلام «وأسلمت...»، واحتمال أن فاعل الصد هو سليمان بما فعل، أو العرش بما تحول واردٌ، مهما لا يُحتمل كلٌّ بمفرده إذ يقتضي تقدير «عن» لـ«ما» تعدية إلى ثاني المفعولين، والجمع بينهما أحلى وأحرى، فكما صدها ما كانت تعبد من دون الله، عن الله، كذلك وبالمآل صدها سليمان والعرش عما كانت تعبد من دون الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ إذاً فـ ﴿مَا كَانَت﴾ فاعل ومفعول، ويصح الثاني ضمن الأوّل حذفاً للجار فيه ودون حذف في فاعله.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿ٱلصَّرْحَ﴾ هو القصر العالي، ثم ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ و ﴿مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ ترفعانه على أرضية قاروية فوق الماء، لذلك حسبته في تلك المفاجأة البديعة لجةَ الماء، و﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ دليل على عمق طفيف للماء خفيف، لا يُخاف منه الغرق.

فقد ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ كيلا تبتلّ، وبعد خوض المفاجأة كشف لها سليمان عن سرّ الصرح ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ وهو المملّس منها، لا فقط تملّساً أرضياً إذ ليس إلّا أرضه، والنص «صرح» فليكن كله مملساً من قوارير، ومنه أرضه القائمة قواريرها على الماء، لحد يحسبه غير العارف بحاله أنه لجة.

وهنا تقف الملكة مفجوءَة مندهشة أمام هذه العظمة المنقطعة النظير للملك النبيِّ[1] فترجع عقليتها متصاغرة أمام العظمة الرسالية، معترفة أنها كانت ظالمة نفسها فـ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ في سابق حالي لحد الآن ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دون أرباب مختِلفة مختَلقةٍ سواه، والتعويض عن «رب» بـ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ للإفصاح الصريح عن رفضها لسائر الأرباب شمساً وسواها.

ومعية الإسلام هنا تصريحة أخرى بخالص الإسلام، فليس إسلامي لسليمان لأنه وسيط، وإنما ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ تذرعاً برسالته الربانية ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك بعد إسلامها له بمعنى التسليم والاستسلام قبل بلوغ الحجة واتضاح المحجة.

أجل وإن رسل الله لا يدعون إلى أنفسهم، وإنما إلى الله، فكل من أسلم لله كان معهم كإخوة في الله، فأين سليمان النبي بأعلى درجات التوحيد، وملكة سبإ بأسفل دركات الشرك، بون بعيد لا صلة فيه بينهما، ولكنما الإسلام لله يرفعها إلى درجة الأخوة مع سليمان ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾!

---

(١) ومن طريف ما يروى في ذلك المضمار ما في الدر المنثور ٥: ١١٢ - أخرج أبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال لما قدمت ملكة سبأ على سليمان رأت حطباً جزلاً فقالت لغلام سليمان: هل يعرف مولاك كم وزن هذا الدخان؟ فقال: أنا أعلم فكيف مولاي؟ قالت: فكم وزنه؟ فقال الغلام: يوزن الحطب ثم يحرق ثم يوزن الرماد فما نقص منه فهو دخانه!.

وتراه تزوج بها؟ قد يلمح له ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ﴾ فما أمرها بدخول الصرح وهو يعلم أنها تكشف عن ساقيها، إلّا قاصداً زواجها فلينظر إلى ساقيها كما نظر إليها، ولو كان القصد مجرد إظهار العزة لكان يكفي البيان قبل كشفها، وطبيعة الحال في هذه الحالة العجيبة من تحوّلها إلى الإسلام، أن يتزوجها سليمان إكراماً لها لكي تملك مؤمنة بعد ما ملكت كافرة، فلا يحسب إسلامها خساراً لها حتى في مُلكها[١].



(١) الدر المنثور ٥: ١١٢ - أخرج البيهقي في الزهد عن الأوزاعي قال كسر برج من أبراج تدمر فأصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدمجة كان اعطافها طي الطوامير، عليها عمامة طولها ثمانون ذراعاً مكتوب على طرف العمامة بالذهب: بسم الله الرحمن الرحيم أنا بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود ملكت الدنيا كافرة ومؤمنة ما لم يملكه أحد قبلي ولا يملكه أحد بعدي صار مصيري إلى الموت فاقصروا يا طلاب الدنيا، وفيه أخرج ابن عساكر عن سلمة بن عبد الله بن ربعي قال: لما أسلمت بلقيس تزوجها سليمان وأمهرها بأعلبك أقول كأنها بعلبك في لبنان.

وفي نور الثقلين ٤: ٩٢ عن تفسير القمي وكان سليمان ﷺ قد أمر أن يتخذ لها بيتاً من قوارير وضعه على الماء - إلى قوله -: فتزوجها سليمان وهي بلقيس بنت الشرح الحميرية...

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

تلخيصة لهذه الدعوة الرسالية ككلٍّ - مثل سائر الدعاة إلى الله - في توحيد العبادة لله، و﴿أَخَاهُمْ﴾ مما يشدد عليهم الحجة أنه كان يعاشرهم طيلة حياته، معروفاً لديهم غير منكر، دون أن تسبق منه سابقة سوءٍ وضلالٍ، فلم يكن غريباً عنهم مجهولاً لديهم حتى يشتبه أمره، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ إثر الدعوة ﴿فَرِيقَانِ﴾ بعد وحدتهم في الضلال ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ مع بعض تصديقاً لصالح وتكذيباً، والجمع هنا اعتباراً بالجمعين في فريقين، فرقة مستكبرة كافرة،

وأخرى مستضعفة مؤمنة، ومن اختصامهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾(١).

و﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ هنا دليل أن آخرين منهم ظلوا ضالين تحت نير المستكبرين، فالمختصمون ضد الرسالة كانوا هم الأكثرية الساحقة، والاختصام هنا ذو بعدين، اختصاماً لهم مع الفرقة المؤمنة، وآخر مع صاحب الرسالة، مهما كانت فجوته متروكة لآية أخرى لا تذكر هنا أن ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٢) -:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

فالعاقل اللبيب يستعجل الحسنة دون السيئة، والمتنازل عن عقله كعادة للطائشين يستعجل الحسنة قبل السيئة، خلطاً بينهما، والنازل إلى أسفل الدركات يستعجل السيئة قبل الحسنة، فبدلاً من الإيمان ولو تجربة، يكفر ويجرب العذاب المهلك حتى لا يبقى ظرف لحسنة الإيمان، إذ لا إيمان بعد نزول العذاب، والمؤمن اللبيب يعيش حياة الاستعجال للحسنة ابتعاداً عن أية سيئة، مستغفراً ربه عما أساء لعلّه يُرحم.

فحتى لو كان الإيمان بالله ضلالاً فهو خير من عذاب الله القاضي على أصل الحياة، فيا لهم ضلالاً ما أبعده أن يستعجلوا السيئة: العذاب قبل الحسنة: الإيمان الصواب فالثواب، كفرقة أمثالهم من كفار قريش القائلة: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٧٥، ٧٦.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١] ويا للهول من هؤلاء الأوغاد الأنكاد حيث يحملون الجحيم فى أنفسهم نفسها ولمّا يدخلوها!.

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

التطيُّر هو التشاؤم، وهو من عادات المجاهيل المتَّبعين الخرافات الجارفة والأوهام الخارقة، حين يهم أحدهم بأمر يجهل صالحَه من طالحه يلجأ إلى طائر يزجره فإن مرّ سانحاً عن يمينه استبشر ماضياً فى أمره، وإن مر بارحاً عن يساره تشاءم تاركاً أمراً حيث يتوقع ضره، وما يدري الطير غيب الخير أو الشر وهو حيوان، فهذا الإنسان هو أحون من الحيوان وأضل سبيلاً.

هذا أصل التطيُّر، ثم غلب استعماله في التشاؤم، ولأن الخير والشر راجعان إلى الإنسان بعمله، وأنَّ عمله معه لا يفارقه: أن يطير عنه إلى غيره أم إلى الفناء، يسميه القرآن طائراً كما: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾﴾[٢].

فطائر الإنسان - أياً كان - من خير أو شر، هو معه كما هنا، وهو عند الله كما في آيتنا: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ حيث الأعمال راجعة طائرة إلى الله، محفوظة لدى الله حيث يستنسخها الله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[٣] إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فكيف ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ حين لا تصدر أعمالكم خيرة أو شريرة إلّا منكم فـ ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾[٤] ولا يصدر الجزاء الوفاق خيراً أو شراً إلّا من عند الله فـ ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
(٤) سورة يس، الآية: ١٩.

عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ فما منا في هذا الميدان سلب ولا إيجاب، اللهم إلّا دلالة إلى الحق المبين بإذن الله! وليس طائركم معنا على أية حال ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ بجنَّة الأوهام وظِنَّه الأحلام، فإن تعليق الخير والشر بغير العامل نفسه، إفضاءٌ لكل عامل عن استقلالية الأعمال بآثارها، وذلك أنزل دركاً وأنذل من المكائن الأتوماتيكية، فإن نتائجها ترجع إليها دون اختيار منها، وهذا الإنسان الغبيّ يحول خيره وشره بآثارهما إلى غيره وهو مختار ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾! وتراهم اطيّروا به ويمن معه بمجرد الدعوة دون أمر سواها؟ ومن مواد طيرتهم الاختلاف الناشب بينهم إثر الدعوة! وعل منها إصابة الجوع كما يروى[1].

هؤلاء المفتنون الهاربون عن الإيمان بالغيب الحق، الناسبين إليه الخرافة الحمقاء، نراهم يؤمنون بالغيب الباطل الموهوم، من تطيّر وسواه من الخرافات الجارفة، فنراهم يعلقون همامة ضخمة على العدد (١٣) بنحوسته أياً كان، فالبيت المرقم به يكتب عليه ١٢ + ١، بديلاً عن ١٣، ويعلقون على مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم، وعلى كثيرٍ من الغيب الموهوم الذي لا سند له، مستبدلين الغيب اللامعقول بالغيب المعقول، مبتهجين متبجِّهين بما عندهم من الحضارات المادية، والخرافات الروحية ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[2]!.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ امتحاناً بفتنة الله ونعمته، وامتهاناً بفتنة الشيطان ونِعمته، فاليقظة الدائبة ومتابعة السنن وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وبلاء هو الكفيل بتحقيق الخير في النهاية، لا التطير بخلق الله.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٣ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية.. «فإنهم أصابهم جوع شديد قالوا: هذا من شؤمك وشؤم من معك أصابنا هذا القحط، قال طائركم عند الله» يقول: خيركم وشركم من عند الله ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧] يقول: تبتلون بالاختبار.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

فلا صدفة عمياء فيما يحدث من خير أو شر، وإنما إصابة قاصدة هي من خلفيات الأعمال الفاسدة، فـ ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ و﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ ولا ثالث يحمل طائراً لكم أو عليكم.

﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ من المستكبرين، والمستضعفين الضالين تحت نيرهم، احزاب عدة متراصَّة واحدة في أصول الإفساد، تسعة في مختلف محاولاته وشكلياته، والرهط هو العصابة دون العشرة أم دون الأربعين، فهم العصابات المتعصبة ضد الحق، الصارمة في الإفساد الخالص حيث ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ وإنْ في مجالة أو حالة واحدة، مكرِّسين كلّ طاقاتهم وإمكانياتهم في مختلف حقول الإفساد، عقيدياً وخُلقياً أمّا هو من الإفساد في النواميس الخمسة، التي هي محطات الإصلاحات الرسالية، ومن إفساد هؤلاء التسعة أن:

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

﴿قَالُواْ﴾ في تشاور بينهم على عديد رهطهم، حيث الكفر ملة واحدة مهما اختلفت حقوله وعقوله ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾: تشاركوا في القسم بالله، أمراً هو حصيلة الشورى اللعينة بينهم، وتكفي ﴿قَالُواْ﴾ أن تكون ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ أمراً، وكيف التقاسم التشارك بالله وهم مشركون بالله؟ لأنهم يؤمنون بالله كرب الأرباب مهما أشركوا به سواه، فما التقاسم بالله عندهم بأدنى من التقاسم بأرباب سواه، بل وهو أحرى وأقوى!

وعجباً من هؤلاء الحماقى الأنكاد يتقاسمون بالله ليبيتوا داعي الله، ويكأن الدعوة إلى عبادة الله وحده هتك لساحة الله حتى يُقسم بالله في قتل

الداعية بأهله! وهكذا كان يخيَّل إلى جماعة من المشركين أن عبادة الله هتك له فليُعبد سواه ليقربهم إلى الله زلفى!

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ وهو قصد العدو ليلاً لقتله ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ هم زوجته وولده وكل من هو تحت عيلولته، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بعد تبييته ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ وهو بطبيعة الحال من غير أهله، أو غير الآهلين معه في بيته، وهو ولي دمه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ دون مهلكه وأهله، ألأن غير الشاهد لمهلك أهله بأحرى ألّا يشهد مهلكه نفسه؟ ولا أولوية في هذا البين، وقد يكون عكس الأمر أولى أننا ما شهدنا مهلكه، فبأولى مهلك أهله، فإنهم معه بطبيعة الحال ليلاً! والنص ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾!.

ضمير المفرد الغائب في «أهله» الثاني راجع إلى وليه فإنه أقرب مرجعاً وأصح معنى، فصالح وأهله هم أهل لوليه، ف ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي القتلى الذين هم أهله، وله المطالبة بدمائهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في ﴿مَا شَهِدْنَا﴾.

ثم ﴿مَهْلِكَ﴾ قد تعني هنا مثلث المعاني، مصدراً وزماناً ومكاناً للهلاك، اجتثاثاً لكل بنود الاتهام، فلا خبر لنا إطلاقاً عن زمان الهلاك ولا مكانه ولا أصله.

احتيال ساذج غير ناضح يُطمئِنهم فيما اعتزموه، تخلصاً عن صالح ووليه و﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾:

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا مكرهم ولا مكرنا، شعوراً بضآلة مكرهم، وشعوراً بعاقبته في مكرنا، وأين مكر من مكر؟ مكرٌ جاهل قاحل، ومكرٌ عالم كافل، مكرٌ عن عجز تبييت، ومكر عن قدرة في تبييت.

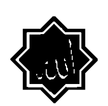
﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١)﴾:

حيث العاقبة الموافقة للمكر مكرٌ مثله إلّا في دناءته وضؤولته، فقد فاجأهم عذاب الله: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ وهم تسعة رهط المتقاسمون الماكرون ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ المشاركين معهم في كفرهم وتكذيبهم بالرسالة ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

وكم ذا وحتى متى يخطئ المستكبرون؟ منخدعين بما يملكون من أموال وبنين ونِعمة هم كانوا فيها فاكهين، غافلين عن العينِ الرقيبة عليهم التي لا تنام، والقوة القاهرة فوق كلّ قوة، حيث تباغتهم جيئة فجيعة تدمرهم عن بكرتهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾!:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)﴾:

﴿خَاوِيَةً﴾: خالية عن كيانها كبيوت، وعن كائنين فيها كأصحاب البيوت، تدميراً لها بأسرها وأسرهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ وفروا عن الحق المرام ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التدمير ﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ثم في ذلك التدمير الخواء ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ منهم، فقد خرجوا بإيمانهم وتقواهم عن طغواهم، فخارجون - إذاً - عن قومهم الهالكين أجمعين.



﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

عرض خاطف عن لوط وقومه بدأ ختم في معارض الغابرين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا .. وَلُوطًا إِذْ قَالَ ...﴾ فصالح يدعو في مفتتح دعوته إلى عبادة الله حيث التخلف البارز فيهم كان هو الإشراك بالله، ولوط ينهى عن الفاحشة، لأنها كانت هي التخلف البارز فيهم مهما كانوا من المشركين.

فإتيان الرجال شهوة من دون النساء ظاهرة غريبة في تأريخ الشهوات الجنسية، أن يصبح كقاعدة مطردة بين قوم، بدلاً عن إتيان النساء المفطور عليه كلٌّ من القبيلين، فقد يشذ الإنسان غير الملتزم بالشرعة الإلهية في حالات استثنائية كثكنات الجيش التي ليس فيها نساء، أو السجون الطائلة، أم لأمراض نفسية أو ملابسات أخرى وقتية، فيميل الذكور لإتيان الذكور، وأما أن يشيع ذلك الشذوذ دون أية أسباب أو ملابسات رغم توفر النساء، فهذا هو الحادث الجلل في تأريخ الإنسان، البارز بأبشع صوره في قوم لوط المجرمين.

﴿... أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ العملية المنكرة المتجاوزة عن حدها، متجاوزة

عن الشهوة الفطرية المتعودة إلى المتخلفة عنها، المنحرفة المنجرفة إلى هواتها البعيدة المدى، العميقة الردى، ومتجاوزة عن التستر المتعود في عمل الجنس مهما كانت حلاً، إلى أوساط النوادي جهاراً بكل إصرار ودون أي إسرار، وهذه كلها معنية من هذه ﴿ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ لأنها المتجاوزة في العصيان المتعود حدَّه.

﴿أَتَأْتُونَ . . وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ إنها فاحشة خلاف الفطرة وخلاف الشرعة الإلهية، ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ خلفياتها البغيضة الحضيضة خُلقياً وجماعياً وإهلاكاً للنسل والعائلة ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أن أهل نوادي الفاحشة ينظرون إليكم وأنتم تفعلون ما تفعلون ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ . . .﴾[1]؟، وإتيان الفاحشة بمختلف الإبصار هكذا، وبمسرح الأبصار، مما يجعلها أفحش الفواحش النكيرة.

فهنا في اللواط المتعود هكذا بين قوم لوط جنبات عدة من الفاحشة، التجاوز عن النساء إلى الرجال، والتعود في ذلك التجاوز كقاعدة مطردة، وإبرازها في ملإ النوادي، مما يجعله فاحشة منقطعة النظير ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2] مهما لحقهم من لحقهم من انجلترا وسواها الذين سنّوا حلّها في مجالسهم النيابية!

﴿. . . بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أمن الجهل بمدى الفحشاء؟ ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تطارد جهلهم! بل هو الجهالة أنهم يأتون الفاحشة وهم مبصرون تجاهلاً عنها بنزوة الشهوة الطائشة العمياء، ومن جهالتهم الجهلاء الخواء، كخلفية لدعوة صالحة مُصلحة من لوط:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٠.

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾:

و﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ هنا هم لوط نفسه بالرساليين المؤمنين معه، لا فقط آل النسب أو السبب حيث الأقرب منهم سبباً وهي زوجته ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فلم تكن هي من آله فيما ﴿قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ. . .﴾ إذ لم تكن من ﴿أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ إذاً فهم الأناس المتطهرون، فـ ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ هنا هم أهل بيت الرسالة الذين يعيشون جوها، أنسباء كانوا وأقرباء أم بُعداء وأغرباء.

ولماذا ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾؟ لـ ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تهكماً ساخراً بالتطهر من ذلك الرجس البخيس النحيس، فهم يتطلبون جو الحرية الطليقة لهذه الفاحشة المبصرة، دونما أي رادع ولا مانع، فمجرد وجود المتطهرين - وإن لم ينهوا عن هذه العملية - إنه ينغصّ عيشتهم المتخلفة.

والتطهر تكلف في الطهارة، فقد يكون صادقاً فليكن، أو قد يكون كاذباً فـ ﴿أَخْرِجُوٓاْ. . .﴾ إذ هم كانوا يرونهم يتكلفون الطهارة عن فاحشة اللواط كاذبين، حيث أصبحت لهم أولاء طبيعة ثانية كأنها هي القاعدة في حظوة الجنس، إذاً فآل لوط هم أناس يتطهرون، لا يصلحون للمقام بيننا تكديراً لجو الشهوة الرائجة المائجة فينا.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾(١) لا آله فإنهم أخص - كما بيناه - من أهله، حيث يشمل امرأته دون آله ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾ على قدر تخلفها عن بيت الرسالة ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: الماكثين بعد مضي ما هو معهم من دعوة الحق وشقوة الباطل، دون أن يهتدوا إلى هداهم، فحقٌّ عليهم أن يقدّروا ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الماكثين في عواقب أعمالهم، ومنها هنا ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٣.

ٱلْمُنذَرِينَ﴾[1] وكما أمطروا في حياتهم الجهنمية أمطار السوء والبلاء، فقد بدلوا مياه النطف لإحياء النسل، ذريعةً لإماتة النسل وإماطة حق العائلة، وكذلك الله بدل مطر الإحياء إلى مطر الإماتة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾!.



(١) سورة الشعراء، الآية: ١٧٣.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا
بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ
ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ
أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ
ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾
أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ
يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟
بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ
بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا
كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن
قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ
عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ

عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

جولة ختامية للسورة بآيات تذكيرية في استجوابات في أغوار النعم وأطوار النقم، فللمؤمنين النعم وللكافرين النقم، مما يتطلب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أولاً وأخيراً، فإنها مفتاح كلّ أمر بعد البسملة وختامه:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على العاقبة الصالحة للصالحين والطالحة للطالحين، فكل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دون سواه، فإنه هو الموفق لهداه على أية حال، والمجازي لمن عاداه على أية حال ﴿قُلِ . . . وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وهم كلّ الدعاة الله على مدار الزمن الرسالي «سلام» عليهم من الله و«سلام» عليهم منك ومن معك من المصطفين والصالحين، و«سلام» من الله عليهم أحياءً إذ كانوا يحملون رسالات الله، و«سلام» من الله عليهم أمواتاً ليستمروا في الحياة الروحية القمة، ثم «سلام» مني عليهم إذ لا أقول لهم إلّا سلاماً وتصديقاً، و«سلام» مني إليهم فإنني مسلم معهم مقتد بهداهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾(١) فإن هداهم هداي مهما كانت درجات، وخط الهدى واحد مهما كان له مقامات، فليس اقتداء الرسول بهداهم إلّا المشي على خطهم مهما سبقهم، كما اقتداء غير الرسول به وبهم مهما كانوا أدنى منهم، فخط الرسالة الإلهية وهداها واحدة والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.

إذاً ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالله ما لم ينزل به سلطاناً، ومقابل الخير

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

هنا - وهو الخير المطلق - ليس إلّا الشر المطلق، وحتى إذا كان ﴿خَيْرٌ﴾ صيغة تفضيل فإنه تهكم، أم تنازل: أن لو كان ما يشركون فيه خير فهل إن الله أكثر خيراً أمّا يشركون؟.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

سلهم هل شارك الله سواه في ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ من المادة الأم، وخلق المادة الأم لا من شيء، ثم ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ولم يكن في الأرض ماءٌ ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾ انتقالة لطيفة حفيفة من الغياب إلى الحضور تدليلاً ضمنياً أنه هو الذي خلق ما خلق وأنزل ما أنزل وأنبت ما أنبت ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ من غابات أم بساتين صناعية فإن الإنبات ككل هو من صنيع الله و﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ بحولكم وقوتكم، وإنما لكم تهيئة الوسائل والظروف لنباتها ثم المنبت هو الله، وكما الخالق لكم ولهذه الوسائل واختيارها والتوسل بها هو الله ﴿أَءِلَٰهٌ﴾ إذا ﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يشاركه في الخلق والتدبير؟ لا ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ شركائهم بالله «كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً وخَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً» فيعدلون بالمآل عن الله إلى سواه تأليهاً له دون الله، أن يعبدونه دون الله، ويستشفعونه دون الله، تنزلاً عن توحيده إلى الإشراك به وإلى توحيد غيره، وكأن الله لا دور له في خلق ولا تدبير.

فالفطرة تصرخ، والبداهة العقلية تصرح، والكائنات تصارح أن لا إله إلّا الله في خلق ولا تدبير، فليُعبد هو لا سواه، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾!.

انظروا إلى ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حيث تبهج الفِطَر والعقول والحواس، وأن تلوين زهرة واحدة من أزهارها يعجز عنه كلّ رجال الفنون،

بل والحيطة بأسرارها في تموُّج ألوانها وتداخل خطوطها وتنظيم وريقاتها، مما تتقاصر وتتضاءل دونه العباقرة في الفيزيولوجية النباتية، فضلاً عن الحياة النامية في النباتات وهو سر الأسرار. فضلاً عن حياة الحيوان والإنسان والملائكة والجان ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ وهو العِدل التسوية بالله حين يعني العدل بالله، وهو العدول عن الله حين يعدلون عن الله فالعِدل بالله ما سواه هو ظلم وخلاف العَدل وضلال مبين في كافة الحقول ولدى كلّ العقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1] والعدول عن الله - ككل - إلى ما سواه، توحيداً له دون الله هو من أظلم الظلم، وهذا هو الملموس في المشركين بالله في أحوالهم وأعمالهم أن لا إله إلّا غير الله، إذ لا يحسبون في كلّ الحياة دوراً لله، ويكأن الله انخلع عن ربوبيته ككل، محولاً لها إلى شركائه!.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾:

«أم» ويعد خلق الأرض من ﴿جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ ولم تكن قراراً، حيث الجعل هنا مركب يتطلب مفعولين كما هما ﴿ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

ولقد بحثنا حول قرار الأرض في الغافر مشبعاً، وأنه من القرِّ: البرد والصرد، دون السكون المطلق، فالسكون المطلق في المادة عن أي حراك انعدام عن أصل الكيان، فإنما هو سكون نسبي، حيث كانت الأرض حارة ذائبة، فسريعة الحركات بكل شماس، فجعلها الله ذلولاً بعد شماس ﴿هُوَ

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٧، ٩٨.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٤.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾(١) وقراراً في برد نسبي حسب تعديلها في حرارتها وحركاتها، فقراراً مستقراً لساكنيها، ويا لقرار الأرض من أسرار بالآفات الملابسات والمرافقات، لو اختلت واحدة منها أو كلّت أو قلت لما كانت الأرض قراراً، وقد تبقى أسرار قرار الأرض مفتوحة للأجيال، كلما اتسع العلم وارتفع أدركوا طرفاً منها طريفاً لم يكونوا يدركونه من ذي قبل!.

ومن خلفيات قرار الأرض ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ فإنها قبل قرارها ما كانت تحن لماء ولا كلاء لشماس الحرارة البالغة الذروة، وفي الحق أنهار الأرض هي شرايين حياتها بمن عليها، منتشرة إلى أكنانها ومناكبها، ريّاً لأطفالها النبات والحيوان والإنسان من تلكم الثُّديِّ الدائبة الإرضاع.

كما ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ على أثر البرودة فالأمواج المائجة من موادها الثقيلة الداخلية والخارجية الممتدة في حركاتها المعدّلة الدورانية حسب قانون الفرار عن المركز، والرواسي هي في الأغلب منابع الأنهار حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان وتشق مجراها بسبب تدفُّقها من قمم الجبال العالية. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ حلواً ومالحاً «حاجزاً» وحجراً محجوراً لا يُرى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾(٢) (٣) ﴿... هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾(٤).

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ في هذه الأفاعيل المحيرة العقول؟ لا! ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيتقولون قولتهم المشركة جهلاً حالقاً قاحلاً في تقليد أعمى، ثم

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.
(٢) سورة الرحمن، الآيتان: ١٩، ٢٠.
(٣) راجع تفسير الآية في ج ٢٧ من الفرقان ففيه تفضيل حاجز البحرين فلا نعيده هنا.
(٤) سورة فاطر، الآية: ١٢.

وأقلهم وهم المستكبرون يعلمون لكنهم ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾[1].

إلى هنا استجواب في مشاهد الكون المشهودة لكل كائن عاقل أمّن دونه، ثم إلى خاصة الأنفس في كلّ شارد ووارد:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

هنا ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾: الذي هو في ضُر أو أصابه ضرّ، ما يضر بحياته الراضية المرضية مادياً ومعنوياً، دنيوياً وأخروياً، فردياً وجماعياً سياسياً أو عقيدياً أو ثقافياً أو اقتصادياً أم أياً كان مما يضره من سوءٍ، والإضرار هنا أعم من التكويني والتشريعي، وما اختاره هو أم حصل له باضطرار، فإنما النص ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ وهو الذي يضطر أياً كان، ولكنه اضطرار سوء لقوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

يجد نفسه في ضر حالق خانق يلمسه، حين تضيق عليه كلّ الحلقات، وتشتد الحنقات والخنقات، وتتضاءل كلّ القوى الظاهرة وتتخاذل، وتتهاوى الأسناد والمستندات، فيجد المضطر نفسه منقطعة الصلاة عن كافة الأسباب، حين تكلّ فيكلّ هو في ضره، فيجد نفسه في هوة، دون ناصر ولا قوة إلّا الله وهناً «فالاضطرار عين الدين»[2] والاطمئنان اليقين.

﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ هو لا سواه، وبطبيعة الحال، وقضية الفطرة يدعوه لا سواه، دعوة في عمق، دون لقلق اللسان، أم تجربة الجنان، وإنما دعوة منقطعة عن سواه، متجهة إياه، وكما هو متعلق الكون بالله، يصبح متعلق

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) تفسير بيان السعادة ٣: ١٧٧ - واليه أشار الصادق عليه السلام بقوله:...

الكيان بالله، لا يهوى سواه، ولا يهوي إلى سواه، أمّن يجيبه - إذاً - إلّا الله، وليس ليتركه في دعوته الفطرية المنطلقة، المطلقة عن الحواجز، وهو الذي فطره عليها، فلسانها لسان الله حيث فطره الله، وسؤال الله نفسه - طبعاً - لا يُرد!

هم تو بودى اوّل آرندة دعا — هم توباش آخر إجابت رارجا
چون حذا از خود سؤال وكَدّ كند — پس سؤال خويش راكي رد كند
هم دعا ازتو أجابت هم زتو — ايمنى ازتو مهابت هم زتو

وهنا كتاب التكوين: الفطرة، وكتاب التشريع الآمر بالدعاء، يتعانقان في ذلك الدعاء ويتجاذبان تعاملاً عشيقاً رفيقاً. فلسان الدعاء للمضطر وسواه هو لسان الله، وطبعاً لسان الفعل دون الذات والصفات، حيث كوّن ودوّن ما يقتضي ذلك الدعاء!

فهنا الدعاء المستجاب دون ردٍّ له ركنان، حالة الاضطرار التام، وإنه ضُرّ السوء، لا الذي يخيِّل إليه ضراً وهو في الحق ليس به فـ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1] وليس الله بمجيب دِعاء من يدعوا لى نفسه تحسباً أنه يدعو خيراً أو زوال شر، وهو في الحق ليس في اضطرار شرٍّ، فمن أركان الدعوة المستجابة في آياتها أن تكون صالحة للداعي شخصياً أم جماعياً، فـ ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ دعوة حق وفي حق بصادق النية ولائق الطوية وصالح القضية، فالإجابة - إذاً - حاضرة عاجلة أم آجلة دونما استثناء.

فـ ﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ وهو الذي يضطر في حالة سوء، تستغرق كلّ مضطر دون إبقاء. فالدعوات غير المستجابة إنما تنقص من أركانها، سوءاً، أو اضطراراً، أم دعاءً خالصاً ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[(١)] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[(٢)]. ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ هنا و﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ في آية المضطر، تشملان دعاء القال والحال والأفعال، دون دعاء الذات، فكل الذوات هي متعلقة الكون والكيان بالله، شعرت أصحابها أم لم تشعر، أرادت أم لم ترد، اعتقدت أم لم تعتقد، فهي إذاً دائبة الدعاء ذاتياً و«إذا» هي دعاء أحياني باختيار.

والمهم في مثلث الدعاء هو دعاء الحال علماً واعتقاداً، ثم الدعاء بالأعمال التي تبرز أن صاحبها يدعو الله، ثم بالقال، كإذاعة عن الحال والأعمال، فالداعي بقالِه دون حاله وأعماله خاوٍ في دعائه مستهزىء، والداعي بقاله وأعماله دون حاله منافق، والداعي بحاله دون أعماله قليل الإيمان، والتارك لذلك المثلث كله لا إيمان له، والجامع بين الثلاثة هو كامل الإيمان، والتارك قاله زائداً في حاله وأعماله هو أحياناً في قمة الدعاء، ولكن الضابطة العامة في الدعاء ضم القال إلى الأفعال والأحوال ليصبح الداعي كله دعاءً دون إبقاء، والمضطر بطبيعة الحال يدعو بحاله، أم وبأفعاله وقاله، ولكنه قد لا يستجاب لأنه خاطئ في ضره، فكم من مضطر في غير سوء وهو يحسبه سوءاً، يدعو فلا يستجاب رحمةً عليه، وكم من سيّىء الحال في واقع الحال ولكنه ليس في حالة الاضطرار إذ يحسبه حسناً فلا يدعو فهل يستجاب دون دعوة؟ وكم من مضطر في أسوإ الحال ولكنه لا يدعو الله دعوة صالحة وخالصة فلا يستجاب حيث ينقص ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ وأما الداعي ربه مضطراً في سوء، دعوة صالحة خالصة، منقطعة الصلة عما سوى الله، مطمئناً إليه لا سواه، راجياً إياه، فهو المستجاب كما وعد الله: ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ - وَيَكْشِفُ

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

ٱلسُّوٓءَ - وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ إجابة عن حالة الاضطرار، وكشفاً للسوء الذي اضطره فردياً، بل وجماعياً حيث ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ قضاءً على ضر الحكم والسلطة غير الصالحة عن بكرتها، فلا تعني خلافة الأرض هنا ما قد تعنيه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾[1] وهي خلافة السكن الحيوية بعد الذين ضلوا، فإنها حاصلة للمضطر في سوءٍ أياً كان، فالدعوة لها والاستجابة فيها تحصيلة للحاصل، بل هي الخلافة عن السلطات الجبارة المكدِّرة جو الحياة السليمة الإسلامية، الحانقة الخانقة جو الاضطرار بسوئها والتقية، الدافعة إلى سنة الاستتار والخفية.

فالإمام المنتظر المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف هو من أفضل المضطرين في سوء يجيبه الله بدعائه ودعاء المنتظرين قدومه، آجلاً أم عاجلاً وكما يراه الله ويرضاه، شرط أن يكون دعاءُ المضطرين سواه، كاملةَ الدعائم، شاهرة المعالم، مزودة بالجهاد الدائِب، والصبر الصائب، اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من أعوانه وأنصاره، آمين يا مجيب دعوة المضطرين!

هنا ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ﴾ تحلِّق على كلّ خلافة أرضية صالحة، جانبية نسبية غير شاملة كما حصلت أياماً أو تحصل على ضوء الدعوات الصالحة والجهادات المتواصلة، أم شاملة محلقة على كافة السلطات الأرضية كما في دولة القائم (عج) المظفرة العالمية فهو - إذاً - خليفة الله في الأرض كلها، دون خلافة أخرى فيها إلّا لأصحاب ألويته الذين يديرون أمور السلطة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، فهؤلاء الأكارم مع صاحب الأمر هم أصدق المصاديق للمعنيين بـ ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ جمعاً بين الجعلين التكويني والتشريعي، وكما سبق في داود وسليمان فلا ﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ هنا يختص

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

بالمشركين! أم فرقة خاصة من المضطرين المسلمين!، ولا أن خلافة الأرض هي الحياة الخلفية لكل قوم عن آخرين، مهما كان الإمام المنتظر المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، بمن معه من المضطرين الصالحين، هم أصدق المضطرين الداعين، وأصلح خلفاء الأرض(١).

وهذه الخلافة المرموقة هي التي تشعر المسؤولية الهامة لحدٍّ ينتفض منها أوّل الخلفاء وأعد لهم بعد الرسول ﷺ حين يقرأ رسول الله ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ... وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ فانتفض علي عليه السلام انتفاض العصفور، فقال له النبي ﷺ: ما شأنك تجزع؟ فقال: وما لي لا أجزع والله يقول أنه يجعلنا خلفاء الأرض؟! فقال له النبي ﷺ: لا تجزع والله لا يحبك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق»(٢).

---

(١) نور الثقلين ٤: ٩٤ عن تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزلت في القائم من آل محمد عليهم السلام هو والله المضطر إذا صلى في المقام ركعتين ودعا إلى الله عزّ وجلّ فأجابه ويكشف السوء ويجعله خليفة في الأرض
وفيه حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي خالد الكابلي قال قال أبو جعفر عليه السلام: والله لكأني أنظر إلى القائم عليه السلام وقد أسند ظهره إلى الحجر ثم ينشد الله حقه - إلى أن قال -: هو والله المضطر في كتاب الله في قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ...﴾ [النمل: ٦٢] فيكون أوّل من يبايعه جبرئيل عليه السلام ثم الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلاً فمن كان ابتلي بالمسير وافى ومن لم يبتل بالمسير فقد عن فراشه وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام: هم المفقودون عن فرشهم وذلك قول الله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨] قال: الخيرات الولاية.

(٢) المصدر ٩٥ عن أمالي الطوسي بإسناده إلى عمران بن الحصين قال: كنت أنا وعمر بن الخطاب جالسين عند النبي ﷺ وعلي جالس إلى جنبه إذ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ...﴾ [النمل: ٦٢] ومثله محمد بن عباس عن عمران عنه ﷺ والمفيد في الأمالي عنه وأنس بن مالك قال لما نزلت الآيات الخمس في طس ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ الآيات انتفض علي انتفاض العصفور فقال له رسول الله ﷺ: مالك يا علي! قال: عجب يا رسول الله ﷺ من كفرهم وحلم الله عنهم فمسحه رسول الله ﷺ بيده ثم قال: أبشر فإنه لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق ولولا أنت لم يعرف حزب الله (غاية المرام ٤٠٢). =

هذا، وأما ما يروى عن رسول الهدي من واجب الطاعة لأية خلافة خيِّرة وشريرة، يطارده فرض مطاردة السلطة الجائرة ودفع الفساد أياً كان، ولا سيما الخلافة الفاسدة المفسدة التي تظلم الجو على الشعوب، فما الرواية إلّا مختلقة مصلحيّة الحفاظ على كيان الخلفاء المتخلفين عن شرعة الله، المستضعفين عباد الله(١).

وكيف يُستند إلى آية الخلافة الكاشفة السوء بدعاء المضطرين، في فرض الطاعة للخلافة الخلاعة السوء، التي هي سوء على سوء للمضطرين؟!

كلا! وإنها دعوة خير استئصالاً لضر وشرٍّ وكما يروى عنه ﷺ قوله حين يسأل يا رسول الله إلامَ ندعو؟ قال: ادعوا لي الله وحده الذي إن نزل بك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن ضللت بأرض قفر فدعوته رد

= أقول: هذه التلحيقة إنما طمأنت الإمام عليه السلام حيث ضمنت عدله في الحكم لحد «لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق» فإن الحاكم غير العادل يبغضه المؤمن ويحبه المنافق.

(١) الدر المنثور ٥: ١١٣ أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال قال رسول الله ﷺ: من فارق الجماعة فهو في النار على وجهه لأن الله تعالى يقول: ﴿... وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ﴾ [النّمل: ٦٢] فالخلافة من الله عزّ وجلّ فإن كان خيراً فهو يذهب به وإن كان شراً فهو يؤخذ به عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله تعالى به.

أقول: مفارقة الجماعة المؤيدة لخلافة الزور واجبة في شرعة الحق التي تطارد هذه الخلافة، فمن فارقها نقضاً لهذه الخلافة وتركاً لتأييدها فهو في الجنة، ومن وافقها وقارفها فهو في النار وأما أن الخلافة خيراً وشراً هي من الله، فمن الناحية التكوينية صحيح ولكنها لا توجب الطاعة وليس شرها تشريعياً من الله حتى يرضاها الله ويأمر بطاعتها، ثم وماذا يعني «فهو يذهب به إذا كان خيراً؟ فهل إن الله يذهب بالخلافة الخيرة ويأتي بديلها بالشريرة؟ ثم ماذا يعني: «وإن كان شراً يؤخذ به» فهلا يؤخذ بخير الخلافة كما الله يذهب بها، ثم يؤخذ بشر الخلافة لأن الله يأتي بها، فما أفضحها اختلاقاً في مطاردة الخلافة الحقة الإلهية، وما أقبحها افتراءً على رسول الهدى ﷺ! وإن كان قد يعني «فهو يذهب به» أن خير الخلافة لصاحبه، و«يؤخذ به» يعني أن شر الخلافة لصاحبه، فما عليكم إلّا الاتباع في كلتا الخلافتين ولكن الخلافة بشُرها وخيرها تعم الخليفة والرعية، فهم مستفيدون من خيرها ويضرهم شرّها، وهو يؤخذون - كما هو - بشرها لماذا استسلموا له دون معارضة ممكنة؟.

عليك، والذي إن أصابك سنة فدعوته أنزل لك»[١].

وهذه مصاديق متعودة فردية للضر والشر، ثم أضر منها وأقفر ما المضطرون إلى كشفه عنهم أفقر وهو السلطة الصالحة في خلافة الأرض، وقمتها العالية المنتظرة لكافة المستضعفين المؤمنين الخلافة المهدوية العالمية عليه كلّ سلام وتحية، فـ «يجعلكم» هنا ليست لتعني فقط الجعل التشريعي دون تكوين ولا التكويني دون تشريع، لأن كلًّا دون الآخر لا يكشف به السوء الجماهيري المترقب من الخلافة الصالحة، فإنما واقع الخلافة الشرعية هو الذي يكشف به ذلك السوء، وللمخاطبين في «يجعلكم» درجات حسب القابليات والفاعليات ثم و«يجعلكم» هذا هو نتيجة أدعية المضطرين بمن فيهم المستأهل لهذه الخلافة، دعوات مقرونة بمحاولات صالحة لاجتثاث الخلافة عن الطالحين واختصاصها بالصالحين بمراتبهم ودرجاتها.

فالله هو المجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وبالمآل ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ﴾ دون سواه فالله الذي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ...﴾ ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ...﴾ هو الذي يجيبكم حال اضطراركم.. ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ...﴾ ففي الخلافة الأخيرة ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾[٢] حيث الحياة جديدة جادَّة نحو الحق، وينزل عليكم من سماء الوحي والرحمة غزيرة ناصعة تروي العِطاش، وينبت حدائق بهيجة في حقول المعرفة الربانية، لكم فيها من كلّ الثمرات، ويجعل الأرض المتأرجفة بمفسديها قراراً بذلك المصلح الكبير، ويجعل خلالها أنهاراً تروّي العالمين من المعرفة برب العالمين، ويجعل فيها

---

(١) المصدر أخرج أحمد وأبو داود والطبراني عن رجل من بلجم قال قلت: يا رسول الله إلى م...

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

رواسي هي أصحاب الألوية الثلاثة عشر رجلاً من أصحابه الخصوص، أعضاء الدولة العالمية، ويجعل بين بحري المالح والعذب حاجزاً فلا خلط - إذاً - بين الحق والباطل . . . ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾!.

فما دامت السلطات الجائرة مسيطرة على الشعوب فهم مضطرون، وعليهم الدعاء الدائب بشروطاته الصالحة ليجعل اللّه لهم بالمآل خلافة الأرض صالحة مصلحة محلّقةً على العالمين أجمعين وكما وعد الله هنا و﴿ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] و﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[2].

ولعمر إلهي الحق أن المضطر بالحق زمن الغيبة هو الإمام المنتظر حيث يرى المستضعفين تحت أنيار الظلم والضغط من المستكبرين الذين لا يدينون دين الحق.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ هدي الحياة الدنيوية والروحية ﴿فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ظاهرية أو باطنية ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ روحانية برياح الوحي وسواها بسائر الرياح ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يهديكم فى أي هدي ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في حقول الهدى.

وهنا ﴿ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ تعني فيما عنت باطن البر وخضمّ البحر

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

غوراً وغوصاً فيها، و﴿يَهْدِيكُمْ﴾ تشمل كلّ الوسائل المستقبلة لخوض الأعماق في البر والبحر.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

استجوابات خمسة تتجاوب أخراها وأولاها، فهناك «أمن خلق...» وهنا ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ويبدأ الخلق قد يعم خلق المادة الأولية لا من شيء، ثم خلق دخان السماء وزبد الأرض، ثم سائر الخلق ومنه الإنسان، و﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ تخص الإعادة إلى الحالة الأولى فيما سوى الأولى لأنها لا شيء ولا إعادةَ لشيء إلى اللاشيء!

والاعادة إلى البدء عملية مكرورة على طول الخط في الجماد والنبات والحيوان والإنسان يوم الدنيا، أفيعجز المبدِئُ عن الإعادة فى الأخرى وهي أحرى قضية العدل الحساب ثم الثواب والعقاب، وليس شيء من الإعادة المعنية هنا وهناك إعادةً للمعدوم حتى تدخل في نطاق تفلسف الاستحالة، وإنما هي إعادةٌ مواد الأشياء إلى أمثال صورها السابقة البادئة، ومنها إعادة أجزاء الإنسان إلى مثل ما كان في الصورة، فالمُعاد في المَعاد ليس بإيجاد عن لا شيء ولا إعادة المعدوم، بل هو ذرات البدن الأصيلة حيث تعاد إلى مثل الصورة الأولى، وهو الروح حيث يعاد إلى نفس البدن الممثل كالأوّل فأين هنا إعادة المعدوم؟

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ في هذه الحلقات الخمس، ابطالاً لما أثبتت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في تكذيبكم، وأنّى لهم برهان، وأنى لهم أن يعلموا هذه الحقائق المعلومة لدى ذوي العقول، بل هم في جهالتهم طائشون، جهلاً عن تقصير، وهم يطالبون الغيب وأنّى يبعثون!

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ :

هذه آيات اختصاصه تعالى بعلم الغيب، بعد ما خصت به الآيات السالفة غيب القدرة، وهل الله هو ممن في السماوات والأرض حتى يستثنى عنهم بعلم الغيب؟ قد يكون الاستثناء متصلاً، والله قدرته النافذة وعلمه النافذة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دون ذاته لأنه خلقهما و«كان إذ لا كان»! كما ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ﴾[1] أي ألوهيته نافذة فيها، لا ذاته سبحانه!.

أم هو منفصل تأكيداً لاستئصال علم الغيب عما سوى الله ككل، والله هو الذي يعلم الغيب، وطبعاً هو الغيب المطلق الذي ليس لينقلب إلى شهود، لا مطلق الغيب ومنه ما يعلِّمه الله من ارتضاه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ...﴾[2].

ونموذجاً بارزاً للغيب المطلق وقت الساعة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ كلّ ما سوى الله عابدين ومعبودين ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، وذلك نفي للعلم عنهم في أدنى مراحله وأغمضها وهو الشعور، وهو من العلم الذي يستحيل لمن سوى الله وكما يقول الله عن رسول الله ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ...﴾[3].

وكما سئل علي عليه السلام: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين عليه السلام علم الغيب؟ فضحك وقال: ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم، وإنما علم الغيب علم الساعة وما عدده الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[4] -.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.
(٢) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٤) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنثى، وقبيح أو جميل، وسخي أو بخيل، وشقي أو سعيد، ومن يكون للنار حطباً، أو في الجنان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله، وما سوى ذلك - يعني به المعدود في آية الساعة - فعلم علمه الله نبيَّه ﷺ فعلمنيه ودعا لي أن يعيه صدري وتضطم عليه جوارحي[١].

فلقد منح الله الإنسان طاقات يستكشف بها الخبء في السماوات والأرض، على قدر حاجته روحياً ومادياً، وانكشاف سرّ الغيب - المخصوص علمه بالله، أو الممكن تعليمه لمن سواه - ليس مما يبغيه في مهمة الحياة، إلّا الوحي الرسالي الذي يدار به حياته في مدار الحق، إبعاداً له عن الأخطاء، وأمّا أن يتطلع إلى كلّ أسرار الغيب كما الله فمستحيل ذلك على كلّ من سوى الله حيث يصبح كأنه الله، أو يتطلع إلى أسرار ليست من هامة الحياة، مهما أمكن تطلعه عليها بتعليم الله، إذ لا دافع فيه، وكان فيه ارتفاع الابتلاء في الحياة أن يعلم كلٌّ ما في قلب الآخر، أو كان فيه تعطيل الاستعدادات عن التحرك نحو الكمال.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

إنهم مبلغهم من العلم في الأولى هو العلم الأعمى، المنحصر فيها، المنحسر عن الأخرى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ...﴾[٢]، فشكهم فيها وعماهم منها امتناع للعلم باختيار، فقد صرفوا كلّ علمهم في الأولى فلم يبق لهم علم بالأخرى ﴿بَلِ

---

(١) نور الثقلين ٤: ٩٥ عن نهج البلاغة كلام يومىء به عليه السلام إلى وصف الأتراك: كأني أراهم قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة يلبسون السرق والديباج ويعتقبون الخيل العتاق ويكون هناك استمرار قتل حتى يمشي المجروح على المقتول ويكون المفلت أقل من المأسور فقال له بعض أصحابه لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب؟ فضحك..

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

﴿ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ تداركاً لما فوّتوه على أنفسهم في الأولى، للأخرى، ولات حين مناص وقد فات يوم خلاص!

ولأن ﴿ادَّارَكَ﴾ هي من باب الإفعلّال، مبالغة في التدارك والدرك، فقد تعني كمال الدرك والتدارك بعد نقص قصوراً وتقصيراً.

وتدارك علمهم، المقصرون فيه أو القاصرون، يشمل علم الساعة حيث يُتدارك عند الساعة بواقعها، فالمؤمن بالساعة يعلمها علم الإيمان دون متاها، فيتدارك علمه بها بواقعها، ثم والعلم بواقع اعمالهم السيئة التي كانوا يرونها حسنة: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] والعلم إن الله هو الحق المبين، وسائر ما بالإمكان أن يعلموه ثم للمؤمن يضم إلى علم اليقين عين اليقين حيث يعاين حقايق الأعمال بعد إيمانه بها.

إذاً فالآخرة هي مجالة العلم، الميسور لغير الله، ما قصروا عنه أم قصّروا فيه، وأما السابقون والمقربون فلا تدارك لعلمهم إلّا مزيد المعرفة الربانية بما قدموه إلى الأخرى، وما هم فاعلون فيها، وسائر العلم فهم حاصلون عليه يوم الدنيا كما يروى عن الإمام علي عليه السلام قوله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

ثم ﴿عِلْمُهُمْ﴾ قد تعني علم كلّ مكلف على قدره حيث يتدارك تتميماً وتطميماً، إلّا العلم غير الممكن تداركه كالعلم بالله، و﴿هُمْ﴾ هنا لا تختص بالكافرين.

وترى كيف ﴿عِلْمُهُمْ﴾ وهم يجهلون المبدأ والمعاد، فليختص بالمؤمنين؟ ولكن يطارده ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

﴿عِلْمُهُمْ﴾ في الناكرين هو الفطري والعقلي والعلمي من سواهما، فقد يتجاهلونه فيجهلون، فيتدارك علمهم المغطى في الآخرة ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

مِّنْهَاۖ﴾ هنا في تغافل علمهم ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ هنا وهو أنزل من الشك، فكل ذلك الثالوث يتدارك في الآخرة.

ثم ﴿عِلْمُهُمْ﴾ في وجه أشمل يشمل كلّ علم ناقص قصوراً أو تقصيراً، ولكن ﴿بَلْ هُمْ. . .﴾ ليس إضراباً إلّا عن علم الناكرين.

ثم وليست العمى هنا هي فقد الجارحة المبصرة، بل هي فقد الجانحة البصيرة، تعامياً عن الحق المبين، والذهاب على رِسلٍ صفحاً عن النظر الموصل إلى اليقين، إما قصداً وتعمداً، أو تساهلاً وتجاهلاً، ثم ﴿ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ إذ «علموا ما جهلوا في الدنيا»[1].

وكيف ﴿مِّنْهَا عَمُونَ﴾ دون «عنها»؟ حيث القصد شكهم فيها، والامتراء في صحتها، فهم في عمىً منها، إذ لا يعني - فقط - عماهم عن النظر إليها، بل القصد ذكر عماهم بالشك فيها:

فقد عموا شاكين عن النظر فيها حتى عموا منها، وهذا إضراب ثالث عن حالتهم الرديئة وجاه الآخرة فهم على علمٍ ما تجاهلوا فيه: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ وعنه إلى شكٍّ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ﴾ ومنه إلى نكران ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ تنزلاً عن قضية العلم بها إلى نكرانها!

وقد تعني «من» السببية فإن عماهم عنها - دون الأولى - مسببةً منها، فإنها دار حساب فثواب أو عقاب، وهم يبتغون زهرة الأولى وزهوتها، والإيمان بالآخرة والإبصار إليها يصدهم عما يهوون، فهم - إذاً - ﴿مِّنْهَا﴾ فقط، لا الدنيا ﴿عَمُونَ﴾ وهكذا يصف الدنيا مطلِّقها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: «من أبصر بها بصرته ومن أبصر إليها عمته»!

---

(١) نور الثقلين ٤: ٩٦ في تفسير القمي في الآية قال قال. . .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾:

وكيف يتحول التراب إنساناً كما كان؟ وقد تحول لأوّل مرة ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1] ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾[2] بل هم أحون من الحَيَوان وأضل سبيلاً!

وهي كأنهم يحيلون تحوُّل التراب إنساناً للمرة الآخرة، وهم يرون مختلف التحولات الغامضة مدى الحياة، فمن أين كانت الخلايا التي كوِّنت منها هياكلهم الأولى، فقد كانت مفرَّقة في أطواء الأرض وأجواء الفضاء وأجواز البحر، ومنها ما انبعث من جسد رمٍّ... ثم تمثلت ما تمثلت هذه الخلايا في مختلف الطعام والشراب والهواء والشعاع، ثم تجمعت هيكلاً إنسانياً ينمو من بويضة عالقة في رحم حتى يطلع إنساناً فإذا هو خصيم مبين: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[3]!

وكيف أصبح الوعد بالبعث من أساطير الأولين وخرافاتهم المودوعة في مسطوراتهم، المتنقلة فيما بينهم خلفاً عن سلف، وهو حقيقة تصدقها الفطرة والعقل والحس، ويفرضها العدل؟!

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾:

وذلك السير المأمور به نبهةٌ للغافلين يعم السير التاريخي الجغرافي، والجغرافي التأريخي، سيراً حثيثاً مسيساً في كتاب التكوين آفاقياً وأنفسياً، أم تدوينياً، وأفضل السير فيه وأكمله دونما دجل ولا دَخَل أو دغل نجده في

(١) سورة ق، الآية: ١٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٣) سورة يس، الآية: ٧٧.

أكمل نسخة تدوينية عن نسخة التكوين وهو القرآن العظيم[١] حيث يسير بنا إلى مسرح الحياة الغابرة للأرض ومن عليها، تبصرة وذكرى للذاكرين.

وليس السير في القرآن للمشركين حملاً لهم على تقليد دون برهان حيث القرآن هو بنفسه قاطع البرهان على صدقه نفسه وإنه كلام الله، فصدق أنبائه الغيبية تصديقاً عن تحقيق، والكون بكل جنباته حسياً وعقلياً وعلمياً وفطرياً وفكرياً يجاوب نسخته التدوينية: القرآن العظيم.

﴿قُلْ سِيرُوا ... فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾: القاطعين ثمرات الحياة قبل إيناعها ونضجها، الجاعلين لطاقاتها - وجنى الثمرات غير الناضجة فيها - هباءً منثوراً، فأصبحوا خواءً بالعراء ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[٢] إلّا باغية دائرة غامرة، ضامرة هامرة.

وإذا هم لا يرحمون أنفسهم ولا يرعوون فـ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لماذا أجرموا وفنوا ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ إذ ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٣] فلا تضيق - إذاً - إلّا أنفسهم بما يمكرون.

وإذا كانت عاقبة الإجرام هنا - وليست هي دار الجزاء - هكذا، فبأحرى العاقبة الأخرى وهي دار الجزاء الأوفى، فقد تلمح عاقبة العاجل لكونها أحرى وأتم في الآجل!.

وهنا نلمس حساسية مرهفة لذلك القلب الكبير الكبير كيف كان يحزن على مسير قومه الناكرين ومصيرهم كالسابقين، وهم الماكرون به والمؤلِّبون عليه، ثم الله يُطمِئنه عن مكرهم ويخلصه عن الحزن عليهم، ليداوم في دعوته الصالحة دونما فشل ولا عَطَل.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٦ في كتاب الخصال وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الرُّوم: ٩] قال: معناه: أولم ينظروا في القرآن؟.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾:

ويكأن صدق الوعد لزامه العلم بمتاه ومداه، فهل إنّ جهلهَم بمتى الولادة والوفاة لأنفسهم يحملهم هذا على نكران الولائد من ذي قبل ووفاتهم لوقتٍ مّا؟ فكيف اختص التصديق بـ ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ دون سواه، بموقف العلم بمتاه، فلولاه فكذبٌ هو من أساطير الأوّلين!

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾:

وإذا أنتم تستعجلون ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ العذاب بكامله، فـ ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الحماقى الأنكاد ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ وقرب منكم ﴿بَعْضُ﴾ الوعد ﴿ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فهو - عساه - في آثاركم لاحقاً بكم دون إهمال ولا إمهال.

وطالما عذاب الناكر لهذا الوعد رِدفهُ وهو معه لا يفارقه فإنه عمله اللازم معه في عنقه، ولكنه لا يردف له يوم الدنيا تأجيلاً إلى الآجل في الأخرى.

وعلّ اللام في ﴿لَكُم﴾ كما تختص ذلك العذاب بهم دون سواهم من المستحقين، كذلك سخرية بهم كأنه لصالحهم وهم يتطلبون حاضر وعدهم، فـ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ لصالحكم ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ رغم أنه عليكم وليس لكم!

فـ «ردفكم» لا يخصهم في واقع العذاب الذي هو معهم، و«ردف عليكم» لا يحمل ذلك الهزء بهم، إذاً فـ ﴿رَدِفَ لَكُم...﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث لا يستعجل لهم عذابهم في الأولى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك التأجيل، عقيدياً كما الناكرون، أو عملياً كما العاصون، إيغالاً في المعاصي، وإدغالاً في المآسي!: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا

بَعِيدًأ﴾[1] فخيرات كلّ نفس وشرورها هي ردفها هنا وردف لها هناك، اللّهم إلّا ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فقد يردف لهم هنا عذاب الاستئصال كيوم بدر قتلاً لهم، وسواه صيّباً من السماءِ أو الأرض، وهو بعض الذي به يستعجلون، ثم عذابهم يوم الرجعة إذ يرجع من محضَّ الكفر محضاً كمن محضَّ الإيمان محضاً، ثم كامل العذاب يوم البرزخ، وإلى أكمله في الأخرى، و﴿عَسَى﴾ هي بأحرى للأوّل، دون الثلاثة الأخرى فإنها محتومة.

وكيف ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ. . .﴾ والله لا يرتجي شكاً وممن يترجّى؟ ﴿قُلْ﴾ هنا يحول ترجي ﴿عَسَىٰٓ﴾ إلى ساحة الرسالة، أنه يرجو رَدْفه لهم هنا بما يتطلبون ويستحقون، والعلم عند الله، فالموقف الرسالي في هذه المقالة هو موقف الرجاء، وليس الله ليترجَّى!.

ثم من واجهة أخرى قد تعني ﴿عَسَىٰٓ﴾ هنا تنازلاً أمام المشركين الناكرين الوعد وتحقيقه بحق الكافرين، حيث الرسول موقن أنهم سوف يعذبون بعد الموت، ولكنه غير موقن بعذاب قبل الموت إلّا أن يعده ربه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾:

علّهم خيل إليهم أن الله لا يعلم ما تكنه صدورهم، إظهاراً لخلاف المكنون فيها، فلا يعجل لهم العذاب ردفاً لهم لوعده قبل الآخرة، إذ لا يعلم أسرارهم، ولكنه إمهال وإملال عن علم، فضلاً لمن يتنبّه امتحاناً، وتأجيلاً لسواه امتهاناً، وأن الآخرة هي دار الجزاء ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ فضلاً عما يعلنون ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ. . .﴾.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

وليس فحسب ﴿لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أولاء، بل ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ . . . إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو العلم المكنون لدى الله.

وعلّ ﴿غَآئِبَةٍ﴾ هي المبالغة بتائها كالبصيرة والعلامة، فأغيب الغيب في الكون كله هو ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ علماً وقدرة، فضلاً عن سائر الغيب، أم هي صفة لـ «أشياء - امور - حالات - طويات» أما هيه من صالحة لهذه الصفة، وعلّ المبالغة أولى وهي تشملها بالأولى، أم لكليهما مبالغة وتأنيثاً.

وقد تعني ﴿مُّبِينٍ﴾ أنه تعالى يبين كلّ غائبة لمن ارتضاه[1]، إلّا ما اختص الله بعلمه.



(١) نور الثقلين ٤ : ٩٦ عن أصول الكافي عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام أنه قال: وقد أورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسير به الجبال وتقطع به البلدان ويه يحيى الموتى ونحن نعرف الماء تحت الهواء وإن في الكتاب لآيات ما يراد بها أمر إلّا أن يأذن الله به ما قد يأذن مما كتبه الماضون جعله الله لنا في أم الكتاب أن الله يقول: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النّمل: ٧٥] ثم قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] فنحن الذين اصطفانا الله عزّ وجلّ ، وأورثنا هذا الكتاب فيه تبيان كلّ شيء.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ
لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى
ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾
وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ
كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ
بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟
بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا
يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى
ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ
إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ
يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ
ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾
وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ

أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ دون سواه من قرائين الوحي السابقة عليه ﴿يَقُصُّ﴾ قصاً من الأنباء المذكورة في كتب الوحي الإسرائيلية ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهم المحور الأصيل في شرعتهم مهما كانت تعم كافة المكلفين ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك الأكثر هو بطبيعة الحال يحمل أهم الخلافات في أصول الشرعة وفروعها وما تحمل كتاباتها من قصص النبيين وسواهم، ثم الأقل الذي هم فيه يختلفون قد يلوح من طيات الأكثر.

و﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يشمل كافة الاختلافات الإسرائيلية التي تخلّفها اختلاقاتهم وتحريفاتهم كتاباتِ الوحي التوراتي عن جهات أشراعها طول الزمن ما داموا هم موجودين لمكان ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ الدالة على الاستمرارية في بشارات بحق هذا الرسول الإسماعيلي لأنه ليس من إسرائيل، وقصص رسالية، وأحكام كتابية أمّا هيه، كما هي بينة في سرد القصص القرآنية عن افتعالاتهم في مختلف حقولها.

وذلك القص الساحق هو قضية الهيمنة القرآنية على كتابات الوحي السالفة، وليدل أهل الكتاب على مدى ضلالهم، دفعاً لهم إلى الهدى القرآنية الصادقة، كما:

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٤.

﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

منهم ومَن سواهم ممن يقرع آذانهم صارم الوحي القرآني السامي، «هدى» تقيهم من خلافاتهم العارمة، توحيداً للنهج وتوصيلاً إلى المبلج، وذلك الاهتداء بهدي القرآن هو قضية الإيمان بقضيته، والمنهج القرآني هو الوحيد المنقطع النظير في استعادة النفوس عن ورطاتها، وتركيبها وفق الفطرة الساذجة والعقلية الناضجة دون تكلُّف ولا تخلُّف عن السنن الكونية، تجاوباً رائعاً بين كتابي التكوين والتدوين.

والمصدران يشيان لمحتد القرآن أنه مصدر الهداية والرحمة، فإنه خالصهما دون شوب، وكأن هو الهدى والرحمة!.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾:

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بهذه التربية القمة القرآنية ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ هنا في القرآن قضاءً صارماً يفصل بينهم بالحق، وهنا يوم الجزاء قضاء عملياً جزاءً وفاقاً ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ تغلباً على المتخلفين المختلفين «الحكيم» في عزته بقضائه وحكمه.

ثم وبعد ما أوحي إليك يا رسول الهدى هذا الكتاب المهيمن في هداه دون نقص ولا ركس:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾:

إنه ليس التوكل على الله اتكالية دون سعي، وإنما هو زاد الطريق الشاق الطويل المليء بالأشواك والدماء والأشلاء، بعد التزود بكل الطاقات والإمكانيات المحوَّلة والمخوَّلة، فقد خُوِّل إلى الرسول ذلك الحق المبين، وحول إليه تحقيق هذا الحق المتين، إذاً ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في تحقيق هذه الرسالة الشاقة ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ﴾ المطلق «المبين» لكل حق وكما يبين ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وهذه تسلية لخاطر الرسول ﷺ الجريح القريح، وتأسية على جموع المشركين والكتابيين ولجاجهم وإصرارهم على النكران بعد الجهد الشاق في النصح والبيان، و:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿إِنَّكَ﴾ على محتدك الرسالي ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إذ لا سمع لهم، وترى كيف الموتى لا يسمعون الأحياء وهم في حياة برزخية قد يسمعون أكثر منا وأقوى، ولا سيما أن المُسمع هو رسول الهدى؟ إن الموتى ليسوا في حياة التكليف حتى ينفعهم سمعهم هكذا، والمقصود هنا السمع في حياة التكليف لتكاليف الشرعة، فهؤلاء الموتى عن الروحية الإنسانية وسمع الإنسان أذناً وقلباً «إنك لا تسمعهم، حيث الإسماع بحاجة إلى سمع ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[1] وقد يسمع الصُّم الدعاءَ إذا تسمّعوا أم لم يولوا مدبرين، ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ كما و﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ عن الحياة الدنيوية، إسماعاً ينفعهم هناك.

فظرف السمع للدعاء الرسالي هو القلوب الحية والآذان الصاغية، للمؤمنين بآيات الله، دون ميتات القلوب والصم الأسماع هنا، ودون الأموات حيث لا يُدعون للشرعة:

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2] ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ عن أبصار القلوب ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ فلا إسماع للموتى والصمّ

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٢.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

العمي ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ آفاقية وأنفسية هي لهم مرئية فهم مبصرون، ومسموعة فهم سامعون ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ إسلاماً لله بما يرون ويسمعون ويعقلون من آياتنا.

وقد تكون «الصم والعمى» بياناً للموتى فلا قصور فيك كرسول، ولا في آياتنا إبصاراً بها وإسماعاً، وإنما القصور التقصير في الموتى والصم الذين لا يسمعون، والعمي الذين لا يبصرون فلا يستجيبون ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[1]، ومن الموتى المستعدون للحياة من يسمع فيحيى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

فما دامت آيات الله بينات، وهناك أموات يتحرون عن الحياة، وهنا رسول يُسمعهم تلكم الآيات، فالإسلام لله حاضر دون تلكوءٍ ولا تحميل، حيث الإسلام هو نداء الفطرة، ما إن وجدت نداء الحق أقبلت إليها وقبلت، فليس نكران الموتى عن الحيوية الإنسانية، بالذي يدل على قصور في تلكم الآيات أم تقصير في إسماعها، فـ ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وإلى تهديد شديد حديد في الأولى قبل الأخرى يوم القائم المهدي من آل محمد عليهم السلام:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

هذه والثلاث اللاتي بعدها عرض لعذابهم الأدنى دون العذاب الأكبر وكما وعد الله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

يَرۡجِعُونَ﴾[١] ثم الرابعة ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ...﴾ تصريحة أخرى - بعد تلميحة من الأربع - إن وقوع القول عليهم وحشرهم قبل القيامة الكبرى، وليس يعني أصل القول في وعد العذاب إذ صدر قبل، ولا واقع القول في أصل العذاب فإن فيه موتهم فكيف تكلمهم دابة من الأرض، إذاً فهو وقوع أوانه ولمَّا يقع حتى يسمعوا قالة الدابة المندِّدة بهم ثم يقع، وتكلم الدابة المخرجة من الأرض قبل الرجعة هو من أشراطها وكما للساعة أشراط، وإنما تكلمهم الدابة منذرة مهينة إياهم، فقد انذرهم الرُّسُل فعموا وصموا فلم يك ينفعهم تواتر الإنذار، فلتنذرهم دابة الأرض تناسقاً بين المنذِر والمنذَر وهم شر منها: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[٢].

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ هؤلاء الموتى الصم العمى، لا فقط خصوص الموجودين زمن نزول القرآن، بل هم كلّ أولئك الذين يحملون ثالوث النكبات على مدار الزمن طول التاريخ الرسالي، ومن ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ هو كلمة العذاب وكما تأتي بهذه الصيغة في آيات عدة، أياً كان العذاب في الأولى كما هنا وفي الأخرى كما في سواها، ومنه سائر القول كوعد الرجعة إلى الحياة الدنيا ليذوقوا فيها عذاباً قبل الأخرى، وهو المقصود هنا إذ لو كان واقعَ العذاب فلا مستمع منهم لقالة دابة الأرض.

﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ﴾ أولاء ككل ودون إبقاء ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ...﴾ تكلمهم أولاء الموجودين زمن إخراج الدابة ولمَّا يرجع الراجعون يوم الرجعة، لأنها يوم حشرهم عن بكرتهم في مثلث الزمان ولمّا يأت، فإنه يوم آخر للقول هو يوم واقع العذاب بعد رجوعهم كلهم: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا...﴾.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢١.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

فالحملة الأولى لخطاب الإنذار التنديد من الدابة هم الأحياء زمن إخراجها، والموجّه إليهم ذلك الخطاب - وهؤلاء الأولون يحملونه - هم كلّ المكذبين بآيات الله الراجعون يوم الرجعة.

وما هي دابة الأرض هذه التي تكلّمهم بلغة الإنسان؟ هي «دابة الأرض» أياً كان من الحيوان الدابة، فليس من ملائكة الله ولا الطير، ولا من أولياء الله، حيث الدابة ليست تعبيراً لائقاً بهم في أدب القرآن الذين يخاطب أدنى المؤمنين بالذين آمنوا فكيف يعبر عن أكبر أولياء الله بعد الرسول محمد ﷺ بـ «دابة الأرض»؟ كما في مختلقات مروية عندنا أنها الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام [1]!!!

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٩٨ في تفسير القمي في الآية حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: انتهى رسول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو قائم في المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه فحركه برجله ثم قال: قم يا دابة الأرض، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله ﷺ أيسمي بعضنا بعضاً بهذا الاسم؟ فقال: لا والله ما هو إلّا له خاصة وهو الدابة الذي ذكره الله في كتابه فقال عزّ وجلّ : ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ. . .﴾ [النّمل: ٨٢] ثم قال: يا علي! إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعداءك. . ، وفيه قال أبو عبد الله عليه السلام قال رجل لعمار بن ياسر: يا أبا اليقظان إن آية في كتاب الله أفسدت قلبي وشككتني؟ قال: وأيّة آية هي؟ قال: قوله عزّ وجلّ : ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ. . .﴾ [النّمل: ٨٢] فأية دابة هذه؟ قال عمار: والله ما أجلس ولا آكل ولا أشرب حتى أريكها فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو يأكل تمراً وزبداً فقال: يا أبا اليقظان هلم، فأقبل عمار وجلس يأكل معه فتعجب الرجل منه فلما قام الرجل قال: سبحان الله إنك حلفت أن لا تأكل ولا تشرب ولا تجلس حتى تريني الدابة؟

قال: أريتكها إن كنت تعقل، وفيه عن المجمع عن العياشي هذه القصة بعينها عن أبي ذر أيضاً وروى محمد بن كعب القرظي قال سئل علي عليه السلام عن الدابة؟ فقال: أما والله ما لها ذنب وإن لها للحية، وفي تفسير البرهان ٣: ٣١٠ محمد بن العباس بسند عن أبي عبد الله الجدلي قال دخلت على علي عليه السلام فقال: أنا دابة الأرض، وفيه عنه بسند عن الأصبغ بن نباتة قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام وهو يأكل خبزاً وخلاً وزيتاً فقلت: يا أمير المؤمنين قال الله. . . فما هذه الدابة؟ قال: هي دابة تأكل خبزاً وخلاً وزيتاً، وفيه عنه عن الأصبغ بن نباتة قال: قال لي معاوية يا معاشر الشيعة تزعمون أن علياً دابة الأرض؟ فقلت: نحن نقوله =

ولا ما تصفها روايات في كتب إخواننا أن طولها ستون ذراعاً، ذات زغب وريش وحافر، لها لحية، رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن إبل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرٍّ وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير(١)!!!

فهذه تجمع لهذه الدابة مختلف هيئات لمختلف الدابة، وتلك تقول إنها مجمع فضائل الإنسانية القمة، فهي بين مفرِطة ومفرّطة، والنص ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لا هكذا إنسان ولا هكذا حيوان، وبينهما أحاديث عن الفريقين عوان نصدق منها ما صادق القرآن(٢).

= واليهود يقولون، قال: فأرسل إلى رأس الجالوت فقال له: ويحك تجدون دابة الأرض عندكم مكتوبة؟ فقال: نعم، فقال: ما هي أتدري ما اسمها؟ قال: نعم اسمها إيليا، قال: فالتفت الي فقال: ويحك يا أصبغ ما أقرب إيليا من علي!، وفيه سعد بن عبد الله عن عبد الله بن يسار قال قال أبو عبد الله عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: في حديث قدسي يا محمد عليّ أوّل من أخذ ميثاقه من الأئمة عليهم السلام يا محمد علي آخر من أقبض روحه من الأئمة عليهم السلام وهو الدابة التي تكلم الناس.

أقول: هذه مختلقات زور على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى علي عليه السلام وعلى بعض المعصومين من ذريته. إن علياً عليه السلام هو دابة الأرض، والله والرسول والأئمة منه براء!.

(١) الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها...

(٢) الدر المنثور ٥: ١١٤ - أخرج نعيم بن حماد وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا كان الوعد الذي قال الله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: ٨٢]... فيكون خروجها من الصفا ليلة منى فيصبحون بين رأسها وذنبها لا يدحض داحض ولا يخرج خارج حتى إذا فرغت مما أمرها الله فهلك من هلك ونجا من نجى كان أول خطوة تضعها بأنطاكية، وفيه ١١٥ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: تخرج الدابة يوم تخرج وهي ذات عصب وريش.. وفيه ١١٦ - أخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدابة فقال حذيفة: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أين تخرج؟ قال: من أعظم المساجد حرمة على الله بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض من تحتهم تحرك القنديل وتشق الصفا مما يلي المسعى وتخرج الدابة من الصفا أوّل ما يبدو رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب...

وفي نور الثقلين ٤: ٩٧ في كتاب كمال الدين وتمام النقمة بإسناده إلى النزال بن سيارة عن=

وقول القائل تبريراً لكون المعني منها الإمام علي عليه السلام - ولا سمح الله -: إنّ الدابة جنس تشمل كلّ حيوان وإنسان أياً كان، مردود إليه بأن ذكر الجنس الشامل لسائر الحيوان قصداً إلى أفضل إنسان، هو من أسوأ التعبير وأشنعه، بل والتعريف له بمطلق الإنسان أن علياً عليه السلام كان إنساناً، وصالح التعريف أياً كان هو التعريف بالفصل الخاص والصفة المتميزة الخاصة كما المؤمن - العادل - الإمام - ولي الله أماذا من أخص الفصول القريبة المميزة له عن سواه.

وفي هذا المجال المختلق ضد الإمام علي عليه السلام قيل له إن ناساً يزعمون أنك دابة الأرض؟ فقال: والله إن لدابة الأرض ريشاً وزغباً وما لي ريش ولا زغب وإن لها لحافراً وما لي من حافر»[(1)] وهنا أصبحت رواية إخواننا السنّة بحق الإمام عليه السلام أرحم من رواية أصحابنا الشيعة! وهنا ندرك أبعاد الشكيمة اللئيمة على الإمام عليه السلام بلسان أشياعه المجاهيل دفعاً لهم

= أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل قال فيه - بعد أن ذكر الدجال - ومن يقتله وأين يقتل؟ ألا أن بعد ذلك الطامة الكبرى، قلنا: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟

قال: خروج دابة الأرض من عند الصفا معها خاتم سليمان وعصا موسى عليه السلام تضع الخاتم على وجه كلّ مؤمن فينطبع فيه هذا مؤمن حقاً وتضعه على وجه كلّ كافر فيكتب هذا كافر حقاً حتى أن المؤمن لينادي الويل لك حقاً يا كافر وإن الكافر ينادي: طوبى لك يا مؤمن وددت أني كنت مثلك فأفوز فوزاً عظيماً، ترفع الدابة رأسها من بين الخافقين بإذن الله جل جلاله وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها فعند ذلك ترفع التوبة فلا تقبل توبة ولا عمل يرفع ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] ثم قال: لا تسألوني عما يكون بعد هذا فإنه عهد إليّ حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألّا أخبر به غير عترتي.

أقول: من جملة ما يرد على هذه الرواية - إضافة إلى قصة من هو الدابة - خروجها بعد الدجال، والدجال يكون في زمن المهدي وبعد الرجعة وخروج الدابة هو قبلها فإنه من أشراطها!.

(١) الدر المنثور ٥: ١١٧ - أخرج ابن أبي حاتم عن النزال بن سبرة قال قيل لعلي بن أبي طالب...

إليها من أعاديه، فهم أولاء الحماقى يذيعون عليه عليه السلام هذه الواصفة النكدة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، رغم أنهم من الأخسرين أعمالاً!

ولماذا يفسَّر ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ بعلي عليه السلام؟ ألأن تكلم الدابة خارقة ربانية فلتكن له عليه السلام؟ وليس تكلم الإمام بخارقة، بل الخارقة هي تكلم الدابة؟

ومن المظنون أن دابة ناصبة معاندة للإمام استغفل دابة ممن يدعي أنه من أشياع الإمام فحملته على ذلك التأويل العليل، إذ خيِّل إليه أنه غنيمة من التأويل حيث يختص الإمام بهذه الكرامة الغالية! وليس تكلم الإنسان كرامة لأي إنسان فضلاً عن الإمام!

فما حديث دابة الأرض تفسيراً لها بالإمام إلّا تلقيناً لعيناً من دابة ناصبة إلى دابة راسبة في شعورها تدعي أنها من الشيعة، مهما تظافر نقله في كتابات شيعية والإمام علي عليه السلام براءٌ من هكذا هتك وفرية.

وإنها حسب الآية وروايات من الفريقين حيوان وليس أي إنسان، ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ هؤلاء الكفرة الأنكاد: «إن الناس»: وهم هؤلاء وأضرابهم ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

إخراج دابة من الأرض تكلمهم هو من أشراط الساعة وليس فيها نفسها، فإنها بعد هنيئة ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ...﴾ وما أنسب هؤلاء الدواب الذين لا يوقنون أن تكلمهم دابة من الأرض في حشر خاص: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا...﴾ و﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

فتكلم الدابة معهم وهم شر الدواب يناسب كيانهم المنكوس المركوس

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

كما يناسب جو السورة في حوار بين النملة والهدهد وسليمان، تناسقاً ذا بعدين يحمل شرطاً من أشراط الساعة وكما يروى عن رسول الساعة ﷺ: «إن بين يدي الساعة الدجال والدابة ويأجوج ومأجوج والدخان وطلوع الشمس من مغربها»[1] «تخرج من أعظم المساجد حرمة على الله: المسجد الحرام»[2]. ومن الجياد[3]، وأياً كان مخرجها فهي «تكلمهم» ومَن هم الذين تكلمهم؟ أهم كلّ هؤلاء الذين كانوا بآياتنا لا يوقنون؟ والعبارة الصالحة له «إنهم كانوا» لأنهم هنا الناس!

علّهم هم الحاضرون في ذلك المسرح، و«الناس» هم كلّ الكافرين على مدار الزمن الرسالي، فهي - إذاً - تكلمهم هؤلاء الحضور، «أن الناس» وهو يعمهم وكل أضرابهم ولمّا يُحشروا «كانوا» على طول الخط الرسالي ﴿بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وهم المحشورون ككل بعد يوم الدابة ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ...﴾ فقد تكون هذه الدابة إذاعة معلنة للذين كانوا بآياتنا لا يوقنون قبل حشرهم، ولكي يُعرَفوا في مسرح الحشر أمام أنفسهم والذين هم كانوا بآياتنا يوقنون.

---

(١) الدر المنثور ٥: ١١٦ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ....

(٢) المصدر ١١٥ - أخرج نعيم بن حماد وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ إذا كان الوعد الذي قال الله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: ٨٢] قال: ... فيكون خروجها من الصفا ليلة منى..

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ تخرج دابة الأرض ولها ثلاث خرجات فأول خرجة منها بأرض البادية والثانية في أعظم المساجد وأشرفها وأكرمها على الله، وأخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال حذيفة: يا رسول الله ﷺ من أين تخرج؟ قال من أعظم المساجد حرمة على الله أقول والأحاديث فيه متظافرة.

(٣) الدر المنثور ٥: ١١٧ - أخرج خروجها من جياد ابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: بئس الشعب جياد مرتين أو ثلاثاً قالوا: وبم ذاك يا رسول الله ﷺ؟ قال: تخرج منه الدابة -

أقول: خروج الدابة من جياد لا صلة له بكون شعبه سيئين إلّا لوجه آخر.

وترى ما هو كلامها؟ هل هو كلْمها ووسْمها إيّاهم دون تكلم بلفظة؟ وهذا كَلْمٌ وذلك تكليم، والنص يرفض رواية الكلم مهما كثرت رواته، ويرجِّح روايات التكليم مهما قلت رواته[١] ورواية الكلم تكلِم القرآن كَلَمَ الله راويها ومختلقها خلاف نص القرآن!.

والمكذبون هنا قد تعنيهم آية الأنبياء فيمن تعنيهم ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟. . .﴾[٢].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥﴾:

﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ تعني كلّ الأمم الرسالية الموجهة إليهم الرسالات الخمس الإلهية، وهذا الحشر لا يعمهم هنا كلهم، وإنما ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن

---

(١) في الدر المنثور تروى الرواية الأولى عن رسول الله ﷺ عن ابن عمران: ليس ذلك حديثاً ولا كلماً ولكنه سمة تسم من أمرها الله به، وعن أبي هريرة عنه ﷺ.. فتنقط في وجه المؤمن نقطة بيضاء فيبيض وجهه وتنقط في وجه الكافر نقطة سوداء فيسود وجهه، وعن حذيفة ابن اليمان عنه ﷺ تسم الناس مؤمن وكافر.. وعن أبي هريرة عنه ﷺ فتجلو وجه المؤمن بالخاتم وتخطم أنف الكافر بالعصا.

وفيه تروى الرواية الثانية عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ تخرج دابة الأرض.. وتنادي بأعلى صوتها إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون.. وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات فيسمعها من بين الخافقين، وفي نور الثقلين ٤: ٩٨ عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: ... فقال رجل له عليه السلام: إن العامة يقولون إن هذه الآية إنما تكلمهم؟ فقال: كلمهم الله في نار جهنم إنما هو تكلمهم من الكلام، وفي جوامع الجامع عن الباقر عليه السلام: كلم الله من قرأ يكلمهم ولكن تكلّمه بالتشديد.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٩٥-٩٧.

﴿يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فـ «من» الأولى للتبعيض، والثانية للتبيين، إذاً فكل المكذبين بآياتنا من كلّ أمة يحشرون في ذلك اليوم.

وكما ﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾ تعني الأمم الخمس بكل أنبيائها ورسلها، كذلك «آياتنا» تعني كلّ الرسل أصولاً وفروعاً، بآياتهم الرسالية معجزات وكتابات، فـ «آياتنا» إذاً هي مثلث الآيات رسولياً ورسالياً.

والحشر هو الجمع، إنْ أحياءً فأحياءٌ وإنْ أمواتاً فأمواتٌ، وهنا الجمع بينهما فإنهم المكذّبون - ككل - من كلّ أمة، من الأحياء الحضور في ذلك اليوم والأموات قبله.

فهل إن ذلك اليوم بعد هو القيامة الكبرى، حشراً خاصاً لخصوص العذاب وكما في نظيرتها: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾[١]؟

وهذه في الحشر إلى النار فطبعاً هو خاص بأعداء الله بعد الحشر العام ليوم القيام، وتلك حشر للاستجواب وهو يعم كلّ المحشورين مؤمنين وكافرين، اللهم إلّا السابقين وأصحاب اليمين ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾[٢]!

ذلك حشر خاص في يوم خاص لحياة التكليف، فقد جاء بعد شرط من أشراط الساعة وهو خروج الدابة، وقبل الساعة نفسها: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ...﴾ وهو خاص بمن ﴿يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهو من محض الكفر محضاً وكما آية النور والوعد في الزبور[٣] تختصان الحشر بمن محض الإيمان

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ١٩، ٢٠.

(٢) سورة المدثر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٣) آية النور هي ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ [النور: ٥٥] والثانية ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

محضاً، فالمستفيضة المروية عن أئمتنا عليهم السلام «لا يرجع إلّا من محض الإيمان محضاً ومن محض الكفر محضاً»[(١)] مستضيئة من هذه الثلاث الدالة على الحشر الخاص.

فكما الذين آمنوا وعملوا الصالحات في النور، وعبادي الصالحون في وعد الزبور محلِّقان على كافة المؤمنين الصالحين لوراثة الأرض، فهم محشورون لها في مستقبل منير، كذلك ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ منعاً عن التفرق في موقف حشرهم، فريقان متفارقان يحشران قبل ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾[(٢)] لا فحسب ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ ولا فحسب المؤمنون الصالحون، بل ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[(٣)] [(٤)].

فقد يرجعون لمّا يدعون ويستجابون، وروايات الرجعة - ككل - هي فوق حد التواتر، وهي معنوياً إجمالياً تدل على رجعة أموات قبل القيامة الكبرى[(٥)].

---

(١) نور الثقلين ٤: ١٠٠ عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما يقول الناس في هذه الآية ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ [النّمل: ٨٣]؟ قلت يقولون إنها في القيامة؟ قال: ليس كما يقولون، إنها في الرجعة، أيحشر الله في القيامة من كلّ فوجاً ويدع الباقين؟ إنما آية القيامة ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٧.

(٤) المصدر عن تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن المفضل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: ليس أحد من المؤمنين قتل إلّا ويرجع حتى يموت ولا يرجع إلّا . . . وفي البحار ٥٣: ٣٩ عن أبي عبد الله عليه السلام . . وإن الرجعة ليست بعامة وهي خاصة لا يرجع إلّا من محض الإيمان محضاً أو محض الشرك محضاً فهم يرجعون».

(٥) إليكم أسماء البعض من رواة الرجعة عن المعصومين عليهم السلام: بريد الأسلمي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكافة الأئمة الاثني عشر - عباية الأسدي - مسعدة - الثمالي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام.
أبو خالد الكاهلي عن علي بن الحسين عليه السلام - بكير بن أعين - أبو بصير - جابر بن يزيد =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى حشر الرجعة الموزعة أحياءً وأمواتاً ﴿قَالَ﴾ الله لهؤلاء المحشورين ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ والحال أنكم ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ تكذيباً جاهلاً قاحلاً عن تقصير «إمّا ذا» من أعمال في مسرح الآيات ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم بعدئذ:

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ عن بكرتهم بأسرهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ من ذي قبل ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ إذ أصبحوا سكوتاً بعد وقوع القول عليهم خامدين، وكما كانوا سكوتاً حين وقوع القول إذ لا يؤذن لهم في كلام، لا اعتذاراً ولا اعتراضاً!، وكما يوم القيامة ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ وقد تتعلق بـ ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ بـ ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ كما يتعلق بـ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ - ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ بما وقع القول عليهم وبما ظلموا.

فلقد نطقت الدابة بما ظلموا «فهم لا ينطقون بما ظلموا» فهم ساكتون واجمون، من وطأة الموقف الرهيب، والعذاب العسيب، والله من ورائهم

= الجعفي - ابن المغيرة - حمران - داود بن راشد - عاصم بن حميد - صالح بن ميثم - أبو حمزة الثمالي - ابن عيسى - عامر بن معقل - محمد بن مسلم - عبد الله بن عطا - سدير - زرارة - أبو الصباح - عبد الرحيم القصير عن الإمام الباقر عليه السلام.
حمران بن أعين - أبو الخطاب - زرارة - محمد بن مسلم - محمد بن الطيار - ابن بكير - فيض بن أبي شيبة - عبد الكريم بن عمرو الخثعمي - سليمان الديلمي عن أبيه - معلى بن خنيس - ابن مسكان - معاوية بن عمار - موسى الحناط - زيد الشحام - جميل بن دراج - سالم بن المستنير - صالح بن سهل - مفضل بن عمر - صفوان بن مهران - عبد الله بن القسم - عمار بن مروان - أحمد بن عقبة عن الإمام الصادق عليه السلام.
القسم - محمد بن عبد الله الحسيني عن الإمام الكاظم عليه السلام.
موسى بن عبد الله الخثعمي عن الإمام علي النقي عليه السلام.
أبو القاسم بن العلاء عن الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام.
الحسين بن روح عن الإمام محمد بن الحسن المهدي (عج).
هذا شطر ممن روى حديث الرجعة من أصحابنا الإمامية، وكذلك الرواة من إخواننا السنة كثير وأقل التقدير في رواة الرجعة من أصحابنا قرابة ٦٠٠ شخصاً (المصدر البحار ج ١٣ القديم).

رقيب، فكيف ينطقون؟! ثم وبطبيعة الحال ليس لسؤال التهكم التأنيب ﴿أَكَذَّبْتُم...﴾ جواب إلّا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

ولقد صرحت كتابات من العهدين بهذه الرجعة وراجعيها في الدولة المظفرة المهدوية عليه آلاف سلام وتحية وكما في دانيال ١٢: ١ - ١٦ «وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الزمان ١، وفي ذلك الزمان ينجو شعبك كلّ من يوجد مكتوباً في الكتاب ٢ وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرذل الأبدي٣... سمعت ولم أفهم فقلت: يا سيدي ما آخر هذه ٩ فقال: اذهب يا دانيال فإن الأقوال مغلقة ومختومة إلى وقت الانقضاء ١٠ إن كثيرين يتنعمون ويتبيضون ويُمَحَّصُون والمنافقون ينافقون ولا أحد من المنافقين يفهم أما العقلاء فيفهمون ١٢ طوبى لمن ينتظر ويبلغ إلى ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين يوماً ١٣ وأنت اذهب إلى الانقضاء وستستريح وتقوم في قرعتك إلى انقضاء الأيام» ١٤!.

وقد يرجو زردشت أن يكون ممن يحيى حياةً جديدة في ذلك الزمان كما في «كاتها - يسناها ٣٠: ٩» ترجمةً حرفية عن الأصل الأوستائي البهلوي: «فحينئذٍ أي مزدا! يقيم بَهمن مُلكك في خاتمة الأيام لهؤلاء الذين يستبدلون الصدق بالكذب ٨ ونرجو أن نكون ممن يحيى حياةً جديدة أي مزدا!...»..٩ أجل وفي ذلك الزمان ينكسر عالم الكذب بفلاح الصدق وكذلك في عالم الخير (القيامة)..»١٠.

«بهمن» هنا حسب اللغة الأوستائية هو الممثل العظيم للقدرة والمعرفة الربانية، فهو زعيم الدولة[1] الأخيرة الإمام المهدي عليه آلاف سلام وتحية!.

---

(١) يراجع للتفصيل إلى كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» ٢١١ - ٢١٤.

وقد يؤمر داود عليه السلام بعد آيات من الزبور بتبشيره بما بشرت آية الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1] يؤمر في ختامها: «انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض. عند استئصال المنافقين تنظر» (مزمور ٣٧: ١٣٤) فهو من الراجعين في رجعة أخص الخاص.

والرجعة أيام المهدي (عج) تحلق على أخص الخواص وهم المرسلون والأئمة المعصومون، ثم الخواص وهم من محض الإيمان محضاً - احتراماً - ومن محض الكفر محضاً - اختراماً - وهما رجعة بالاستعداد، وثالثة هي الرجعة بالاستدعاء للمتوسطين في الإيمان.

وهنا نقلة من مشهد واقع القول على المكذبين الحائرين المائرين في حشر الرجعة، إلى مشهدهم قبل حشرهم:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

فهذان المشهدان المتواتران طول الحياة حقيقان خليقان لإيقاظ الإنسان أن هناك يد الرحيم الرحمان تقلب الليل والنهار ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2]؟.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[3].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٣) سورة القصص، الآيات: ٧١-٧٣.

ففي سكن الليل وإبصار النهار ﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ من عدة جهات، منها الرحمة المتعالية باختلاف الليل والنهار، والتدليل على أن وراءهما قدرةٌ عالمةٌ قاصدةٌ، لا ذات نسق واحد لمكان اختلاف الخلق، ولا فوضى الشتات حيث الحكمة فيه باهرة، كما ومنها إمكانية الحياة بعد الموت، كما يقظة النهار حياة نسبية بعد نومة الليل.

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

الصور هو الناقور حيث ينفخ فيه مرة للإماتة وأخرى للإحياء، وليس جمع الصورة لمكان ضميره المفرد في آية الزمر: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾[1].

وتراها هنا الأولى؟ ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ لا تلائمها! أم هي الثانية؟

وقد لا تناسبها ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾! وكذلك ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الظاهرة في حياتهم دنيوياً أو برزخياً، ثم في الأولى الصعقة وليست فقط الفزعة: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[2].

قد تعني النفخة هنا المرتين لمكان الإشارتين، فالفزعة في الأولى تشملها والصعقة والموتة، وفي الثانية فزعة الإحياء لأنهما بعد فزعة الموت، ثم الفزعة يوم القيامة شاملة حيث يحشرون إلا ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[3].

ف ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ في الصعقة للنفخة الأولى، هم أخص «ممن شاء

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٣) سورة النمل، الآية: ٨٩.

الله» في الفزعة للنفخة الثانية، فالسابقون والمقربون أو وجمع من أصحاب اليمين لا يصعقون في الأولى لا موتاً عن الحياة البرزخية ولا دون الموت من صعقة، وكما لا يفزعون، والباقون يصعقون موتاً أم دونه، ثم وفي الثانية يفزع المحشورون إلّا من جاء بالحسنة وهم أعم منهم بكثير حيث تشمل كلّ الصالحين على درجاتهم ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

ثم في الثانية ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ صاغرين، مهما اختلف صغار الآمنين عن غير الآمنين، فالآمنون صاغرون هناك كما هنا أمام العظمة الربانية بذلّ العبودية وصغارها أمام المعبود، وغيرهم صاغرون أذلّاء مهتَكون بذل الاستكبار عن عبادته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(١) وأين داخرين من داخرين؟.

و﴿أَتَوْهُ﴾ هنا تعني الرجوع إلى الله دون أن يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلّا ما شاء الله حسب الأعمال صالحةً وطالحةً ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾(٢).

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

الرؤية قد تكون بصرية مجردة، أم ببصيرة حاصلة أم محصلة علمية، أم ببصيرة الوحي، أترى ﴿وَتَرَى﴾ هنا تعني الرسول ﷺ أم وكل راءٍ سواه؟ إنها تعني الرسول كمخاطب أوّل بوحي القرآن، ثم سائر المكلفين بما يحمله الرسول إليهم، اللّهم إلّا بقرينة قاطعة تخص الخطاب به وليست هنا فليس.

ثم وحقل الرؤية من أيٍّ كان هل هو يوم الدنيا تدليلاً على حركة

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) راجع آية الزمر تجد على ضوئها فصل القول حول النفخة والصعقة.

الأرض غير المرئية بدائية بالبصر، والوحي يُرِي أنها ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ كما العلم أرى في العصور المتاخرة عن وحي القرآن زاوية من مرِّها.

فكل راءٍ إلى الجبال كقواعد للأرض يحسبها بقواعدها جامدة لا حراك لها ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ خارجاً عن الإحساس، والرسول هنا كسائر الناس إلّا أن يوحى إليه بما يتجاوز الإحساس، وقد أوحي إليه ﴿وَهِىَ تَمُرُّ﴾ وما أجمله تعبيراً وأمثله مثالاً حيث السحاب المارة لا ترى بداية الرؤية أنها تمر، إلّا بعد رجوع البصر وقياس بعضها إلى بعض، فهي متحركة يحسب أنها جامدة كما كانت الأرض محسوبة على جمود، ومن حراك الجبال أن قسماً منها تتنقل من قواعدها إلى أُخرى خلال ردح بعيد من الزمن كما كشف عنها علم معرفة الأرض.

وقد يقرب عناية الحركة الأرضية من الآية ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾ فمرور الجبال مرّ السحاب من الصنع المتقن للأرض في حركاتها المعتدلة المتعدِّلة.

أم تعني الرؤية يوم قيامة الإماتة: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[1] إذ حفّت الآية بآيات القيامة؟ وترى كيف يراها الرسول ﷺ - فيمن يرى - جامدة، وكل ناظر يرى حراكها؟

قد يحسبها حينذاك جامدة لأن حراكها لا تزعجه فإنه ممن شاء الله فلا ينصعق بالصعقة ولا ينفزع بالفزعة، مشغولاً بنفسه في ضيافة ربه، أم أن «ترى» هنا تختص بغيره حيث ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2] فلا يشعرون حركات الجبال المسيَّرة يوم القيامة لأنهم في شغل عنها إلى ما هو أفزع منها كزلزال الأرض.

أترى كيف تناسبها القيامة وهي يوم التدمير، وتلك ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ

(١) سورة النبأ، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٢.

كُلَّ شَيْءٍ﴾؟ إن التدمير كما التعمير من الله إتقان من صنع الله، لا سيما وأن بعده تعمير الدار الآخرة، فليس التدمير منه خلاف صنعه المتقن.

وقد تجمع الرؤيةُ النشأتين، في الأولى وفي الأخرى أياً كان الرائي، ولكلٍّ كما يناسبه، فالأرض هي راجفة على طول الخط، قبل ذِلِّها وبعده، في قيامة الإماتة والإحياء و﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾[1] تدل على حركتها المضطربة قبل ذِلّها، ثم المعتدلة بذِلّها: «وعدَّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها.. فسكنت على حركتها من أن تميد باهلها أو أن تسيخ بحملها...».

ثم و﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾[2] تثبت لها - على ضوء آية الذلول - أربع رجفات أولاها رجفة شماشها قبل ذِلِّها، والثانية رجفة ذِلِّها بعد شماسها وهي بهما سميت ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾، ثم و﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ هي الرجفة الثالثة: الإماتة، و﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ هي الرابعة: رجفة الإحياء، فقد تمت لها أربع رجفات اثنتان في الأولى والأخريان في الأخرى، وآية الرؤية قد تعني مرّ الأرض مر السحاب في النشأتين، وكل ذلك ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وقد تعني ﴿جَامِدَةً﴾ - فيما عنت - الوقوف عن كلّ حركة داخلية وخارجية ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ مراً داخلياً وآخر خارجياً، فالحركة الداخلية تعني الجوهرية الشاملة كلّ شيءٍ، حيث الوقوف عن مطلق الحراك في أي كائن هو وقوف له عن كونه، لا فحسب عن كيانه الحركي.

أم وتعني تتابع الإيجاد لكلٍّ كائن، وهو تجدد الأمثال بنحو الاتصال، حيث يراه الرائي استمراراً للكون الأوّل، كالشعلة الجوالة التي تخيِّل أنها دائرة نارية وليست هيه.

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.
(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٦، ٧.

فالأشياء - وقد مثل بالجبال لظهورها لكل راءٍ - كلها متجددة الأمثال في كونها وكيانها، أم - وبأحرى - هي متجددة الحراك في أخذ الكون والكيان من الرب المنان، فـ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾[1]؟

وذلك كلّ آن كأصغر أبعاد الزمان، هو تبارك وتعالى في شأن من إبقاء ما أحدث، وإحداث ما لم يحدُث، حركة دائبة في الخلق والتدبير دونما غفلة ولا فتور!

فقد تعني الآية كلّ هذه المعاني ما صلحت لفظياً ومعنوياً تحليقاً على النشأتين!

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

«الحسنة» هنا هي الحياة الحسنة[2] وكما تستدعيها قضية الإيمان: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[3] وخير الحسنات في الحياة ولاية الله وعلى ضوئها ولاية أولياء الله[4]، ولأن ولاية علي عليه السلام هي خاتمة الولايات فقد تفسر الحسنة أنها ولاية علي[5] كمصداق مختلف فيه يصدِّق حق الولاية لله والرسول صلى الله عليه وآله وسلم و﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ هو الصورة الوضاءَة من الولاية - كيفما كانت - في الأخرى، فإنها تبرز بحقها وحقيقتها ما لم تكن تبرز يوم الدنيا.

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٠٣ معاني الأخبار عن أبي أيوب الخزاز قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النّمل: ٨٩] قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم زدني فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الكثير من الله لا يحصى وليس له منتهى.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٤) نور الثقلين ٤: ١٠٣ في كتاب سعد السعود لابن طاوس وقد نقل عن الفرار في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ [النمل: ٨٩] لا إله إلّا الله - والسيئة الشرك أقول، تعني الحياة التوحيدية والشركة وهما الحياة الحسنة والسيئة.

(٥) نور الثقلين ٤: ١٠٢ في تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام فالحسنة والله ولاية علي عليه السلام.

فمن جاء ربه بالحياة الحسنة وهي الإيمانية الصالحة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ حياةً حسنة حيث إن الآخرة ﴿خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ - ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ يعم أهل الحشر ويطم ﴿يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ - ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

و﴿فَزَعٍ﴾ المنفي هنا عن ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ يخص نفخة الإحياء وفي الحياة الأخرى، وأمّا النفخة الأولى فهي مصعقة ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهم الخصوص من عباد الله، من السابقين والمقربين، فلا يعم كلَّ من جاءَ بالحسنة، فلهم فزع الصعقة موتاً وسواها لأقل تقدير، ثم إن زلزلة الساعة تفزع الكل دون إبقاء، وتُصعق ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

و﴿فَزَعٍ﴾ منكراً قد تعني الفزع الأكبر، لا أي فزع كان، حيث الحياة الإيمانية ليس لزامها العصمة، فهناك معاص كبيرة قد يجزون بها حين لا تشملها شفاعة، فلا يأمنون كلّ الأفزاع إلّا ﴿ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[2] وهو دخول النار أم خلودها.

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿وَمَن جَآءَ﴾ بالحياة «السيئة» وهم الكافرون وأضرابهم ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ ويقال لهم هناك كما هنا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فما الجزاء النار إلّا نفس العمل حيث يظهر بملكوته ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[3].

فالحياة الحسنة الإيمانية مصيرها إلى الجنة مهما كانت درجات،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.

والحياة السيئة اللاإيمانية مصيرها إلى النار مهما كانت دركات: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً . . . وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[١].

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

لقد كانت العرب تدين بحرمة ﴿هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ وهي مكة المكرمة[٢]، وكانت تستمد سيادتها على من سواها مِنها، وتُعلِّق آمالها وأصنامها على كعبتها تقرباً إلى الله زلفى، فـ ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ تعريضة عريضة على هؤلاء الذين يعظمون البلدة والبيت ويحترمون، ثم لا يعظمون صاحب البيت بل ويخترمون، إذ يعبدون أصناماً يظلون عليها عاكفين، وما أظلمهم عبادة وأضلهم!

و﴿حَرَّمَهَا﴾ لحرمتها سلبياً وإيجابياً فوق كلّ بلدة حيث يُحج بيتها ويُصلى إلى قبلتها، وهو الملجأ للخائفين، وقد حرّمت فيها - لا سيما حالة الإحرام - من الشهوات المباحة في غيرها.

ثم وليس فقط: رب هذه البلدة، بل ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ سواها، وإنما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

(٢) نور الثقلين ٤: ١٠٥ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام كما قال: إن قريشاً لما هدموا الكعبة وجدوا في قواعده حجراً فيه كتاب لم يحسنوا قراءته حتى دعوا رجلاً فقرأه فإذا فيه: أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السماوات والأرض ووضعتها بين هذين الجبلين وحففتها بسبعة أملاك.

وفيه عن زرارة قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: حرم الله حرمه أن يختلى خلاه ويعضه شجره إلّا الأذخر أو يصاد طيره.

وفيه عن معاوية بن عمار قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة: إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض وهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلّا ساعة من نهار.

لها نصيب زائد على غيرها من كائنات العالم فإنها أم القرى تكوينياً حيث دحيت الأرض من تحتها، وتشريعياً إذ بعثت فيها أم الرسالات بخاتم المرسلين وسيد الخلق أجمعين ﷺ.

إنه تعالى ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ لا سواه فلم تعبدون سواه، ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ لا فحسب هذه البلدة كالأصنام التي تختص كلٌّ جانباً من الكون بزعمكم، فلم تعبدون سواه.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ له لا سواه، أمراً بوحي كما أمرت فطرياً وعقلياً، فما أمر توحيد العبادة والتسليم لله - فقط - أمراً تعبدياً، بل والآيات الآفاقية والأنفسية متجاوبة في إيجاب هذه الفريضة الربانية، والإسلام هنا هو فوق الإيمان خالصاً لرب العالمين، وهو أوّل من أسلم كما هو أوّل العابدين.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾:

التلاوة بجامع معناها هي الإتمام، وقد اختصرت وانحصرت رسالة الرسول ﷺ في هذه التلاوة المباركة طول حياته الرسالية في بعدين: أن يأتم بالقرآن وقد فعل لحد أصبح نفسه القرآن وأفضل منه وكما سمي به في يس ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[1] فقد أصبح تجسيداً لواقع القرآن وتفسيراً وتأويلاً ككل دونما إبقاء، وتطبيقاً له في نفسه ورسالياً، فهو - إذاً - أفضل من القرآن.

ويعدٌ ثان أن يتلوه عليهم كما يتلو نفسه عليهم ليتأتم به الناس في كلّ

(١) سورة يس، الآية: ٦٩.

أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم، فما لم تكمل تلاوته في نفسه لم يأهل أن يكون تالياً له عليهم، فهو - إذاً - ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وإن سنته السنية قولية وعملية وتقريرية هي تلاوة للقرآن، فإنه الإمام في كلّ حلقات رسالته ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بتلك التلاوة المباركة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لا لربه ولا لمن سواه ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فلست أحمل أحداً على الهدى إذ ما علي إلّا البلاغ إنذاراً وتبشيراً.

وحين تنحصر الرسالة الإسلامية - بعد توحيد العبادة والإسلام لله - بأنْ ﴿أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فما دور السنة أمام القرآن، إلّا دوراً هامشياً لتلاوة القرآن إيضاحاً له وتبييناً.

وملا تلاوة سنته الموحاة إليه عليهم إلّا تلاوة القرآن القائل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[2] و﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[3] أمّا شابهما من آيات.

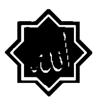
﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾:

﴿وَقُلِ﴾: أظهر قالاً وحالاً واعمالاً أن ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ كله ﴿لِلَّهِ﴾ لا سواه، حيث النعم كلها من الله لا سواه، وكما أراكم آياته من ذي قبل ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من بعد، كآية الدابة التي تكلمهم يوم الرجعة، وسواها من آيات يوم الدنيا وما بعدها، ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ شئتم أم أبيتم، ولم يك ينفعكم إيمانكم عند آيات العذاب لا في الأولى ولا الأخرى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ

---

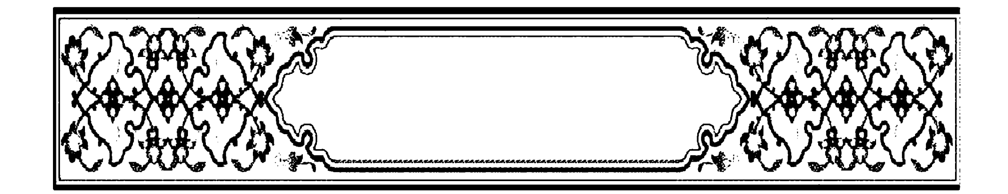
(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.

أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]؟ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] - ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ...﴾[3].



(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

۲۸



مكية وآياتها ثمان وثمانون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ

هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

هذه من الطواسين الثلاث في حروفها الثلاثة المقطعة، وتماثُلُ القصص مع الشعراء في ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ يجعل السورتين متشابهتي الأهداف، ومنها قصص موسى المسرودة هنا بصورة مفصلة أكثر مما في الشعراء، وعلّها لذلك تتسمى بالقصص حيث الجو الغالب عليها القصص وكأنها سورة موسى إذ تأتي بصورة ووضاءة لموسى منذ الولادة حتى الرسالة وإلى نهاية أمره، وهي تقدمات وطمأنينات للرسول محمد ﷺ كأصل تتمحوره السورة في قصصها، انتقالاً حثيثاً من الرسالة الموسوية بآياتها إلى الرسالة المحمدية بآياتها الخالدة القرآنية.

تنزل القصص في مكة والمسلمون قلة مستضعفة والمشركون ثلة قوية مستكبرة، ولكي يطمئن المؤمنون القلة يأتي بسرد شامل لقصص موسى وفرعون وقارون، ليعرفوا أن ليست القوة مع الجاه والمال والمنال، بل إنّما القوة لله ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وآية الوعد لرده ﷺ إلى معاد آية أنها نزلت في أحرج المواقف لرسول الهدى، فلم تنته السورة إلّا وقد أحرجوه فأخرجوه عن أم القرى، فكما الله رد موسى إلى أمه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[1] كذلك نردك إلى أم القرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2] وأين رد من رد؟.

(١) سورة القصص، الآية: ١٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٥.

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣﴾:

الأوليان من هذه الثلاث مفسرتان في الشعراء، و﴿نَتۡلُواْ﴾ في الثالثة من التلاوة القراءَة لتتلوا متابعة ككل ومنها القراءة على الكل، والنبأ خبر ذو فائدة عظيمة، و«من» تُبعِّضه عناية إلى أهم الحلقات من ذلك النبإ كما هو اللائق بالذكر الحكيم، وهنا المتلو عليه هو الرسول ﷺ لكي يتلوه على كلِّ المرسل إليهم، ولكنه بالمآل ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فمن آمن من قبل يزداد به إيماناً واطمئناناً، ومن يتحرّى عن إيمان ولمّا يؤمن - إذ فيه مادة الإيمان وقابليته - فهو يكسب إيماناً، و﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ يشملهما.

أجل وإن هذه التلاوة لذلك النبإ تُلقي ظلال العناية والاهتمام التام ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، دون الذين ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1] وهذه تكرمة ربانية ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أن الله يتلو الأنباء الرسالية على رسوله لأجلهم لأنهم هم المستفيدون، وكما القرآن ككل ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[2] مهما كان القصد منه هداهم أجمعين كحجة على كافة المكلفين، كذلك أنباءه الرسولية والرسالية هي ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ والآخرون هم الخاسرون، و﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ هنا قد تتعلق بـ﴿نَتۡلُواْ...﴾ ﴿نَّبَإِ...﴾ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ نتلو بالحق - نبإ موسى وفرعون بالحق - لقوم يؤمنون بالحق، والباء هنا تعم السببية والمصاحبة، تلاوة النبإ لقوم يؤمنون في مثلث الحق.

نبأ موسى يبدأ في الأغلب من حلقة الرسالة، وهنا يبدأ من الولادة إلى الرسالة وإلى النهاية، فإنه عرض كامل كافل شامل كلّ الحلقات الحيوية لموسى، والعمليات المضادة من فرعون، لتصبح درساً حافلاً ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢.

وليعلموا أن الشرَّ حين يتمخض ويتمحَّض يحمل هلاكه ودماره في نفس ذاته، إذ تتدخل القدرة الرحيمة الربانية لتأخذ بأيدي المستضعفين فتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين، وهنا حلقات خمس من عرض النبإ بين قصيرة وطويلة كلها قاصدة راشدة، حلقة المولد وما أحاط به من قاسية راسية فرعونية، وعناية ربانية، ثم حلقة الفتوة وملابساتها في الجو الفرعوني، ثم حلقة النداء الرسالية، ومن ثم مواجهة فرعون الطاغية، ثم العاقبة للمتقين غرقاً لفرعون بجنوده واستخلافاً لموسى بحشوده، ولكل حلقة مشاهدها العدة: خمسة ثم تسعة ثم أربعة، بينها فجوات وحلقات ومشاهد، ما يثير العجب من دقة الأداء الفني للقصة.

والأوليان هما الجديدتان في هذا العرض العريض، إذ تكشفان عن مدى تحدي القدرة الفرعونية، إخفاقاً لصوت الحق وإخماداً لثائرته في زَنَده، ثم مدى القدرة الإلهية حيث تربّي قاصم ظهر فرعون في حجره:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾:

إن الإفساد الفرعوني هنا مبني على قواعد خمس مهما اختلفت دركاتها: العلو في الأرض - جعْلُ أهلها شيعاً - استضعاف طائفة منهم - تذبيح الأبناء - استحياء النساء، مهما كانت الأربعة الأخيرة من خلفيات الأولى.

إن العلو في الأرض وجعل أهلها شيعاً، واستضعاف الشعوب، هي من شيمة الطغاة الشنيعة على مدار الزمن، فلماذا بعدُ تذبيح الأبناء واستحياء النساء: إبقاءهن أحياءً للخدمة، وإزالة حيائهن؟

لا بد وأن تكون هناك خوفة هارعة من الأبناء الإسرائيليين في ذلك التصميم العميم لإبادتهم، استبقاءً للسلطة الفرعونية وكما يروى عن رسول

الهدى ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام: «... فإن فرعون لما وقف على أن زوال ملكه على يده (موسى) أمر بإحضار الكهنة فدلوه على نسبه وأنه يكون من بني إسرائيل ولم يزل يأمر أصحابه بشق بطون الحوامل من نساء بني إسرائيل حتى قتل في طلبه نيفاً وعشرين ألف مولود وتعذر عليه الوصول إلى قتل موسى لحفظ الله تبارك وتعالى إياه...»[1].

---

(١) بحار الأنوار ٥١ : ٢١٩ - حديث حافل لمولد الإمام المهدي (عج) وطول غيبته وأن فيه سنن الأنبياء وحذو النعل بالنعل والقذة بالقذة عن الكافي بسند متصل عن سدير الصيرفي قال دخلت أنا والمفضل بن عمر وأبو بصير وأبان بن تغلب على مولانا أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام فرأيناه جالساً على التراب وعليه مسيح خيبري مطوق بلا جيب مقصر الكمين وهو يبكي بكاء الواله الثكلى ذات الكبد الحرّى قد نال الحزن من وجنتيه وشاع التغير عارضيه وأبلى الدموع محجريه وهو يقول:

سيدي! غيبتك نفت رقادي وضيقت عليّ مهادي وأسرت مني راحة فؤادي، سيدي! غيبتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد وفقد الواحد بعد الواحد يفني الجمع والعدد، فما أحسّ بدمعة ترقى من عيني، وأنين يفتر من صدري عن دوارج الرزايا وسوالف البلايا إلّا مثّل لعيني عن عوارير أعظمها وأفظعها وتراقي أشدها وأنكرها ونوائب مخلوطة بغضبك، ونوازل معجونة بسخطك؟.

قال سدير: فاستطارت عقولنا ولهاً وتصدعت قلوبنا جزعاً من ذلك الخطب الهائل والحدث الغائل وظننا أنه سمة لمكروهة قارعة أوصلت به من الدهر بائقة فقلنا لا أبكى الله يا بن خير الورى عينيك من أي حادثة تستنزف دمعتك وتستمطر عبرتك وأية حالة حتمت عليك هذا المأتم؟

قال: فزفر الصادق عليه السلام زفرة انتفخ منها جوفه واشتد منها خوفه وقال: ويلكم إني نظرت في كتاب الجفر صبيحة هذا اليوم وهو الكتاب المشتمل على علم المنايا والبلايا والرزايا وعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة الذي خص الله تقدس اسمه محمداً والأئمة من بعده عليه وعليهم السلام وتأملت فيه مولد قائمنا وغيبته وإبطائه وطول عمره وبلوى المؤمنين به من بعده في ذلك الزمان وتولد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته وارتداد أكثرهم عن دينهم وخلعهم ربقة الإسلام من أعناقهم التي قال الله تقدس ذكره ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] يعني الولاية، فأخذتني الرقة واستولت عليّ الأحزان فقلنا: يا بن رسول الله ﷺ كرّمنا وشرفنا بإشراكك إيانا في بعض ما أنت تعلمه من علم - قال: إن الله تبارك وتعالى أدار في القائم منا ثلاثة أدارها في ثلاثة من الرسل، قدر مولده تقدير مولد موسى عليه السلام وقدر غيبته تقدير غيبة عيسى عليه السلام وقدر إبطاءه تقدير إبطاء نوح عليه السلام وجعل من ذلك عمر العبد =

إن العلو في الأرض باستعلاء غاشم ظالم، واستبداء خانق جاشم، يخلِّف نفس العلو فيها لأنه فساد فإفساد فيها، ويلات وويلات في دويلات مستعلية وسلطات متخلفة عن الحق، وليس فاسد العلوِّ في الأرض يختص بالفرعوني وأضرابه، بل والدَّينون أيضاً لا يحق لهم أيُّ علو، فذلك علو أمام الله، وهذا علو أمام خلق الله وكلاهما مرفوضان في شرعة الله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١) فإذا كانت إرادة العلو في الأرض تُمانع الدار الآخرة، فبأحرى نفس العلو فيها لأنه فساد فإفساد فيها، فبمجرد أن الطاغية أحس - ولمّا يلمس - أن هناك خطراً يحدق بملكه من إسرائيل، وهم مئات الألوف لا يمكن نفيهم عن البلاد، ولا القضاء عليهم أجمع، ابتكر حينذاك طريقة همجية جهنمية للقضاء على الخطر المحسوس من هذه الطائفة المنسجمة، غير المعتقدة في

= الصالح أعني الخضر عليه السلام دليلاً على عمره - فقلت: اكشف لنا يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن وجوه هذه المعاني - قال: أما مولد موسى عليه السلام فإن الله لما وقف... كذلك بنو أمية وبنو العباس لما وقفوا على أن زوال ملكهم والأمراء والجبابرة منهم على يد القائم منا ناصبونا العداوة ووضعوا سيوفهم في قتل آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإبادة نسله طمعاً منهم في الوصول إلى قتل القائم عليه السلام ويأبى الله أن يكشف أمره لواحد من الظلمة إلّا أن يتم نوره ولو كره المشركون - وأما غيبة عيسى عليه السلام...

وفي نور الثقلين ٤: ١١٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن يوسف بن يعقوب عليه السلام حين حضرته الوفاة جمع آل يعقوب وهم ثمانون رجلاً فقال: إن هؤلاء سيظهرون عليكم ويسومونكم سوء العذاب وإنما ينجيكم الله من أيديهم برجل من ولد لاوي بن يعقوب اسمه موسى بن عمران غلام طوال جعد آدم فجعل الرجل من بني إسرائيل يسمي ابنه عمران ويسمي عمران ابنه موسى، فذكر أبان بن عثمان أبي الحصين عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ما خرج موسى حتى خرج قبله خمسون كذاباً من بني إسرائيل كلهم يدعي أنه موسى بن عمران فبلغ فرعون أنهم يرجفون به ويطلبون هذا الغلام فقال له كهنته وسحرته: إن هلاك دينك وقومك على يدي هذا الغلام يولد من بني إسرائيل فوضع القوابل على النساء وقال: لا يولد العام ولد إلّا ذبح ووضع على أم موسى قابلة..».

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

ربوبيته الأعلى من نواحٍ أربع: أن ١ - ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، ٢ - ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، ٣ - ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾، ٤ - ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ومن خلفيات العلوّ النحسة جعل الآهلين في أرض شيعاً متفرقين ليذوق بعضهم بأس بعض، فهم ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ﴾[1] وبئس اللباس لباس الشيع للمجتمع: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ﴾[2] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[3] ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[4]، فالشِّيَع والأشياع في الدين والدينين ما يزيِّغه الدين الحق، اللهم إلّا شيعة الحق بلا أشياع متخلفين عنه أو مختلفين فيه، وهذه شيطنة مدروسة من الطاغية في علوه أن ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ متفرقين وهو من باب فرِّق تسد، وبالإمكان حينئذ أن يستضعف كلّ الشيع، مهما كان استضعافهم دركات، وقد كان من أسفلَها استضعاف بني إسرائيل، وكما استخف ﴿قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾[5].

فلقد فرق - فيمن فرق بينهم من القاطنين في مصر - شَعبَ إسرائيل، حيث استقدم يوسف من قبلُ أبويه وإخوته وأهله أجمعين من كنعان إلى مصر فتكاثروا وأصبحوا شعباً كبيراً، فأخذت النعرة القومية والطائفية الفرعونية يجعلهم شيعاً كما جعل الآخرين كذلك شيعاً، وكان أشد الاستضعاف على هؤلاء الذين كان يخافهم على عرشه، فتفرقت كلمة بني إسرائيل أيادي سبأ واستفاد الطاغية بِشَيعِهِمْ أن أخذ يذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

تذبيح الأبناء كان يعم شق بطون الحوامل من بني إسرائيل أم ذَبح

(١) سورة الروم، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.
(٣) سورة الحجر، الآية: ١٠.
(٤) سورة القمر، الآية: ٥١.
(٥) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

الولائد بعد الولادة حيث ما ثُقِفوا، واستحياء النساء من الحياة إبقاءً لهن بشأن الخدمات الإجبارية منزلية وسواها، ومن الحياء إزالة لحيائهن في الدعارات، فقد كانت هذه لهن استحياءً أشر من تذبيحهن، ثم الرجال الذين فقدوا أبناءهم ونساءهم أمرهم أمرُّ وأنكى، وذلك ثالوث العذاب بحق الشعب الإسرائيلي بعد عذاب الشِّيَعَ فيهم والعداء الشائع بينهم.

هذه هي خماسية المخططات الفرعونية الجهنمية تدميراً لهذا الشعب عن بكرته ولكيلا يَطْلَعَ موسى من وسطهم، كما أرادها فرعون بخيله ورجله تجنيداً لكل حِيلَهِ، ولكن الله يريد غير ما يريده الطاغية ولا يكون إلّا ما أراد الله مهما قويت الداهية الدهياء، من الطاغية اللعناء:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾:

هؤلاء المستضعفون المضغوطون تحت أنيار الظلم وأنياب العضّ الفرعوني، المرذَّلون المعذبون بألوان العذاب[1] يريد الله أن يمن عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكن لهم في الأرض ويرُي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون من السلطة الموسوية، أيادٍ جليَّة من فرعون وملئهِ، ويدٌ خفية من رب العالمين تتصارعان، وبطبيعة الحال لا تُصرع إلّا أيادي فرعون بجنوده حيث ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[2].

وهذه الإرادة المستمرة ﴿وَنُرِيدُ﴾ ليست لتختص مستضعفي بني إسرائيل، بل هي متواصلة - قضية العدل والرحمة الربانية - على مدار الزمن غابراً

(١) الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب عليه السلام في الآية: قال: يوسف وولده.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٠.

وحاضراً وإلى يوم النشور، مهما اختلفت درجاتها حسب مختلف الفاعليات والقابليات والظروف المقتضية لتحقيق إرادة الله، فكما أن «نريد» هنا حكاية لحالٍ ماضية، كذلك هي إخبار للحال والأحوال المستقبلة بعد الماضية.

وأفضل المستضعفين هم أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم آلاف سلام وتحية، وكما يروى عن الإمام علي عليه السلام: «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها»[1]، فـ «هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم يبعث الله مهديهم بعد جهدهم فيعزهم ويذل عدوهم»[2].

أجل والقائم المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين هو آخر هؤلاء المستضعفين[3] وله المن الأوفر من الإمامة وخلافة الأرض اللهم عجّل فرجه وسهل مخرجه..

---

(١) نهج البلاغة.. وتلا عقيب ذلك ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القَصَص: ٥] ورواه مثله السيد الرضي في الخصائص عن الصادق عليه السلام عنه عليه السلام..

(٢) نور الثقلين ٤: ١١٠ كتاب الغيبة للشيخ الطوسي بإسناده إلى محمد بن الحسين عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام في الآية قال:... وفيه عن أصول الكافي عن أبي الصباح الكناني قال: نظر أبو جعفر إلى أبي عبد الله عليه السلام يمشي فقال: ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله عز وجل: ونريد..

(٣) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى حكيمة قالت: لما كان اليوم السابع من مولد القائم عليه السلام جئت إلى أبي محمد عليه السلام فسلمت عليه وجلست فقال: هلمي إليّ ابني فجئت بسيدي وهو في الخرقة ففعل به كفعله الأول ثم أدلى لسانه في فيه كأنما يغذيه لبناً وعسلاً ثم قال: تكلم يا بني قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وثنى بالصلاة على محمد وعلي وعلى الأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين حيث وقف على أبيه عليه السلام ثم تلا هذه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ [القَصَص: ٥].

وفي تفسير البرهان ٣: ٢١٩ روى العياشي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق بشيراً ونذيراً إن الأبرار من أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته وإن عدونا وأشياعه بمنزلة فرعون وأشياعه. وفيه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في مسند فاطمة عليها السلام بسند متصل عن زاذان عن سلمان قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وفيه تفصيل=

وقد يروى عن رسول الهدى ﷺ مخاطباً إياهم عليهم السلام: «أنتم المستضعفون بعدي...»[1]. وذلك الاستضعاف الذي يقتضي الرحمة الخاصة الإلهية بمنح الإمامة ووراثة الأرض ليس استضعافاً روحياً عقائدياً، وإنما هو الضغط عليهم في تحقيق الشرعة الإلهية كيلا تتحقق كما تحق، فلا تقصير منهم في هذا المجال، فحياتهم الإيمانية هي حياة التقية حتى يأتي الفرج من الله بما قدموا من ظروفه المواتية له.

وهكذا يُعلن ربنا في هذه الإذاعة القرآنية أن حياة الفرعنة الطاغية لا تدوم، إعلاناً صارخاً بواقع الحال وما هو مقدر في المآل عاجلاً أم آجلاً، أن تقف القوتان وجهاً لوجه، فقوة الله هي التي تتهاوى دونها كلّ القوى فإنه شديد القوى.

وترى ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هنا هم كلّ المستضعفين في التاريخ الرسالي؟ ومنهم مقصرون ظالمون موعودون بالنار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ

= أسماء الأئمة الإثني عشر إلى أن قال ﷺ: ... ثم محمد بن الحسن الهادي المهدي الناطق القائم بحق الله ثم يا سلمان إنك مدركه ومن كان مثلك ومن تولاه بحقيقة المعرفة، قال سلمان: فشكرت الله كثيراً ثم قلت: يا رسول الله وإني مؤجل إلى عهده؟ قال يا سلمان اقرأ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا...﴾ فإذا جاء وعد أولاهما... قال سلمان فاشتد بكائي وشوقي ثم قلت: يا رسول الله ﷺ بعهد منك؟ فقال: أي والله الذي أرسل محمداً ﷺ بالحق مني ومن علي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة عليهم السلام وكل من هو منا ومضام فينا أي والله يا سلمان وليحضرن إبليس وجنوده وكل من محض الإيمان محضاً ومحض الكفر محضاً حتى يؤخذ بالقصاص والأوتار والأثوار ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] وتحقق تأويل هذه الآية ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ... يَحْذَرُونَ﴾ [القَصَص: ٥،٦].

(١) المصدر في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى محمد بن سنان عن مفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رسول الله ﷺ نظر إلى علي والحسن والحسين عليهم السلام فبكى وقال: أنتم المستضعفون بعدي - قال المفضل: فقلت له: ما معنى ذلك يا بن رسول الله ﷺ قال: معناه أنكم الأئمة بعدي أن الله عز وجل يقول: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ...﴾ [القَصَص: ٥] فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[١].

ومنهم قاصرون ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[٢] فمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً كيف يصبح من أئمة المؤمنين؟

إنهم هم المظلومون تحت أنيار الظلامات والظلمات، حيث يتبلور ايمانهم وتقوى هداهم وتقواهم، مهما اختلفت درجاتهم ومن أدناهم القاصرون، فالأئمة منهم هم القادة الهداة إلى الله.

وكما الإمامة والوراثة للمستضعفين درجات حسب القابليات والمعطَيات، كذلك أرض التمكين لهم درجات، من أرض مصر أو ما والاها للأئمة الإسرائيليين، أمّا هيه من أرض بعدها، ومن كلّ الأرض كما في دولة الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه.

وقد دلت آية النور على ذلك التمكين المكين، الرصين الأمين ﴿... وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا...﴾[٣].

وهم الورثة والذين يعيشون تحت إمرتهم أولاء، وقد جمعت بينهما آية الأنبياء[٤] والنور[٥]: إن إرادة المن المستمرة لهؤلاء المستضعفين تتمحور قواعد أربع هي ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ وهم الرعيل الأعلى منهم ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ وهي تجمع المأمومين إلى هؤلاء الأئمة، كما ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.
(٢) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.
(٣) سورة النور، الآية: ٥٥.
(٤) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ [النور: ٥٥].
(٥) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ حيث يرى كلّ فراعنة التاريخ وجنودهم من هؤلاء الأكارم ﴿مَّا كَانُوا۟﴾ هؤلاء الأنكاد ﴿يَحْذَرُونَ﴾ منهم، وترى كيف يولد موسى وعيون المراقبات الفرعونية ترقب الحوامل، فتشق بطونها قبل الولادة، إلّا أن تفلت عنهن فالتة؟

علّها من الفالتات القلة، أم «إنه لما حملت به أمه لم يظهر حملها إلّا عند وضعها له»[1] وكما كان الحمل بصاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه[2] ستراً ستيراً عن عيون المراقبات في الدولة العباسية ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

---

(١) نور الثقلين ٤: ١١١ عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام قال: . . . وكان فرعون قد وكل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط يحفظونهن وذلك أنه كان لما بلغه عن بني إسرائيل أنهم يقولون إنه يولد فينا رجل يقال له موسى بن عمران يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك: لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون هلاك فرعون وأصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون وفرق بين الرجال والنساء وحبس الرجال في المجالس فلما وضعت أم موسى بموسى عليه السلام نظرت إليه وحزنت عليه واغتمت وبكت وقالت: يذبح الساعة؟

فعطف الله عزّ وجلّ قلب الموكلة بها عليه فقالت لأم موسى: ما لك قد اصفر لونك؟ فقالت: أخاف أن يذبح ولدي، فقالت: لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلّا أحبّه وهو قول الله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩] فأحبته القبطية الموكلة بها وأنزل الله على أم موسى التابوت ونوديت أمه ضعيه في التابوت فاقذفيه في اليم وهو البحر ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فوضعته في التابوت وأطبقته عليه وألقته في النيل.

(٢) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة وباسناده إلى حكيمة بنت محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام عمة أبي محمد الحسن عليه السلام أنها قالت: كنت عند أبي محمد عليه السلام فقال: بيتي الليلة عندنا فإنه سيلد الليلة المولود الكريم على الله عزّ وجلّ الذي يحيي به الله عزّ وجلّ الأرض بعد موتها، فقلت: ممن يا سيدي؟ ولست أدري بنرجس شيئاً من أثر الحمل؟ فقال: من نرجس لا من غيرها قالت: فوثبت إليها فقبلتها ظهر بطن فلم أر بها أثر الحبل فعدت إليه فأخبرته بما فعلت فتبسم ثم قال لي: إذا كان وقت الفجر يظهر لك الحبل لأن مثلها مثل أم موسى لم يظهر بها الحبل ولم يعلم أحد إلى إلّا وقت ولادتها لأن فرعون كان يشق بطون الحبالى في طلب موسى وهذا نظير موسى. . .».

موسى الرسول عليه السلام يولد في تلك الضغطة الفرعونية الوحشية، وأمه حائرة، تخشى أن يصل نبأ هذه الولادة المباركة إلى الجلادين فيذبحوه، وهي عاجزة عن حمايته وإخفائه فإذا الوحي الحنون يتلقف قلبها الرنون:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾:

﴿أَوْحَيْنَآ﴾ هنا تعني وحي الإلهام دون وحي النبوءة والرسالة، وأدنى منه الوحي إلى النحل وللأرض، وأعلى منه ومن كلّ وحي إلّا الأخير وحي الإلهام إلى قلوب الأئمة المعصومين المحمديين صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ليس عليك فيه أمر إلّا الرضاعة: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ...﴾[1].

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما لم يهجس هاجس أو يحدث حادث ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ...﴾ وهو النيل فإنه في عُظمه كأنه البحر، واليم يشمل البحر والنهر الكبير كالنيل، أتراها ما كانت خائفة عليه، وهي خائفة منذ حبلت حتى وضعت؟

الخوف له مراحل، فقد يُتحمل إذ لا يعدو الخيال ولمّا تَقع واقعة، وذلك خوفها من قَبلُ، أم لا يتحمل حين تُشرِف الواقعة لتقع فلا بد من محاولة قاطعة للفرار عنها، وقد تعنيه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ خوفاً شديداً لا قبل لها به بعد المتعوَّد في ذلك الجوِّ المُخيف.

---

(١) سورة طه، الآيتان: ٣٨-٤٠.

أمٌّ حنونة ترضع ولدها خائفة عليه، فكيف تسمح لنفسها أن تلقيها في اليم فراراً عن حفرة إلى بئرٍ؟ لكن ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ من غرقه أو قتله ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ من فراقه لـ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ لترضعيه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لما بلغ أشده.

وهذه طمأنة ربانية ورَبطة إلهية على قلبها أن تلقي وليدها الرضيع بيدها إلى اليم!، أجل «لا تخافي» من غرقه فإن عين الله ترعاه، ويده تراعيه حين تخفيه عن بأس فرعون، تلك القدرة التي تجعل النار لجده إبراهيم برداً وسلاماً، وتجعل له البحر ملجأً ومناماً! ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ حيث الفراق لا يدوم ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾:

هنا بين الوحي إليها والالتقاط فَجْوة مذكورة في طه: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾[1] أمراً تكوينياً لليم بإلقاء ما تلقّاه بالساحل، ثم ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾[2] أمرٌ ثانٍ لعدوه فرعون تكوينياً، وبالنتيجة ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ - إذ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[3]!، وهنا أصبح موسى لُقَطة يلتقطها آل فرعون، قصداً إلى ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ ولكن الواقع المجهول لديهم ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فاللام هنا تعني واقع الغاية، و﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ تعني ظاهرها وهم خاطئون واقع الأمر ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾: خطأً عارماً في كلّ حياتهم الجهنمية الطاغية حيث ذبح آلافاً للحصول على موسى عليه السلام، وهنا خطأً عما يُرام للعرش الفرعوني حيث استقدموا بذات أيديهم بوارهم ودمارهم، وهذا خطأٌ

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.
(٢) سورة طه، الآية: ٣٩.
(٣) سورة طه، الآية: ٣٩.

منهم لصالح الرسالة الموسوية، وكل حياتهم خطأ لطالحها وصالح موسى، وقد جمعهما ﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

فهل كانت أمه تخاف إلّا ذلك الالتقاط؟ كلّا! إلّا أن القدرة الربانية تتحدى بأسلوب سافر، ففي حين يجنِّد فرعون وهامان وجنودهما كلّ إمكانياتهم وعيونهم وإرصادهم على بني إسرائيل كيلا يتفلَّت منه موعودهم، فها هي ذي يد القدرة تُلقيه في أيديهم مجرداً من كلّ قوة بحنان لهم ومحبة ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾! - لماذا؟ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ ويكون لأمه قرة عين ولشعب إسرائيل نجاةً عن فرعون وملئِهِ!:

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾:

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خطاب الجمع للحشد القاتل من آمر ومأمور وسبب ومباشر، وهذه شفاعة من ملكة البلاط، وطبعاً تؤثر أثرها إثرها، لا سيما وأنها مشفوعة بـ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ ترغيباً في الإبقاء عليه بعد الترعيب عن قتله، خطوتان مباركتان منها في سبيل الحفاظ عليه كما أراد الله!

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الخطر الحادق بهم من هذا الوليد اللقيط، رغم أن التقاطه هكذا من اليم كان يشعرهم أنه من بني إسرائيل، وإلّا فلماذا يلقى بتابوته في اليم؟ طبعاً هو إلقاء قاصد ترجيحاً لغرقه بطبيعة الحال على أن يقع في فخ فرعون وملئه.

هنا ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[1] تجعله محبوباً لآل

---

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

فرعون، لا سيما امرأته المؤمنة إذ تقول له قالَتها: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ إذ ليس لنا ولدٌ نأنس به فـ ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ تدليلاً على تصميمهم لقتله ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ملكنا، أم وأقرب من ذلك «أن نتخذه ولداً» - «وهم» كلهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ مَن هو هذا اللقيط؟

وهنا النص ساكت عما رده فرعون على قالة امرأته، إلّا أنه ما قتله، وأما أنه قرة عين له فلا خبر عنه، فـ «لو قال فرعون قرة عين لي ولك لكان لهما جميعاً»[1].

فيا للقدرة القاهرة الباهرة التي تسخر منهم بتحدٍّ سافر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ويا لفؤاد أم موسى متفئِّداً فارغاً من فراقه، وكيف ألقته في اليم فألغته في خضم أمواجه؟!:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾:

الفؤاد هو القلب المتفئِّد إما بنور العرفان: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[2]

(١) الدر المنثور ٥ : ١٢١ - أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس قال قالت امرأة فرعون: قرة عين لي ولك لا تقتلوه، قال فرعون: قرة عين لك أما لي فلا، قال محمد بن قيس قال رسول الله ﷺ : لو قال. . .».

وفي نور الثقلين ٤ : ١١٥ عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في عرض القصة. . وكان لفرعون قصر على شط النيل منزهاً فنظر من قصره ومعه آسية امرأته إلى سواد النيل ترفعه الأمواج والرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصر فرعون فأمر فرعون بأخذه فأخذ التابوت ورفع إليه فلما فتحه وجد فيه صبياً فقال: هذا إسرائيلي! فألقى الله في قلب فرعون لموسى محبة شديدة وكذلك في قلب آسية رحمة الله عليها وأراد فرعون أن يقتله فقالت آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩] أنه موسى.

وفي المجمع قال رسول الله ﷺ : والذي يحلف به لو أقر فرعون بأن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله به كما هداها ولكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه.

(٢) سورة النجم، الآية: ١١.

أم نار النكران: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾[1] أم نار الهجران على محور الإيمان ولمّا يتم في القلب ويطم، وهكذا أصبح فؤاد أم موسى فارغاً عما كان من اطمئنان بوحي وعن كلّ شيءٍ إلّا همُّ موسى! وهي طبيعة الحال في قلوب الأمهات في هذه الحالات الفارغة التي تُفرغ عن العقل واللب فتوصل القلب إلى حالة فارغة عما فيه من اطمئنان وإيمان، متعلقاً بفلذة كبدها فـ «أصبح...» ﴿فَـٰرِغًا﴾ لحدٍّ ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أنه ولدها وقد قذفته في اليم، صارحة صارخة دون تفكير في العاقبة في تلكم الأجواء المراقبة، فتقول هاتفة كالمجنونة: أنا التي ألقيته فألغيته، فأغيثوني في ولدي الغريق في خضمِّ اليم!

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ربطة لاحقة لما سبقت من طَمأنة الوحي ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما وعدناها، فيملأ قلبها من الإيمان الاطمئنان فلا تبدي من أمره شيئاً حتى يأتي وعد الله.

أجل وفي مثل هذه الحالة الموحشة المضطربة لا يتمكن إنسان أياً كان أن يملك نفسه وقلبه الفارغ إلّا أن يدركه الملك المنان.

وقد تعني ﴿فَـٰرِغًا﴾ الفراغ عن كلّ هم وغم، لمّا رأته في البلاط الفرعوني قرة عين، ﴿فَـٰرِغًا﴾ وفرحاً لحد ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أنه ولدها ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ تضبيطاً له كيلا تتفلت في مصارحة لا اختيارية ﴿رَّبَطْنَا ... لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولكن ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تشي إلى ضعف في إيمانها بفراغ قلبها، فلما ﴿رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ خرج عن فراغها إلى إيمانها بوعد الله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم ﴿وَأَصْبَحَ﴾ هنا بعد اللتيا والتي - لا عند الوحي إليها - لا تناسب

---

(١) سورة الهمزة، الآيتان: ٦، ٧.

إلّا فراغ اللّاطمئنان، وهذه طبيعة الحال في فؤاد غير المعصوم مهما أوحي إليه ما يُطمئنه، ثم ﴿رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ تحكيم على قلبها المتقلب المتمزق المتفرق، الفارغ الخاوي عما وعد الله.

وقد تؤيد ذلك الفراغ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بعد ردّه إليها، والفراغ عن كلّ هم وغم هو العلم بأن وعد الله حق!

وقد يلمح ذلك الفراغ لفؤادها، أنها لمحت بالتقاطه ففزعت، فلذلك:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾:

فهذه القالة بفراغ الفؤاد لمحة لامعة بقضية الحال، أنها لما قذفته في اليم تبعته ناظرة إلى الأمواج أين تحوِّله، فبصُرت به يلتقطه آل فرعون، فأصبح فؤادها فارغاً فقالت لأخته قصيه، ولولا أنها لمحت به خارج اليم لم تكن لقالتها هذه أية مناسبة!.

﴿قُصِّيهِ﴾ اتبعي أثره نحو القصر ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ إبصار البصيرة، لا فقط إبصار البصر، فـ «أبصر» هي في إبصار البصر، و«بُصر به» هي البصيرة، أم الإبصار في خفية، ولقد بصرت به خفية وبكل وجودها ﴿عَن جُنُبٍ﴾: مكان بعيد ومجانبة مزورة في نظرتها ألّا يُنظر إليها وإلى نظرتها، فالجنب يشملها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها بصُرت به، رغم الرقابة التامة التي هي قضية الحال في مثل ذلك اللقيط! أم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته لأنها ما بصُرت به كأخت إلى أخ، وإنما كمتفرج إلى القصر بشاطئ البحر، وعلى أية حال كان بصرها به في خفية وسُترة كيلا يخيَّل إليهم إن رأوها أن لها صلة بموسى(١).

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٢١ - أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي روّاد أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فرعون؟ قالت: وقد فعل الله ذلك يا رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قالت: =

هنا اطمأنت أم موسى عن فراغ فؤادها، متأكدة أنه آمنٌ في البلاط، ولكنها راجية بعدُ رجوعَه لترضعه كما وعد الله، وكان كما رجت:

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾:

ما كانت الخطوة الأولى إلّا للحفاظ على حياة موسى وكونه، ثم إلى الخطوة الثانية لحيويته وكيانه، إذ لا يصلح أن يرتضع من أية مرضعة ولا سيما القبطيات المشركات ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ حرمة تشريعية وتكوينية، وهو الله تعالى المتكفل لإبعاده عن المراضع إلّا أمه، وهو الملهم له ألّا يرتضع من أية مرضعة إلّا أمه فكان كما أراد الله وارتضاه.

و﴿الْمَرَاضِعَ﴾ جمع مُرضع وقد يجمع هنا المصدَر ومكان الرضعة وزمانَها، فمكانها هو الثدي فلا يقبل أي ثدي، وزمانها زمان الحاجة إلى الرضاع، والحرمة حلقت على كلّ زمان وكل مكان للرضعة، وحتى إذا أخذ لبن من مرضعة حتى يشربه دون مرضعة فكذلك الأمر، حيث التحريم شامل للرضعة بأصلها وزمانها ومكانها.

و﴿مِن قَبْلُ﴾ قد تعني من قبل اقتراح أختها، وأخذهم إياه من اليم، ومن قبل ولادته وانعقاد نطفته، حيث المراضع غير الصالحة لا تناسب الرسالة الصالحة، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾(١) لا تتناسب الرضعة الطالحة «فقالت...».

هنا فجوة بين القصة، وطبعاً هي أنه لم يقبل أي مرضع وكان جائعاً عطشاً، فكانوا ناظرين إلى مرضع يقبله، فجاءَت أخته فيمن جئن حسب الطلب، للإدلاء إلى من ترضعه «قالت» متسائِلة لصالحهم، متنكرةً ﴿هَلْ

= بالرفاء والبنين، وفيه أخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: ما شعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وامرأة فرعون فقلت: هنيئاً لك يا رسول الله ﷺ.

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

﴿أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ كفالة الرضاعة وسواها، لا فحسب بل ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ كما يناسب لقيط البلاط وقرة عين فرعون وزوجه. وبطبيعة الحال هم يَقبلون ويُقبلون إلى أهل بيت يكفلونه في بعدي الكفالة اللائقة المرغوبة المرموقة، وطبعاً بجعلٍ على الكفالة «... ترضع ولدها وتأخذ أجرها»[1]، وتراهم كيف لم يتفطنوا بما قالت أنها على معرفة بمن يناسب تلك الكفالة، فيفتشوا عن مصدره ومورده علّه أهل بيت موسى نفسه؟

لقد أعماهم الله عن ذلك وهم في حالة محرجة مخرجة لهم عن كلّ همٍّ إلّا الحصول على من يكفله، وأخيراً:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

لقد ارتدت اللقطة إلى أمه الملهوفة، بإرادة الله، لـ ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بحضانته ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بعد ما ربط الله على قلبها ووعدها من قبلُ أن يرده إليها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقّ الوعد والوعد الحق من الله للأولى أو الأخرى، و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا يعني جهل التجاهل والتغافل عن تقصير دون قصور، اللهم إلّا بتقصير.

وما الذي حصل بعدُ حتى بلغ أشده؟ النص ساكت عن هذه الفجوة لأنها ليست من صحيح القصص المُرام في الدعوة القرآنية، فإنما ينتقل من رضاعه إلى بلوغ أشده مع العلم أنه في هذه الفترة كان كما قال الله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ أينما كان وأيان.

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٢٣ - أخرج أبو داود في المراسيل عن جبير بن نفير قال قال رسول الله ﷺ: مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجعل يعني يتقون على عدوهم مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها.

وفي البحار ١٣: ٢٧ قال الراوي قلت لأبي جعفر عليه السلام: فكم مكث موسى غائباً عن أمه حتى رده الله عليها؟ قال: ثلاثة أيام.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾:

الأشد جمع الشَّدِّ وأقله ثلاث شدَّات هي: شدّ العقل والرشد إلى شد الجسم، وترى ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هنا هما الرسالة وعلمها؟ وآية الشعراء تؤجلها إلى ما بعد رجوعه إلى مدين!: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1] فلم يكن قبلئذٍ رسولاً فهو حكم غير رسالي!

علّهما من ذي قبل حكمُ النبوءَة وعلمها قبل الرسالة، حيث الحكم والعلم للأنبياء درجات، ابتداءً من الوحي غير الرسالي وهو النبوءة، ثم الرسالي، ومن ثم النبوَّة وهي الرفعة بين المرسلين، ثم ولاية العزم وهي الإمامة بين سائر المرسلين، وفي الختام إمامة الأئمة الرسالية ككل وهي الخاصة بخاتم النبيين ﷺ وقد تدرَّج موسى إلى ما قبل الأخيرة، وكما أن بلوغ الأشد هو اكتمال هذه الثلاث وهو في العادة بين ١٨ سنة و٣٠[2]، كذلك «استوى» بعدُ هو القيام بنفسه في حاجيات الحياة وهو إلى الأربعين بل هو من منتجات بلوغ الأشد، وهنا ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وهذه هي ضابطة الحكم والعلم الرباني ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كلًّا على قدر إحسانه، وما قدّره الله من كيانه، من مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان إلى أوّل العابدين وخاتم النبيين ﷺ، ولأن الحكم الرسالي وعلمه ليسا جزاء الإحسان، وإلّا أصبح كلّ محسن رسولاً، فلا يعني ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هنا الرسالة، فقد تكون نبوءَة الوحي أمّا دونها من إلهامات غيبية هي من مخلفات الحالات التصفوية للمحسنين.

فكون الحكم والعلم جزاء إحسانه كما ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3] بعد رجوعه من مدين، هذان برهانان ساطعان على أن ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هنا لا يعنيان الرسالة.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١١٧ عن معاني الأخبار بسند متصل عن الأحول عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القَصَص: ١٤] قال: أشده ثماني عشرة سنة واستوى التحى.
وفي أحاديث متظافرة أنه لم يبعث نبي إلّا على رأس أربعين سنة، اللهم إلّا يحيى في وجه من الآية ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريَم: ١٢].

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١.

وهنا نتلمح أن بلوغه أشده واستواءه كان عند بلوغه الثلاثين حيث الرسل يرسلون عند الأربعين، وكان بين الحكمين عشر سنين.

أتراه في هذه الفترة وهي زهاء ثلاثين سنة أم تزيد، تراه ظل يترعرع في البلاط الفرعوني، مستريحاً في حياة تحضيرية لتلك الرسالة السامية، وهو يرى كيف يُسام قومه سوءَ العذاب بتذبيح الأبناء واستحياء النساء وسائر البغي اللئيم، وأبشع صورة للفساد الشايع الأثيم؟

ليست هذه سيرة المحسنين الذين يُجزون حكماً وعلماً! بل كانت حياته في تلك الفترة إحساناً حسب المكنة بشعبه منذ غلمته[1] وكما أغاث الذي من شيعته على الذي من عدوِّه، فقد كان عطوفاً بشيعته، رقيباً عليهم، ويطبيعة الحال منعزلاً عن التأثر من جو البلاط الطاغي كما يمكن في تقية تحافظ على كيانه على قدر إمكانه، وتلمح لهذه الحالة إجمالة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعقيباً رقيباً على بيئته قبل أن يؤتى حكماً وعلماً هكذا، وكما دخوله المدينة على حين غفلة من أهلها لمحة صارحة بابتعاده عن المدينة خوفة من جلاوزة البلاط!:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾:

---

(١) نور الثقلين ٤: ١١٧ عن تفسير القمي: .. فلما درج موسى كان يوماً عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد لله رب العالمين، فأنكر فرعون ذلك عليه ولطمه وقال: ما هذا الذي يقول؟ فوثب موسى على لحيته وكان طويل اللحية فهلبها أي قلعها فآلمه ألماً شديداً فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته: هذا غلام حدث لا يدري ما يقول وقد لطمته بلطمتك إياه فقال فرعون: بلى يدري، فقالت له: ضع بين يديه تمراً وجمراً فإن ميز بين التمر والجمر فهو الذي تقول، فوضع بين يديه تمراً وجمراً وقال له كلْ فمد يده إلى التمر فجاء جبرئيل عليه السلام فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فاحترق لسانه وصاح وبكى فقالت آسية لفرعون: ألم أقل لك إنه لم يعقل؟ فعفى عنه.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ فيه احتمالان اثنان، أن كان خارج المدينة خوفة من فرعون وملئه ثم دخلها فرأى ما رأى؟ أم كان القصر الملكي خارج المدينة «فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال وكان ينكر عليه ما يتكلم به موسى من التوحيد حتى همّ به فخرج موسى من عنده ودخل المدينة...»[(١)].

كلٌّ محتمل والجمع أجمل، فعلّه كان يتردد في القصر ويقول قالة التوحيد ويفعل فعلته عندهم فهمّ به فرعون حتى ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ...﴾ لآخر مرة ثم لم يرجع إلى فرعون إلّا بعد رجوعه من مدين رسولاً، ولقد كان من المحسنين حين كان في البلاط، دون أي تأثر بذلك الجو المظلم الظالم ولا تربٌّ إلّا ربوة جسدانية ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[(٢)] وعلى أية حال ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ وهي بطبيعة الحال مصر ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وحين الغفلة قد تلمح أنه كان ملاَحقاً في المدينة من قِبَل السلطة وعيون القصر إذ «همّ به فرعون»[(٣)] و قد تلمح ﴿حِينِ﴾ أنه وقت الاستراحة

(١) البحار ١٣ : ٢٧ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفصيل القصة.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٨.

(٣) البحار ١٣ : ٣٦ بسند متصل عن سعيد بن جبير عن سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام عن أبيه سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام عن أبيه سيد الوصيين علي بن أبي طالب عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما حضرت يوسف الوفاة جمع شيعته وأهل بيته فحمد الله وأثنى عليه ثم حدثهم بشدة تنالهم يقتل فيها الرجال وتشق بطون الحبالى وتذبح الأطفال حتى يظهر الله الحق في القائم من ولد لاوي بن يعقوب وهو رجل أسمر طويل ووصفه لهم بنعته فتمسكوا بذلك ووقعت الغيبة والشدة ببني إسرائيل وهم ينتظرون قيام القائم أربعمائة سنة حتى إذا بشروا بولادته ورأوا علامات ظهورته اشتدت البلوى عليهم وحمل عليهم بالخشب والحجارة وطلب الفقيه الذي كانوا يستريحون إلى أحاديثه فاستتر وتراسلوه وقالوا: كنا مع الشدة نستريح إلى حديثك فخرج بهم إلى بعض الصحارى وجلس يحدثهم حديث القائم ونعته وقرب الأمر وكانت ليلة قمراء فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم موسى عليه السلام وكان في ذلك الوقت حديث السن وقد خرج من دار فرعون يظهر النزهة فعدل عن موكبه وأقبل إليهم وتحته بغلة وعليه طيلسان خزّ فلما رآه الفقيه عرفه بالنعت فقام إليه وانكب على قدميه فقبلهما=

النوم لأهل المدينة، ولكنه دخول قاصد ذلك الحين إذ كان يخافهم من فرعون وملئه، وإلّا فلماذا دخلها على حين غفلة من أهلها؟.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وهذا مما يدل على أنه كان معروفاً لدى شعبه وأتباعه في الإيمان، خلاف الآخرين، فإن ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ دون من أشياعه، و﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ دون من أعدائه، مما يوضح ذلك في بعدين ثانيهما إن «هذا» الأوّل صادر منه صدور الأشياء من مصادرها وهو هنا مصدر الإيمان، و«هذا» الثاني صادر من عدوه فرعون وهو مصدر الكفر، إذاً فالأول موحد والثاني مشرك، والمشرك المحارب يجوز أو يجب قتاله وقتله إلّا في ظروف استثنائية تتغلب على صالح الموقف.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وهذه الاستغاثة مما يؤكد وجوب إغاثة المؤمن على الكافر.

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ والوكز هو الضرب بجميع الكف وليس هو قتلاً، فلا أنه قصد قتله، ولا أن الوكز مما يقتل في العادة، ولكنه صادف أن قضى عليه بوكزه إذ كان قوياً، وحالة الدفاع عن المؤمن حالة استثنائية تقوي الضعيف فضلاً عن القوي، فقد وقع ما لم يقصد وقصد ما لم يقع فـ ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، أتراه يشير بـ ﴿هَٰذَا﴾ إلى عمله؟ وكيف يكون عمل موسى - الذي أتاه الله حكماً وعلماً بإحسانه - من عمل الشيطان!

لا ريب أن دفاعه عن الذي من شيعته بوكزته كان قضية الإيمان ومن

= ثم قال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرانيك فلما رأى الشيعة ذلك علموا أنه صاحبهم فأكبوا على الأرض شكراً لله عَزَّوَجَلَّ فلم يزدهم على أن قال: أرجو أن يعجل الله فرجكم ثم غاب بعد ذلك وخرج إلى مدينة مدين...

عمل الرحمن، وحاشاه أن ينسبه إلى الشيطان، فقد «يعني الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى من قتله»[1] بوكزه دون تقصُّد لقتله.

أم يعني «هذا» الذي ﴿مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أنه من عمل الشيطان كما قال الله لنوح عن ابنه ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[2] ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ يعمل أشياعاً له كهذا العدو، ثم يحملهم على عمله؟ أم أن «هذا» يعنيهما، هذا العدو وعمله، وما أجمله جمعاً، وهما مما أجَّلا الرسالة الموسوية، معجّلاً له

(١) بحار الأنوار ١٣: ٣٢ ج، ن في خبر ابن الجهم قال سأل المأمون الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القَصَص: ١٥] قال الرضا عليه السلام: إن موسى عليه السلام دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها وذلك بين المغرب والعشاء فوجد فيها رجلين... فقضى موسى عليه السلام على العدو بحكم الله تعالى ذكره فوكزه فمات قال: هذا من عمل الشيطان، يعني الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى عليه السلام من قتله، إنه: يعني الشيطان، ﴿عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القَصَص: ١٥].
قال المأمون: فما معنى قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القَصَص: ١٦]؟ قال: يقول: إني وضعت نفسي غير موضعها بدخولي هذه المدينة ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، قال موسى: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [القصص: ١٧] فن القوة حتى قتلت رجلاً بوكزة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القَصَص: ١٧] بل أجاهد في سبيلك بهذه القوة حتى ترضى ﴿فَأَصْبَحَ﴾ [القَصَص: ١٨] موسى عليه السلام ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ [القَصَص: ١٨] على آخر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القَصَص: ١٨] قاتلت رجلاً بالأمس وتقاتل هذا اليوم، لأودينك وأراد أن يبطش به. ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ [القصص: ١٩] وهو من شيعته قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس أن تريد إلّا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين.
قال المأمون: جزاك الله خيراً يا أبا الحسن فما معنى قول موسى لفرعون: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠] قال الرضا عليه السلام إن فرعون قال لموسى عليه السلام لما أتاه ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩] بي قال موسى ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠] عن الطريق بوقوعي إلى مدينة من مدائنك ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ...﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١] (عن الاحتجاج ٢٣٤ وعيون الأخبار ١١٠).
أقول: هو من شيعته اختلاق كما يأتي، كما لأؤدبنك.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٦.

إرادة القتل ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[1] وتراه إذا لم يكن عمله من عمل الشيطان فكيف يستغفر ربه فيه بما ظلم؟

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾:

﴿نَفْسِي﴾ هنا دون غيري مما يذود عن ساحته القتل ظلماً، فإنما يعني بظلمه نفسه هنا الانتقاص غير القاصد بقتل الذي من عدوه في نصرة الذي من شيعته، إذ خلّف ملاحقته الشديدة من قبل السلطة الفرعونية، فقتلاً له بقتله أو تأخيراً لرسالته الموعودة، فطالما الظلم هنا لا يعني التعدي إلى غيره، كذلك لا يعني في انتقاص نفسه أنه كان قاصداً فيه، فطلب من ربه الغفر الكامل والستر الشامل عما يرصده من قتل ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ فدفع كيد فرعون ثم أرسله إليه بعد ردح من زمن رحلته إلى مدين.

فالغفر لموسى عليه السلام كما الغفر لرسول الهدى في الفتح ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2] مهما كان بينهما بون من ناحية اخرى هي الخطأء فيما فعله موسى ولم يخطيء رسول الهدى صلى الله عليه وآله وسلم! ولولا ذلك القتل الخاطئ دونما تقصُّد لم يضطر موسى عليه السلام إلى الفرار، ولا تأخرت رسالته عشر سنين.

والغفر في خلفية القتل كان عاجلاً في الذب عن قتله، وآجلاً في بداية رسالته بعد ذلك الردح البعيد من الزمن ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾[3].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

وقد تعني هذه النعمة إضافة إلى نعمة النبوءة والإيمان نعمة الذب عن قتله والغفران، والقوة الدفاعية القاضية على عدوٍّ له، و«لن» تحيل باختياره

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٣) سورة طه، الآية: ٤٠.

أن يكون ظهيراً للمجرمين، كما لم يكن ظهيراً لهم وهو يعيش في قصر الإجرام، ثم لما رأى قتالاً بين عدو له وشيعة نصر شيعته على عدوه مهما أخطأ في قتله، حيث الظروف ما كانت تساعد على ذلك القتل - مهما كان مسموحاً في أصله[١] - إذ خلّف الفرار عن مسرح الدعوة، وخوفة الانتقام في فترة من الزمن بعيدة، وليس يعني الذي من شيعته فيمن يعنيه «المجرمين» إذ بطش مرة ثانية لتخليصه وهذه مظاهرة، مهما كان من المجرمين من أوقع غيره في جرم أو من أدت إعانته إلى جرم، إذ لم تكن وكزته جرماً حيث لم يقصد قتله، وإنما قصد تخليص الذي من شيعته، كما ولم تكن المقاتلة من ناحية المؤمن قصداً إلى إدخال موسى في الجرم!.

وهنا ندرس أن وكزة الدفاع مقصورة على قَدَر الدفاع حتى مع الكافرين فضلاً عن المؤمنين، اللهم إلّا في جهاد العدو في الدين، فهنا القتل مسموح مهما كان بدائياً أو وقائياً، فموسى يقضي بوكزة واحدة على عدوه المهاجم على شيعة له، مما يشي يبالغ قوته وفتوته، مصوراً مدى انفعاله وغضبه، وما كان يخالجه من الضيق بفرعون وملئه الظالمين بحق أشياعه المضطهدين، ولكن لما رآه جثة هامدة خامدة بين يديه ندم على هذه الصدفة الهائلة فاستغفر ربه وأناب إليه واستنجده لموقفه الحرج المخيف، فأنجده الله.

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾:

مضى يوم ﴿فَأَصْبَحَ﴾ لغده ﴿خَآئِفًا﴾ خلفيّة قتله بالأمس ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الفرج من ربه، أم و﴿يَتَرَقَّبُ﴾ منفذاً عن مضيقة، أو يترقب الفضيحة في انكشاف

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٢٢ - أخرج أحمد في الزهد عن وهب قال قال الله عزّ وجلّ: بعزتي يا بن عمران لو أن هذه النفس التي وكزت فقتلت اعترفت لي ساعة من ليل أو نهار بأني لها خالق لأذقتك فيها طعم العذاب ولكن عفوت عنك في أمرها أنها لم تعترف لي ساعة من ليل أو نهار أني لها خالق أو رازق.

أمره وخلفية الأذى، ملتفتاً متوجساً يتوقع الشر في كلّ لحظة، مما يؤكد حساسية القصر ضده منذ أمد، وإلّا فما أرخص لرجل القصر، المتبنَّى لفرعون، أن يقتل أياً كان من الشعب، فقد كان حين دخل المدينة منفصلاً عن القصر، معروفاً لدى شيعته لحد عرفه هذا الذي من شيعته، كما عرفه عدوه الثاني إذ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسٗا بِٱلۡأَمۡسِۖ. . .﴾!

مضى يوم عن الواقعة وهو ﴿خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ - ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ من شيعته ﴿يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ﴾ في اقتتال ثان مع عدو لهما ثان، محنة بعد محنة، مما يحرِّج موقفه أكثر مما كان، فـ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ﴾ دون شك ﴿لَغَوِيّٞ﴾ عن صراط الحق ﴿مُّبِينٞ﴾ غوايتك، والاستصراخ هي طلب الصرخة أن تَطلَّب من موسى بصرخة أن يصرخ على عدوه الثاني قالة وفعالة كما فعل بالأمس على الأوّل.

وتراه كيف يهتف بشيعة له حالة اقتتاله مع عدو له ﴿إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾؟ لأن اقتتال شيعته مع الأعداء الفرعونيين - ولمّا يحن حينه، ولا قويت لموسى يمينه، وهو في بداية أمره - ذلك القتال العجال غير صالح في هذا المجال، كما وأن رسول الهدى ﷺ وأصحابه لم يقاتلوا أو يدافعوا في العهد المكي إذ ما حان - بعد - حينه حتى جاء العهد المدني فسمح له في الدفاع والجهاد.

ثم الدعوة الرسالية مهما كانت قوية، ليست لتبدأ بالقتال والقتل والقسوة، وإنما بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ثم القتال إذا وُجد له مجال.

فموسى الذي هم به فرعون، وهو هارب من بأسه فيدخل المدينة على حين غفلة من أهلها، كيف يجوز لشيعة له أن يكدِّر عليه الجو أكثر مما كان فيقاتل عدواً لهما، فيفرض عليه نصره فقفزه فالقضاء عليه، ثم يكرر بعد يوم

نفس المسرح، مما يحرِّج موقفه الرسالي أكثر مما حرّج أول مرة، إذاً فحقٌّ له هتافه ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

أجل، غوي بعراكه هذا الذي لا ينتهي إلّا إلى ثائرة نائرة على موسى وبني إسرائيل ككل.

وهم بعدُ ضعفاء، ما حانت لهم الثورة ﴿مُّبِينٌ﴾ تلك الغواية في المدينة حيث ضاعت وشاعت وتشيع أكثر مما كانت فتجتث أصول الثورة المستقبلة الرسالية، وقد تلمح ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أنه ممن أشير إليه من ذي قبل بـ ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لا فحسب الذي من عدوه، والمقاتلة، بل والذي من شيعته حيث أقدم على المقاتلة، إذاً فـ «هذا» ثالوث الشيطنة وموسى قد ابتلي بها لحد يستغفر ربه من خلفياتها ولم يعمل هو إلّا واجبه دفاعاً عن نفس مؤمنة، مهما أخطأ طوَرة بقفزه القاتل دون تقصُّد.

فـ ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ تعنيه كرسول، وفي ذلك القتل قتل له أو لرسالته ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ ستراً لما يُتربص بي من دوائر السوء ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ نجاةً عن قتله وإبقاءً لرسالته وإن تأخرت عشر سنين.

لقد وقع موسى هنا في مأزق ثان كالأوّل، فهل يقفز تعجيلاً فكالأول، أم هل يحفز تأجيلاً، والحفاظ على النفس المؤمنة واجب؟ فإنما يبطش بالفعل دون قفز قاض ولا حفز منحاز:

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ طبعاً هو القبطي الفرعوني، أترى ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ هي قالة الإسرائيلي لأنه اغتاظ بكلامه ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فظن أنه يقصد ببطشه إلى قتله، فوبخه ببطشته تأنيباً له ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي...﴾. فعرف القبطي

ان موسى هو الذي قتل منهم نفساً بالأمس فأخبر فرعون الخبر فائتمروا بموسى فجاء رجل من أقصى المدينة يسعى..؟

وإرادة البطش بالذي هو عدو لهما ظاهرة الهدف أن ليس هو الذي من شيعته! وغواية المؤمن لا تقتضي قتله وهو يحارب المشرك! ولا مرجع صالحاً لضمير الغائب في «قال» إلّا ﴿بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ فإنه الأقرب لفظياً ومعنوياً! و﴿كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ لا تناسب إلّا نفساً كهذه النفس وهي العدوة لهما، إذ لا صلة ولا مماثلة بين قتل الإسرائيلي المؤمن المهاجَم، وقتل القبطي الكافر المهاجم! ثم ولا تأنيب في قتله نفساً بالأمس إذ كان دفاعاً عن الذي من شيعته فكيف يؤنبه فيه! ثم وكيف يليق به القولة الفاتكة ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فإنه ارتداد عن الإيمان فطرياً يستحق به القتل فليقتله به[1]! ولعمر إلهي الحق ليس ذلك إلّا تسفيراً للقرآن عن مغزاه ومرماه وليس تفسيراً[2]، فإن هي إلّا قولة الذي هو عدوٌّ لهما، ولم تكن القتلة السابقة مما تخفى - وهي القاتلة - من داعية إسرائيلي رباه فرعون عُمُراً من قبلها، فشاعت في المدينة، والقتلة المكررة من داعية تجعله جباراً في الأرض وتنفي عنه كونه مصلحاً فيها، حسب الظاهرة في بداية الدعوة.

---

(١) بحار الأنوار ١٣ : ٢٧ القمي عن أبي جعفر عليه السلام في رواية القصة.. فلما كان من الغد جاء آخر فتشبث بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس فخلى صاحبه وهرب..
أقول: وهذا هو الصحيح الملائم للآية.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١١٩ في عيون الأخبار بإسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون... - إلى أن قال -: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص: ١٨] قاتلت رجلاً بالأمس وتقاتل هذا اليوم لأؤدبنك وأراد أن يبطش به ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ [القَصَص: ١٩] وهو من شيعته ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ...﴾!
أقول كيف هو من شيعته وهو عدو لهما أي موسى والقبطي إن هذا إلّا بهتان مبين!

وهذه شيمة شنيعة من المتجبرين المستكبرين أن الدفاع عن الظلم إفساد وجبر، حتى ليسمي القبطي دفاع موسى عن الإسرائيلي تجبراً في الأرض يطارد الإصلاح!.

فقد تفسد الفطرة العامة الإنسانية لحد يرون الظلم فلا يثورون عليه، بل وينكرون على الثائرين ضد الظلم، إذ لا يعطون حق الدفاع للمظلومين المضطهدين، وفوق كلّ ذلك يسمون الدافع عنهم وعن الظلم ﴿جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ كما قاله القبطي، لأنهم أَلِفوا الطاغية تطغى ولا ثورة ضده، فحسبوا أن الطغيان حقه المطلق والثورة تخلُّفة عن الإصلاح! فإذا رأوا مظلوماً يصرخ أو يستصرخ، أم عطوفاً يجيب إلى صرخته فيدافع عنه، حسبوه جباراً في الأرض، متخلفاً عن السنة المتبعة وهي الحياد أمام الطاغي والانقياد للباغي!.

أجل إنه لا يُنكر أن الاشتباكات الفردية للداعية شبكات لانزلاقه في الفخ، إذ لا تجدي في قلب الأوضاع الغاشمة، كما كف الله المسلمين في العهد المكي عن تلكم الاشتباكات حتى آن أوانه، ولذلك يخاطب موسى مَن سبَّبها بـ ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ واعترف على نفسه ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ ولكنه ليس بذلك جباراً في الأرض، وإنما وقع في فخٍّ من وكزته دفاعاً واجباً عليه في الظرف المختلَق خلاف ما يهواه.

لقد تفشى خبر قتله بالأمس رجلاً من رجال فرعون، وهو طبيعة الحال، قضية استطارة الغضب من آل فرعون على موسى الملاحَق من قبله، واستطارة الفرح في بني إسرائيل، فالقبيلان - إذاً - هما إذاعتان لإشاعة ذلك النبإ حتى فشى وتطاير بين كلّ الجماهير، ومنهم هذا الذي أراد موسى أن يبطش به، فائتمروا به ليقتلوه فنجاه الله من القوم الظالمين:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾:

ويا لرجال من أقصى المدينة، ليسوا في أوساطها كالأغلبية الساحقة من المترفين، بل هم العائشون في حوامشها البعيدة القاصية، يا لهم من رجولات وبطولات للحفاظ على الرسالات الإلهية، فهنا ﴿رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلى موسى، وهناك ﴿رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلى رسل عيسى، ولا رجل من أوساطها هنا وهناك ينصر المرسلين، وقد يكون هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ . . .﴾(١) (٢).

وقد يتعلق ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ بمقدر كما تتعلق بـ«جاء» ف ﴿رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ جاء من أقصى المدينة - ﴿يَسْعَىٰ﴾ مسرعاً إلى موسى ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ الفرعوني ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ فرعون ﴿بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ كما قتلت نفساً بالأمس وهممت اليوم بطشاً بآخر ﴿فَٱخْرُجْ﴾ منها إلى مكان سحيق لا يعرفونه ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وبالنتيجة:

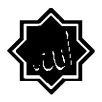
﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾ من ائتمارهم ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الفرج والنجاة الموعود حينما

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٨.

(٢) نور الثقلين ٤: ١١٩ في تتمة القصة على طولها عن أبي جعفر الباقر عليه السلام وكان خازن فرعون مؤمناً بموسى عليه السلام قد كتم إيمانه ستمائة سنة وهو الذي قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ﴾ [غافر: ٢٨]. . . ويلغ فرعون خبر قتل موسى الرجل فطلبه ليقتله فبعث المؤمن إلى موسى عليه السلام ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ [القصص: ٢٠-٢١] كما حكى الله عز وجل: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] قال: يلتفت يمنة ويسرة ويقول: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١] أقول: «فبعث. . .» خلاف نص الآية أنه «جاء. . . يَسْعى» ثم ومجيئه بنفسه إلى موسى لا يناسب كونه خازن فرعون لأنه تهدير لدمه، فقد يجوز أنه قبطي مؤمن غير معروف في البلاط جاء بنفسه ليحذر موسى.

استغفر ربه فغفر له ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو المظلوم في ذلك المسرح وليس بظالم إلّا نفسه غير متقصد! وإن موسى قتل منهم نفساً فخرج منها خائفاً يترقب، والحسين عليه السلام لم يقتل منهم نفساً وخرج من المدينة خائفاً يترقب! وأين خروج من خروج[1]؟.



(١) المصدر ٤ : ١٢٠ في إرشاد المفيد في مقتل الحسين عليه السلام فسار الحسين عليه السلام إلى مكة وهو يقرأ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص: ٢١] ولزم الطريق الأعظم فقال له أهل بيته: لو تنكبت الطريق الأعظم كما صنع ابن الزبير لئلا يلحق الطلب، فقال: لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاض، ولما دخل الحسين عليه السلام مكة كان دخوله إليها ليلة الجمعة لثلاث مضين من شعبان دخلها وهو يقول: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القَصَص: ٢٢].

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿مَدْيَنَ﴾ هي مدينة شعيب، المرسل إلى أهله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾(١) وقد جاء ذكرها عشر مرات في الذكر الحكيم، وهي واقعة تجاه تبوك على بحر القلزم، بينهما ست مراحل، وهي

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب عليه السلام، وبينهما وبين مصر مسيرة ثمان وقد كانت خارجة من سلطان فرعون.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾:

تلقاء الشيء حذاءه وقباله حيث يُلقى به، من «لَقَّى تلقيةً وتلقاءً» ولكنه لقاءٌ من بعيد يوصِل إلى لقاءِ القريب، فقد خرج من المدينة متوجهاً تلقاء مدين فريداً طريداً خائفاً يترقب الفرج، منزعجاً بنذارة الرجل من أقصى المدينة دون تزود بزاد ولا ترحُّل براحله، راحلته رجلاه، وزاده ترجي هدى الله ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ إلى مدين وارداً سليماً وإلى المدينة راجعاً رسولاً منذراً، وبينهما السبيل إلى تشكيل العائلة.

فهنا نجد موسى بعد ردح من عمره منذ ولادته حتى رجولته في نعومة العيش في البلاط، نجده في قلب المخافة، يطارده فرعون وملأه، لينالوا منه اليوم في رجولته ما لم ينالوه منه في طفولته، ولكن اليد التي حمته هناك أحرى أن يحميه هنا: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[1]! وتراه كيف عرف الطريق إلى مدين ولم تسبق له سابقة منه وليس يكفيه سؤال الرجل الناصح لاهتدائه على طول الخط في الطريق؟.

﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ﴾ دون «توجه إلى» قد تلمح أنه توجه تلقاءَه تلقائياً وما يدري هو أنه متوجه تلقاءه، وإنما الله هو الذي يدله إلى مدين، و﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى﴾ دليل أنه ما كان يعرف الطريق، و﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ دليل واقع التلقاء بما لقّاه الله، وغير صحيح أن يسأل الناس عن الطريق وهو في مفازة المخافة، متستراً مقصده عنهم فراراً عن كيد المؤتمرين به ليقتلوه.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾:

لقد وصل إلى مدين وورد ماءَه، وهو بطبيعة الحال بداية وِرده البلدة، وصل مكدوداً مجهوداً وهو بحاجة إلى رياحة فـ ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ جماعة من مختلف الرعاء وسواهم يسقون أنفسهم وأنعامهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أبعد منهم إلى الماء بفصل فاصل ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ﴾ والذود هو المنع، ولأن المتعلَق هنا مطلق فقد يعم ذودُهماأغنامهما عن التفرق، وعن الخلط بأغنام الناس، وعن ورد الماء حتى يصدر الرعاء، وذودهما الناس عن أغنامهما، وذود أنفسهما عن الاختلاط بالرجال، وعن الاستعجال لورد الماء حتى يصدر الرعاء، والذود عن أن يُنظر إليهما، وكل ذود هو قضية الأدب في الشرعة الإلهية للنساء بين الرجال.

فهل من الوجدان في ذلك الوجدان ألّا يتأثر موسى من حالتهما الحرجة، على كونه مكدوداً؟ كلّا! وهو الرؤوف الحنون حتى بشيعته الغوي المبين، فكيف لا يرأف بامرأتين ضعيفتين في هذا البين، فليسأل عنهما وقد سأل: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾ والخطب هو الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب والتساؤل، ولقد كان أمرهما - في أصل السقي وهما امرأتان، وفي التأخر عن السقي - كان يبعث للتساؤل والتخاطب، فجاء الجواب عن الأمرين في ذلك الخطب الجلل.

أما التأخر عن السقي فـ ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ إنهاءً لسقيهم وإخلاءً للماء حتى نسقي ولا رعاء، مهما جئنا قبلهم أم قبل بعضهم، إذ نحتشم عن الخلط بالرجال الغرباء.

وأما أصل السقي لنا ولأنعامنا ونحن امرأتان؟ فـ ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال، فنحن على أنوثتنا وضعفنا أقوى منه،

ويطبيعة الحال ليس له أبناء حتى يكفوا عنه وعنّا، فسقيُنا - إذاً - ضرورة معيشية تسمح لهكذا كدّ وكدح للسقي.

هنا تثور الغيرة الموسوية للإقدام على السقي لهما رغم حالته المحرجة، حيث لا تمنعه عن القيام بواجبه الحاضر، فيصبح خير ناصر لمن لا يعرفهما، ولكنه عارف عجزهما وحاجتهما إلى معين، ويعرف مرضاة الله في تلك الإعانة.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ وكيف سقى، طبعاً قبل أن يصدر الرعاء كلًّا أو بعضاً، فإن سقيه لهما بعد إصدارهم عن آخرهم ليست فيه معونة زائدة على سقيهما بعد الإصدار.

أتراه سقى لهما حسب النوبة؟ أم تطلّب منهم تقدم النوبة؟ كلٌّ محتمل، ولكن القوة المعروضة في قالة إحداهما ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ إنها تخرج حالة السقي لهما عن العادة، فلتكن قوة بارعة خارقة أقوى من كلّ الرعاع، وهنا قد يصدق ما يروى أنه كان يجتمع على الدلو رجال حتى يخرجوه من البئر لعظمه وثقله[1] فاستقل موسى بمفرده لإخراجه، مما سمح له منهم أن يسقي لهما قبل النوبة.

---

(١) نور الثقلين ٤: ١٢٠ القمي في تتمة القصة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام . . ومر نحو مدين وكان بينه وبين مدين مسيرة ثلاثة أيام فلما بلغ باب مدين رأى بئراً يستقي الناس منها لأغنامهم ودوابهم فقعدنا حية ولم يكن أكل منذ ثلاثة أيام شيئاً فنظر إلى جاريتين في ناحية ومعهما غنيمات لا تدنوان من البئر فقال: ما لكما لا تسقيان؟ فقالتا كما حكى الله عز وجل: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] فرحمهما موسى عليه السلام ودنا من البئر فقال لمن على البئر: أسقي لي دلواً ولكم دلواً وكان الدلو يمده عشرة رجال فاستقى وحده دلواً لمن على البئر ودلوا لبنتي شعيب وسقى أغنامهما ثم تولى إلى الظل فقال: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير - كان شديد الجوع. =

وأضف إليها القوة النفسية التي أوقعت في قلوب الرعاة هالة الانجذاب إليه، حيث الناس يتأثرون بالقوات النفسية أكثر من البدنية، فمن الجائز أنهما لمستا منه القوتين فاعترفتا عند أبيهما أنه «قوي».

ثم الضعف الطارئ من أعباء السفر الشاق الطويل، على تخوّف، وحرّ الشمس كما ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ منها ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ هذه مما يُنهك القوي، فما أقواه موسى أن تغامض عن كلّ ذلك وسقى لهما قبل أن يصدر الرعاء دونما أجر حاضر ولا موعود، إلّا مرضاة الله.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ عنهما ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ليستريح عن حرّ الشمس ووعثاء السفر، ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ دونما تساؤل آخر عنهما كيلا يخيَّل إليهما أنه يريد منهما أجراً، أو يهواهما زواجاً بديلاً عما سقى لهما، وذلك هو العفاف القاصد القاسط أمام المحاويج من النساء الأغارب، أن تقضى حوائجهن ثم يتولّى عنهن، وهذا أرغب لهن إلى الزواج إن أردنه، حيث التأبي الظاهر من الرجل القوي الأمين مما يثير رغباتهن.

﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وما هو ما أنزل إليه ربُّه؟ أهو الحكم والعلم؟ وقد أوتيهما من قبل! أم هو طعام يطعمه إذ كان جائعاً مدقعاً[1] فقد «والله ما سأله إلّا خبزاً يأكله لأنه كان يأكل بقلة

= وفيه عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن أبي عبد الله عليه السلام . . فانتهى إلى أصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر وإذا عندها أمة من الناس يسقون وإذا جاريتان ضعيفتان وإذا معهما غنيمة لهما «قال ما خطبكما قالتا: أبونا شيخ كبير ونحن جاريتان صغيرتان لا نقدر أن نزاحم الرجال فإذا سقى الناس سقينا فرحمهما فأخذ دلوهما فقال لهما: قدما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل الناس ثم تولى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها وقال «رب . .» فلما رجعت إلى أبيهما قال: ما أعجلكما في هذه الساعة؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا فقال لإحداهما اذهبي فأعديه لي فجاءته إحداهما». . . .

(١) الدر المنثور ٥: ١٢٥ - أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لما سقى موسى للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير - قال: إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر.

الأرض ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاف بطنه لهزاله وتشذب لحمه»[1]؟

و﴿لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ تدل على خيرِ منزلٍ عليه ماضٍ، ولو كان هو الطعام الحاضر لم يكن بحاجة إلى دعاء الافتقار، والصيغة الصالحة له «رب إني جائع» أم «فقيرٌ لما تنزله من طعام» أم ما شابه! اللهم إلّا أن يُعنى بـ«من خير» القوة البدنية - إضافة إلى الروحية - التي استطاع بها أن يسقي لهما، ففقره إلى هذه القوة يتطلب طعاماً يتقوى به ليستمر في هكذا إعانات في وجه الله، أم خيرِ قضاء الحاجة حيث أنزله الله إليه فأدّى واجبه، ثم يتطلب من ربه قضاء حاجة الجوع جزاءً وفاقاً، و﴿لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ دون «إلى ما أنزلت» لمحة لطيفة إلى أنه يتسبب بما أنزل إليه من خير لقضاء حاجته، حيث اللام هي السببية.

أم يعني خيرَ قضاءِ حاجتهما، فهو مفتقر إلى مثله، متأهب لقضاء كلّ حاجة نازلة إليه من عنده تعالى وذلك من شيم الخيّرين أن الحاجة المعروضة لديهم مهما كانت صعبة القضاء، هي خيرٌ منزَل من الرب.

كما ويعني الامرأتين، أنني بحاجة إلى زواج إحداهما، وقد تعني ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ كلما ذكر من خير الوحي والقوة البدنية والروحية، وخير قضاء الحاجات، وخير حاجة البطن: الطعام، وخير حاجة الجنس:

---

(١) نهج البلاغة قال عليه السلام وإن شئت ثنيت بموسى كليم الله صلوات الله عليه إذ يقول: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] والله...

وفي نور الثقلين ٤: ١٢١ في الكافي عن ابن أبي عمير عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: سأل الطعام، والعياشي عن حفص البختري عن أبي عبد الله عليه السلام في قول موسى لفتاه: آتنا غداءنا وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] قال: إنما عنى الطعام فقال أبو عبد الله عليه السلام إن موسى لذي جوعات، وعن ليث بن سليم عن أبي جعفر عليه السلام شكى موسى إلى ربه الجوع في ثلاثة مواضع: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا...﴾ [الكهف: ٦٢] ﴿لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] - ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

الزواج، إظهاراً للافتقار إلى كلّ ذلك، وقد ذكرت اللام في ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ لتعم السبب والغاية، لسبب ما أنزلت وإلى ما أنزلت إلي من خير فقير، وقد أجاب ربه دعاءه من فوره، وقد يستبعد من ذلك المحتد الرسالي طلب الطعام وله من القوة ما يسقي لها و«لا تحل الصدقة لغني ولا لذي قوة سوي»[1] اللهم إلّا ضمن طلباته ليقوى على ما أعان، فعلى أية حال فليس يختص ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ بطعام يأكله، إذ لم ينزل عليه بعد إلّا عند شعيب، وقد أنزل عليه من قبل الجاريتين بحاجتهما، ولذلك فرع مجيئهما بدعائه كإجابة عاجلة:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

لما قال ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ - ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ دون فصل إلّا قدر السير المرجّع إلى أبيها، حال أنها ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ فإن أمرها ظاهر، ولا سيما أنها تجيء إليه وهو خلاف المتعود من خطبة النساء، وقد تلمح «على» بتأكد الاستحياء وأنها علت عليه بما جاءته، وإلا ما كانت لتجيئه، وإن ﴿ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ منكرة تعظمه حيث المعرف «الاستحياء» هو المعروف المتعوّد من العفائف، فقد كان استحياءً عظيماً منقطع النظير، وبالفعل جاءته.... و﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ...﴾ جاءته جيئة جيّةً في غير ما تبذُّل ولا تبرُّج أو إغراء، وإنما للإيواء إلى كريم البواء، جاءته يدعوه في أقصر لفظ وأكثر معنى يحمل استدعاء إجزاء الجزاء دون لفظة أخرى تتغنج بها الفتاة بطبيعة الحال فيتهيج بها الفتى في نفس الحال، كلّا وإنما ﴿أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ﴾!.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤: ٢٤٠ - أليس أنه عليه السلام قال:...

وتراه كيف ساغ له اتباع امرأة في قولها، ثم المشي معها وهي أجنبية، وذلك يورث عظيم التهمة؟ وكيف ساغ لشعيب عليه السلام أن يبعث بنته الشابة إلى شاب ولمّا يعرفه بالعفة؟ وكيف ساغ لموسى تقبُّل أجرٍ - كما قالت - وقد أعانهما لوجه الله، وهذا خلاف المروءة بل وخلاف الشرعة الإلهية إذ لم يعمل ما عمله بجعالة، لا سيما وأنه عرف عجز أبيهما وفقر العائلة، ولموسى من القوة ما يحصل بها على مال يحتاجه من غير فقير بمحاولة يسيرة؟.

والجواب أن موسى إنما استجابها إذ عرف من قبل عفافهما، فلمحةُ الصدق من قولها، وهو غريب في مدين يفتش عن قريب في العقيدة والمأمن.

ثم ولم يستجبها طلبَ الأجرة، وهي جائزة دون طلب، مهما كانت مطالبتها غير جائزة دون جعل، وإنما استجابها إذ تلمَّح منها ومن مجيئها كأنها تعني تحقيق دعائه في الزواج بها، وليس هو في الحق أجراً مهما سمته أجراً، إذ أنكحها بثماني حجج أو عشرٍ، وقد ينقل متظافراً أنها لما قالت ليجزيك كرهه[1] ولما دخل على شعيب إذا هو بالعشاء فقال له كل، قال موسى عليه السلام: أعوذ بالله، قال: ولمَ، ألست جائعاً؟ قال: بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وإنا من أهل بيت لا نبتغي شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً! قال: لا والله ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام فأكل[2].

وهذه طبيعة الحال في كلّ التحيات، فقد حياه موسى إن سقى لابنتيه، فحيّاه بأحسن منها أن أطعمه وأنكحه إحدى ابنتيه، وقبول التحية المردودة من آداب الإيمان: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[3]، وقد

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٤: ٢٤١ وروي أنها قالت:...

(٢) الدر المنثور ٥: ١٢٥ - أخرج ابن عساكر عن أبي حازم قال لما دخل موسى على شعيب...

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٦.

ساغ لشعيب أن يبعثها إليه لما عرف من قوته وأمانته، وذلك أحرى من بعثهما لسقي الغنم، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ السابق ذكره «قال»: شعيب ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ ليس مدين داخلاً في سلطان فرعون ولا أنه عارف بمكانك، وتراه كيف مشى معهما ابتعاداً عن التهمة، وعن النظر إليها؟ لقد تقدمها لكي يأمن عن النظر إليها[(١)] وبذلك عَرفت أمانته إذ قالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾:

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾:

قد تكون ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾ - هذه - هي التي جاءته فزوجه شعيب إياها[(٢)] وعلّها أصغرهما[(٣)] لا ندري، حيث العادة جارية على تقديم الكبرى على

---

(١) نور الثقلين ٤: ١٢٢ عن تفسير القمي من حديث القصة الطويلة عن الباقر عليه السلام.. فقام موسى معها ومشت أمامه فسفقتها الرياح فبان عجزها فقال لها موسى: تأخري ودليني على الطريق بحصاة تلقيها أمامي أتبعها فأنا من قوم لا ينظرون في أدبار النساء..

وعن كتاب كمال الدين وتمام النعمة عنه عليه السلام قال لها: وجهيني إلى الطريق وامشي خلفي فإنا بني يعقوب لا ننظر في أعجاز النساء..

وعن من لا يحضره الفقيه روى صفوان بن يحيى عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] قال قال لها شعيب: يا بنية هذا قوي قد عرفتيه برفع الصخرة، الأمين من أين عرفتيه؟ قالت: يا أبه إني مشيت قدامه فقال: امشي من خلفي فإن ضللت فأرشديني إلى الطريق فأنا قوم لا ننظر في أدبار النساء وعن المجمع قال أمير المؤمنين عليه السلام لما قالت المرأة هذا قال شعيب: وما علمك بأمانته وقوته؟ قالت: أما قوته فإنه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا بكذا، وأما أمانته فإنه قال لي: امشي خلفي فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك.

(٢) بحار الأنوار ١٣: ٢٩ عن أبي عبد الله عليه السلام سئل أيتهما زوجة شعيب من بناته؟ قال: التي ذهبت إليه وقالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ وفيه عليه السلام بسند عن البزنطي قال سألت الرضا عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ...﴾ [القصص: ٢٥] أهي التي تزوج بها؟ قال: نعم. وفي نور الثقلين ٤: ١٢٣ مثلهما في التي تزوج بها.

(٣) الدر المنثور ٥: ١٢٧ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي جبريل: يا محمد إن سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى؟ فقل أوفاهما، وإن سألوك أيهما=

الصغرى إلّا إذا كانت هي الأولى والأحرى بمن يريدها، ثم ولا مزرأة على الأخرى.

وعلى أية حال ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ إذ نحن بحاجة إلى رجل يعيننا و﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ وقد جرّبنا قوته وأمانته[(١)] فلتكن القائلة هذه القولة هي التي جاءته إذ جرّبت أمانته، مهما كانت تجربة القوة لهما معاً، وكيف تجرأت أن تقول ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ واستيجار مثل هذا الرجل القوي الأمين مهانة؟ علّها لأنها لم تجد صيغة أخرى أحرى منها لاستجلابه لزواجها عرضاً على أبيها، فقد لمحت إلى مهرها بأجرة الاستئجار، وإلى زواجها باستدعائه أن يظل عندهم، وذلك لا يناسب إلّا بزواج، والقوة والأمانة هما الدعامتان في صالح الحياة الجماعية، ولا سيما تأسيس الأسرة. فـ ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ كانت خطوة أولى تطمئنه نفسياً، ثم ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ خطوة ثانية فيها حظوة الجنس ورياحة الجسم من صوت الأنوثة الأنيسة، وما ألطفه دعاءً للزواج.

وهنا يحس الأب الشيخ الكبير تجاذباً بين الجانبين وثقة متبادلة بين الطرفين، بعد ما تأكد صلوحاً في موسى قوةً وأمانة، فاستجاب من فوره لاقتراح ابنته:

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

= تزوج فقل: الصغرى وفيه أخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذر قال قال لي رسول الله ﷺ: إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما، وإذا سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره..

(١) في أحاديث متظافرة مضت أن شعيباً سألها دليل قوته وأمانته فقالت: قوته أن سقى لنا ما لم يقدر عليه أحد من الرعاء وأمانته أنه مشى أمامي تحرزاً عن النظر إلى خلفي.

وترى ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ هي التي قالت يا أبت استأجره؟ وصيغته الصالحة الصريحة «إني أريد أن أنكحك إياها»!، أم هي الأخرى؟فالأخرى!

إن التعمية هنا هي أولاً ستار على موقف الأولى إبعاداً عن رخاصتها، وهي ثانياً تخيير له في اختيار أيتهما شاء دونما تسيير عليه بحصر على الأولى.

وقد نتعرف هنا إلى الصيغة الصالحة للنكاح ﴿أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ حيث المفعول الأوّل المنكَح هو الزوج، والثاني المنكَح له الزوجة وكما في أخرى ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[(١)] ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[(٢)] فلا معاكسة في صيغة النكاح كـ«زوجتك نفسي» أمّا شابه.

وهكذا عرضت إحدى ابنتيه أن يأجره أبوها، ثم عرض الأب عليه بكل بساطة زواجه بها لما عرف الكفاءة من الجانبين، عرضاه في غير التواء ولا تحرّج، خلاف التقاليد المصطنعة الباطلة التي أصبحت سنة الزواج، إذ تحتم خِطبة النساء على الرجال وأوليائهم أو وكلائهم، دون جانب المرأة، رغم المخالطة والمكاشفة أحياناً بين بعضهم لبعض دونما خِطبة ولا نكاح، فأما إذا حان حين الزواج فلتكن الخطبة من جانب الزوج، وإلّا فهي رخيصة بخيسة إذ عرضت نفسها للزواج أو عُرِضت له!

ولقد كانت النساء يعرضهن أنفسهن على النبي ﷺ فيؤوي إليه من يشاءُ منهن ويُرجي من يشاء، فيعرضها على من يستصلحه لها، مزوداً لهن بترغيب ودونما تعييب أو تأنيب، ونموذجاً من ذلك نص الأحزاب ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.

وترى كيف يصح كون الصداق لصالح ولي البنت ويقراره: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي...﴾ والصدقات تخص البنات دون الأولياء؟.

علّه لأنه كان مؤذوناً في الأمرين كما تطلّبت إليه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ فاستأجره كما استصلح لصالح العائلة عامة وللبنت خاصة، إذ هي من ضمن من يستفيدون من ذلك الإيجار، أم إنه يحق لولي ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾[1] مهما كان موردها العفو عن نصف الصداق بطلاق قبل وقاع، إذ لو لم يكن له حق في صداقها لما حق له العفو عنه نصفاً أمّاذا، وكيف يصح هكذا قرار للصداق حيث لا يعلم الوفاء به إذ ما تدري نفس متى تموت؟ إنه قد لا يصح هكذا، إلّا «أن موسى علم أنه سيتم له شرطه»[2] فحين لا يعلم الوفاء كان الصداق معلقاً غير مقطوع به فغير صالح للنكاح، أم إن له بديلاً مما ترك بعد موته إن كانت له تركة، وحتى إذا لم تكن فالتصميم على الوفاء مع إمكانيته في ظاهر الحال يكفي صدقاً للصداق، فمن هذا الذي يعلم بيقين أنه يوفي بما وعد في أية معاملة من المعاملات، ومنها الصداقات المؤجلة، بل والمعجلة بعد هنيئة من عقد النكاح إذ من الجائز عدم قدرته على الإنجاز لموت أو فقد مال، وهنا ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ وهي ثماني سنين، تصريحة على سابق الفرض في حج البيت، لحدٍّ كانت تسمى كلّ سنة حجة[3] والحجج الثمان هي الصداق

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٢) نور الثقلين ٤ : ١٢٣ عن المجمع روى الحسن بن سعيد عن صفوان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: - لما قيل له: فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه؟
قال: قبل أن ينقضي، قيل له: فالرجل يتزوج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين أيجوز ذلك؟
قال: إن موسى علم أنه سيتم له شرطه، قيل: كيف؟ قال: علم أنه سيبقى حتى يفي.

(٣) في تفسير العياشي قال الحلبي سئل أبو عبد الله عليه السلام عن البيت أكان يحج قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: نعم وتصديقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى عليه السلام حيث تزوج ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ [القَصَص: ٢٧] ولم يقل ثماني سنين.

الأصيل، والإتمام عشراً نافلة هو بالخيار فيها، وقضية الكرم من مثل موسى إتمامها عشراً وقد أتم وكما يروى عن الرسول ﷺ وعن أهل بيته الكرام عليهم السلام (١).

أوليس شاقاً على موسى على محتده وعلو مقامه وواجب تحضيره للرسالة المستقبلة أن يؤاجر نفسه ثماني حجج أو عشراً؟ حسب الظاهر نعم، وفي الحق لا كما وضحه أبوها ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ في أصل الثمان ولا في التكملة، وإنما هي مصلحة ككلٍّ من صالح إلى صالح ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ. . .﴾.

ومن الصالح في هذه الحجج أن يصبح موسى من رعاة الأغنام قبل أن يرسل رسولاً إلى الأنام، فلقد لبثت من عمره ردحاً في بلاط النعمة والنعومة، فليعش - ما بينه وبين الرسالة إلى فرعون وملئه وسائر المكلفين - راعياً لأغنام وذلك قَدَرُه الذي قدّره له ربه ﴿. . . وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾(٢).

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٢٦ - أخرج ابن ماجه والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن عقبة بن المنذر السلمي قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طس حتى بلغ قصته موسى عليه السلام قال: إن موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشراً على عفة فرجه وطعام بطنه فلما وفى الأجل قيل: يا رسول الله ﷺ أي الأجلين وفى موسى؟ قال: أبرهما وأوفاهما فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت من غنمه. . .

ورواه مثله في أبر الأجلين وأوفاهما أبو هريرة عن أبي سعيد الخدري عنه ﷺ وأبو هريرة نفسه عنه.

وفي نور الثقلين ٤: ١٢٥ عن المجمع روى الواحدي بالإسناد عن ابن عباس قال سئل رسول الله ﷺ: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأبطأهما، وفيه مثله عن أبي ذر عنه ﷺ وعن تفسير القمي عن الصادق عليه السلام لما قيل له: أي الأجلين قضى؟ قال: أتمهما عشر حجج. . .

(٢) سورة طه، الآية: ٤٠، ٤١.

ويا له من اصطناع بارع ليصنع بعدُ أمةً صارمة ضد الفراعنة المجرمين، فقد نقلته يد القدرة الرقيبة الربانية منذ رضاعته إلى طفولته وإلى رجولته وحتى ذلك الحين وقد حان حين الوحي الحبيب، وفي هذا الخط الطويل قبل الرسالة وبعدها تَجاربُ منقطعة النظير - إلّا لمحمد ﷺ - من تجربة الحياة في جو الفرعنة، ثم الخوف والفزع والمطاردة، وتجربة الجوع والوحدة والغربة، وتجربة رعي الغنم والخدمة بعد حياة القصر.

وهكذا تكون الرسالة الإلهية ضخمة الجوانب والتبعات في مقدمات ومؤخرات، يحتاج صاحبها إلى عظيم الزاد في سفرته الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء والدماء والحرمانات عن المشتهيات في هذه الأدنى ليجتاح دون عبئه كلّ العرقلات، والرسالة الموسوية هي أضخم الرسالات - بعد الرسالة الختمية - فليستعد موساها لكل إعداداتها حتى يجيء على قَدَر فيها.

وعرض قصص موسى في معرض القرآن أكثر من سائر القصص، لأنه أعرض القصص الرسالية، وأشبهها بقصص الرسول محمد ﷺ وليستأنس به في هذا السبيل الشاق الطويل.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ الميعاد ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ مخيراً بين الأجلين لا مسيّراً ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ في شرط الزواج ﴿وَكِيلٌ﴾ دونما حاجة إلى شهود آخرين، مما يدل على أن الإشهاد في النكاح غير واجب، مهما كان واجباً في الطلاق.

فقد تمت هنا مواضع العقد بشروطه بلا مجال فيها لغموض، وهنا التعمية من موسى عليه السلام ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ تأكيداً للتخيير، وفسحاً لمجال الإكرام بأوفاهما، وذلك مما ندب إليه في الشرعة الإلهية، أن يزاد في الأجر مهما كانت مماكسة فيه في البداية.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ
لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ
مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ
ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ
مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾
ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ
مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ
كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن
يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا
يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ
وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ
بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ
إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ

فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾

﴿قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ المعروف بينهما وهو آجل الأجلين دون الأعجل، إكراماً لشعيب ومعاملة بمعروف مع أهله كما هو المأمور به في الشرعة الإلهية، وكما يروى عن النبي ﷺ: «تزوج صغراهما وقضى أوفاهما»[1].

وبالفعل ﴿قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ ومضى ما مضى حيث أمضاه، ولا إشارة هنا إلى كيف مضت العشر إذ لا تدخل في صميم القصص الرسالي، مهما أجمله في ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾[2] مما يلمِّح إلى الصالح الرسالي المستقبل في هذه العشر العشيرة مع الأهل، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ مسيره المترقَّب المعهود إلى مصر ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا...﴾ وقد شرحناه في طه والنمل فلا نعيد إلّا ما أعيد هنا تكراراً يناسب تفصيل القصص، و«اهله» هنا هم زوجته وولده[3] وهم ذكور أو بينهم ذكور لمكان الجمع المذكر ﴿امْكُثُوا﴾.

مسير الإياب هنا هو مسير الذهاب نفسه وأين مسير من مسير، فهناك كان فريداً شريداً خائفاً يترقب، وهنا ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ مستأنساً بهم وبالنار التي آنسها من جانب الطور وارفاً يتأهب، ليناديه به ويناجيه بما ينجيه وسائر

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٤: ٢٢٤ - اعلم أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال:...
(٢) سورة طه، الآية: ٤٠.
(٣) في سفر الخروج من التوراة ٤: ٢٠ - أنه حمل معه إلى مصر امرأته وبنيه.

المستضعفين فيرثوا الأرض ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾!

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

وهذه إجمال عما فصل في «طه»: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾[1] مما يلمح أن هذه الأصول الثلاثة مستفادة من كلمة التوحيد بإجمال.

وأما محل ذلك النداء فهو ﴿مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ وهو الجانب الأيمن الجامع ليمين الجانب ويُمنه ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ وهي التي كانت فيها الشجرة، بوركت ببركة الوحي وقُدِّست: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[2] - ﴿نُودِيَ...﴾ وهذا هو جانب الطور الأيمن: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾[3] فليس إلّا مكان الطور[4] في القدس دون سواه، كربلاء[5] وسواها، فقد جاء يقتبس ناراً فاقتبس بديلها نوراً ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ فلقد كان صوت النداء من سمت الشجرة وهي الزيتونة، لا شرقية ولا غربية، بل هي الشرق الأوسطية، حيث الوحي الرباني لا ينحاز إلى

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢.

(٣) سورة مريم، الآية: ٥٢.

(٤) نور الثقلين ٤ : ١٢٧ عن المجمع روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ [القصص: ٢٩] نحو البيت المقدس أخطأ الطريق فرأى ناراً..

(٥) المصدر (١٢٦) عن تهذيب الأحكام بسند متصل عن مخرمة بن ربعي قال قال أبو عبد الله عليه السلام: شاطئ الوادي الأيمن الذي ذكره الله في القرآن هو الفرات والبقعة المباركة هي كربلاء.

شرق أو غرب، بل هو الوسط الرباني المحلِّق على مشارق الكون ومغاربه من أمكنة المرسل إليهم.

وهنا الشجرة ليست إلّا وسيط الوحي بحجابها، لا أن الله حل فيها كما لا يحل في سائر حجب الوحي ووسائطه: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

فـ ﴿وَحْيًا﴾ هنا يعنيه دون أي حجاب كما حصل للرسول الأقدس محمد ﷺ ليلة القدر وليلة المعراج أماهيه من نهار أو ليلة، و﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ يعني كلّ حجب الوحي، كلاماً في منام أم بواسطة ملك الوحي أم شجرة أمّاهيه، فالوحي إلى موسى يحمل حجابين اثنين: الشجرة ولفظ الكلام، و﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[2] كان معنى مجرداً أجرد عن كلّ حجاب إلّا حجاب الذات، وذلك حين لم يكن بينه وبين الله أحد في مقام «دنى» أم ولا نفسه فضلاً عن سواه من سائر الحجب في مقام «أو أدنى» حيث ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾[3] رؤية معرفية - في قمتها - الله، ورؤية الوحي القمة!

لقد تلقى موسى بازغ الوحي بملء كيانه، ووقف في أكرم موقف يلقاه إنسان حيث أصبح موسى الأجير الراعي للأغنام، الرسول الراعي للأنام!

هنا ﴿نُودِيَ . . . إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفي طه «نودي إني أنا ربك» وفي النمل ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥١.
(٢) سورة النجم، الآية: ١٠.
(٣) سورة النجم، الآيات: ٨-١١.

﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾[١] مع العلم أنه لم يكن النداء إلّا بصيغة واحدة علّها هي أولاها فإنها أشملها حيث تعني شامل الربوبية له ولسائر العالمين.

ثم «إني» تعني الله المتكلم من إذاعة الشجرة دون الشجرة نفسها وكما يُسمع من مسجلة الصوت الآية ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ وليست المسجلة هي القائلة بل هي وسيط إذاعة الصوت أياً كان، فالشجرة كانت - إذن - مذياع النداء، وكما رسول الوحي إلى الرسل ينقل ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ ثم الرسل ينقلونها لأممهم ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، فلا أن الله حلّ في الشجرة وسبحانه، ولا أنها حلّت إلى مرقى الربوبية، وإنما الله هو الذي تَكلَّم بحجاب الشجرة كما يتكلم بسائر الحجب.

لقد أتاه بازغ الوحي مصحوباً بآية الرسالة الربانية، مُطَمئِنَة إياه في عقبات الدعوة الشاقة:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾:

﴿نُودِىَ ... أَن يَٰمُوسَىٰٓ ... وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ إلقاء الإلغاء حيث كانت متكاك، عساك أن تأتي فرعون وملأه ببرهان مبين، فألقاها فأصبحت كأنها جان ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ تتلوّى على كبرها، وكأنها حية صغيرة تجن نفسها وتخفيها ﴿وَلَّىٰ﴾ موسى خوفة منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ليراها مرة أخرى، فقلنا ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ﴾ إليها ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ عندنا، لا يصيبك منّا أية أذى فـ ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾[٢].

(١) سورة النمل، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) سورة النمل، الآيتان: ١٠، ١١.

ومهما ظلمت أنت نفسك بما قتلت القبطي خطأً ولكنك بدلت حسناً بعد سوء، من حسن التوبة، وحسن الغربة أجيراً في مدين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾[1]، فهنا «لا تخف» في مقام الخوف المتعوِّد لـ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ وأما في مقام الأمن فيقال: «خف» عن زهوة الأمن وزهرة حياة الأمن وكلٌّ في محلِّه فلكلٍّ مجال حالٌ.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (٣٢)﴾:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ...﴾ تعني: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ﴾[2] و﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾[3] فقد كان إدخالاً خاصاً بضمٍّ إلى جناحه وسلك فيه وهو النافذ الراكز، تعابير ثلاثة عن ذلك الإدخال، وكيف هنا ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ وفي طه ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾؟ إن جناح طه هو الجيب هنا المُسلكة يده فيه وهو تحت إبط اليسرى، والجناح هنا هو اليد اليمنى التي أصبحت مرتخية كالجناح فليضممها إلى اليسرى، وإنما سميت اليد جناحاً بعد ما أصبحت بيضاء لأنها أصبحت من الرهب كالجناح، كأنها تريد أن تطير من رهبها ورهب حية العصا.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ ولم تكن، لكنها ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من برص خلاف نص التوراة: «ادخل يدك في عبِّك فأدخل يده في عبِّه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج» (الخروج ٤ : ٦)!

«فذانك» قلب العصا حية تسعى واليد البيضاء ﴿بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ

(١) سورة طه، الآية: ٤٠.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٢.
(٣) سورة طه، الآية: ٢٢.

فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ وماذا تعني إذاً ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾؟ أتعني نفس السلك؟ وقد ذكر قبلُ دون فصل! أم أن يضم جناحه إليه من رهب جان العصا، أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه خوف عند مشاهدة حية العصا ليذهب ما في قلبه من الروع؟ وقد سبق ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ كما ولا يناسبه الفصل بينهما بآية أُخرى!.

أم تعني أن يتخذ لنفسه سيماء الخاشع فلا يزد هي بزهوة المكانة الرسالية مفرجاً بين عضديه وجنبيه كالمتمطي في مشيته، بل يخفض جناحه للمؤمنين كما أمر الرسول ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١)؟ ولا تناسبه ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ حيث الرسالة لا تُرهب الرسول بل تُعجبه وتُرغبه! ثم وموقف الرسالة إلى فرعون وملئه ليس موقف خفض الجناح!، فقد تعني ضم جناحه من رهب الآيتين، فكما حية العصا تُرهب، كذلك اليد البيضاء ترهب فترتخي كجناح الطائر الخائف، فليضممها إليه استئصالاً لظاهرة الرهب.

أم وكما أمر بأخذ عصاه ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾(٢) كذلك أمر بضم يده التي أصبحت كجناح الطائر المرتخي، ضماً إليه من الرهب، فـ «من» قد تكون سببية تعني أن الرهب يسبب ضم جناحه إليه ليزول ذلك الرهب بزوال البياض الطارئ من إدخالها في جيبه.

أم أن ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ متعلقة بمحذوف ﴿جَنَاحَكَ﴾ الكائن ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ إذ أصبحت يدك من الرهب جناحاً، فاضممها إليك قبضاً عن الانبساط والارتخاء استئصالاً للرهب وزوالاً للبياض المسبب للرهب.

وعلَّ ﴿جَنَاحَكَ﴾ تعني يديه إذ تطلق على الجناحين واليدين الجانحين،

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨.
(٢) سورة طه، الآية: ٢١.

مهما كانت اليمنى هي الأصل في ذلك الضم، رجعاً لها إلى ما كانت من قبل ليذهب عنه الرهب.

﴿فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ من ربك تربية رسالية، إلى فرعون إنذاراً رسالياً لـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟﴾ على مرّ حياتهم الجهنمية ﴿قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ خارجين عن طورهم.

وكيف هنا ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ وفي النمل ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾[1].

علّه لأنهما الأصل فيها كلها، أم أن الباقية صادرة عنهما إذاً فهما التسع في الأصل وباقي التسع فروعهما!

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾:

﴿قَالَ رَبِّ﴾ الذي ربيتني لهذه الرسالة السامية، إن أمامي عقبتين كؤودتين قد تعرقلان الدعوة أو الداعية، أما الداعية فـ ﴿إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ وأما الدعوة، فإن لم يقتلوني ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فأنا إذا بين قتل الدعوة وقتل الداعية، وليس هذا اعتذاراً عن أصل الرسالة وتقاعصاً عنها وانتكاساً، وإنما يعرض حاله الحرجة ليُطَمئنه ربُّه فيها، ولا سيما بالنسبة لتصديق الدعوة، فإنها هي المهمة الأولى للداعية مهما قتل دونها، ولذلك تراه لم يتطلب من ربه علاجاً صراحاً عن قتله، وإنما العلاج المستدعى في ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ وهو أخِي ﴿هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ مما يبين أن مهمة الداعية هي نفاذ الدعوة مهما قتل في سبيلها!.

(١) سورة النمل، الآية: ١٢.

وكيف ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ ولا بد لولي العزم من الرسل أن يكون أفصح من سائر الرسل كما هو أصلح؟ إنها فصاحة وقتية وليست أصلية، فقد كانت في لسان موسى عقدة عن الإفصاح الكامل، لا لرتَّة في لسانه، بل لأنه قتل منهم نفساً، والمذنب عند قوم لا ينطلق لسانه كما يجب: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾[1] - ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى...﴾[2] وقد شرحناها في طه بما لا مزيد عليه فلا نعيد.

وهلّا يكذبون أخاه هارون وهو أهون تكذيباً منه كولي له في الرسالة؟ إنه يعني إفصاحاً كاملاً للدعوة، بعيداً عن التكذيب، أو أن يؤثر فيها التكذيب، وإنما أنا المذنب عندهم لا ينطلق لساني في بزوغ الدعوة كما يجب، وقد يأخذني الغضب فيحرِّج موقف الدعوة والداعية، وأخي هارون هو أفصح مني في صيغة الدعوة، وإن كُذِّبت يُصدقني فيها تزويداً في البيان وتأكيداً لصدق الدعوة، وتبيناً للبرهنة، إذ لا تكفي الآية المبصرة ما لم تزود بآية الحجة البصيرة، ومزيج الآيتين يأتي حجة بينة لا مدخل إلى تكذيبها. ولأن ﴿رِدْءًا﴾ هي المتابعة للإعانة فقد تطلَّب إلى ربه أن يجعله وزيراً له يَزِرُ عنه عِبءَ الرسالة الحرجة، و«ردءً» مصدراً مبالغة في تلك الوزارة المعنية ألّا شغل له في ذلك الحقل إلّا الوزارة دونما استقلال ولا استغلال.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

﴿عَضُدَكَ﴾ هنا هو عضد الرسالة أن يعاضَد فيها بأخيه ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٣.
(٢) سورة طه، الآيات: ٢٥-٣٢.

سُلْطَنًا﴾ قاهراً على فرعون وملئهِ، دون أي سلطان لهم عليكما لا قتلاً ولا تكذيباً، إذاً فهو سلطان القوة إلى سلطان الحجة لمكان ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ قتلاً أو تكذيباً ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التي هي السلطان نفسه، فذلك السلطان - الآيات - له جانبان، جانب المُنعة عن الوصول إليكما: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وجانب الغلبة لكما عليهم: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(١)، وقد تعني «آياتنا» هنا كلّ التسع التي أرسل بها إليهم، وهي الطالعة من العصا ومن يده البيضاء، ومن تلك الغلبة الموعودة الشاملة نتلمح أن السحرة ما صلبوا بما آمنوا، لأنهم أصبحوا من أفضل «من معكما» فقد غلبوا على فرعون كوناً إذ لم يُصلبوا وكياناً في الحجة الغالبة لأن سحرهم - فقط - كان حجة، وهم أولاء الذين آمنوا بموسى دونما تخوف من تألُّب أو تصلُّب وسواه، متصلبين في هداه.

وهذه طمأنة ربانية للداعية على طول خط الدعوة فلا يخاف عقبة في أولاها وعقباها، فإنهما لم يذهبا إلى الطاغية مجردين حتى يخافاه، بل هما مزوّدان بسلطان لا يقف له أي سلطان، من أيٍّ كان وأيان، سياج صارم لا قبل لهم به.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ ومعه هارون ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التسع حال كونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ لا خفاء فيها ولا ريبة تعتريها ﴿قَالُوا۟﴾ فرعون وملأه ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الذي جاء به موسى ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ على الله ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

وكيف ما سمعوا بهذا في آبائهم الأولين، فالموحدون منهم أسمعوهم التوحيد والوحي مصدقين، والمشركون كذلك مهما كانوا مكذبين؟.

(١) فـ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ هنا تتعلق بـ ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾ و﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وما أجمله جمعاً بينهما.

وكيف ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ به على الله أنه آية؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[1] ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾[2] فأتوا بسحر مثله إن كنتم صادقين، أنتم وآبائكم الأوّلون.

وإنها قولة لعينة لئيمة مكرورة على طول الخط ضد الرسالات الربانية، فنفس الصيغة نجدها من المشركين زمن الرسول ﷺ كأنهم تواصوا بها في سلسلتهم النكيدة المكيدة!

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

رد مهذب مبرهن مؤدب، وكأنه لا يحمل برهاناً عليهم وهو يحمل اتقن برهان ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ وهي كحجة مرسلي المسيح عليه السلام، ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[3] فالتربية الربانية الرسالية باهرة فيّ أعمالاً وأقوالاً وأحوالاً، وفيما معي من آياتٍ بيناتٍ، و﴿أَعْلَمُ﴾ بـ ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ وهي الحياة العاقبة حيث تعقب حياة العرقلة الكافرة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4] لهم - فقط - دون الطاغين، لـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بل يَفلجون مهما ارعدوا وعربدوا لِرَدْحٍ من الزمن طال أم قصر. وقد تعني الدار هنا الدار الدنيا إلى جنب الآخرة حيث تشملهما لفظة الدار: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5] - ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[6].

فالحال الحاضرة لنا بكل حجة باهرة تضمن لنا البقاء دونكم، ثم لنا - لا

---

(١) سورة الطور، الآية: ١٥.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٧.
(٣) سورة يس، الآية: ١٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(٦) سورة القصص، الآية: ٨٣.

لكم - عاقبة الدار، فلو كنا مفترين على الله كذباً فلن نفلح إذاً أبداً، ونحن المفلحون في العاقبة الآجلة كما نحن في العاجلة بما معنا من سلطان مبين.

وما كان رد فرعون على هذه الحجة الأديبة العجيبة إلّا كلمة مكرورة رديئة:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

هذه قالة الفرعنة اللعينة المهينة ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ كأنه يحيط علماً بكل شيء فإذ لا يعلم إلهاً غيره فلا إله - إذن - غيره، يقولها فرعون قاهراً دون أن يسمح لمخٍّ أن يفكر، ولا للسان أن يعبر إلّا سمعاً وطاعة، وتشبهها قالته الأخرى: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1].

ولقد قلّب هنا أمر كلمة التوحيد: «لا إِلهَ إِلّا اللَّهُ» بمقلوبها ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ أي: لا إله إلّا أنا!

وقد يعني بـ ﴿مَا عَلِمْتُ...﴾ جهله، ولذلك يأمر ببناء صرح ويقول: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فلو كان يعني بـ ﴿عَلِمْتُ﴾ عدم إله غيره بصورة قاطعة لما صحت حيلته الثانية والثالثة، اللهم إلّا تماشياً وتنازلاً من علمه المحيط المدّعى، وهو بدون هذه الدعوى الخاوية ليست حيلته الأولى حجة على السلب بل هي سلبٌ للحجة، وقد يحتج بسلبها لعدم ثبوت إله غيره، فليفتش عنه في السماوات بأسبابها بعد الأرض، ولو كان لبان! ثم ولكي يؤكد سلبيته الماكرة يأمر هامان ببناء صرح رفيع يصعد عليه لعله يطلع إلى إله موسى، فيتأكد أنه ليس في السماء كما لم يجده في الأرض، وكأن إله

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٩.

موسى ساكن السماء أو ساكن الأرض!. و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم﴾ قالة مكرورة على ألسنة الماديين الناكرين لوجود الله كشريطة تُدار، إننا ما وجدناه بأيٍّ من حواسنا، فليس - إذن - كائناً، متجاهلين عن أن الكائنات لا تنحصر بالإدراكات الحسية، وحتى لو انحصرت بها فلا يحيط بها أحد علماً حتى يصح القول: ما لا نجده فهو غير موجود! أجل يصلح القول: ما علمت فليس كائناً، للذي يحيط علماً بكل شيء وهو الله تعالى شأنه العزيز: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]. هناك كيد أوّل ﴿مَا عَلِمْتُ...﴾ وكيد ثان ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ...﴾ وثالث ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كلها ادعاءات جوفاء خواء يصارح بها على ملئه ولا يخاف رداً عليه ولا نكيراً.

وقد نلمس عمق الحمق الفرعوني من كيده الأوسط وهو بناء صرح، وقد كان يكفيه أن يصعد أعلى جبل في مصر، وهو دون شك أرفع مما يبنيه هامان خلال سنين! ثم السماء لا تخص محل الصرح لا طولاً ولا عرضاً، حتى إذا لم يطلع إلى إله موسى من على صرحه فليس الإله - لو أنه في السماء - في سائر السماء!.

فمثله كمثل الذي ينكر وجود الذهب في الكون كله، لأنه لم يجدها عنده أو في الأفق الذي يعيشه! وما أحمق هؤلاء الذين سمعوا قالته هذه الحمقاء ولم يردوا عليه! وأحمق منها قالته الأخرى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا...﴾[2] [3].

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٢) سورة غافر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٣) هناك في تفسير آية المؤمن بحث فصل عن أسباب السماوات فليراجع.

وكيف بالإمكان بلوغ أسباب السماوات بالصعود على صرح، ولو كان هو الإله فكيف يترجى ذلك البلوغ وما هو ببالغ؟

و﴿إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ هنا وهناك - وعلّهما واحد مذكور بصيغتين - إنه تعريض عليه لو أن هناك إلهاً غيري فليس إلّا إله موسى وليس إلهي وإلهكم!

لقد تقولها الطاغية في بداية المواجهة، كما تقوّل أخرى في النهاية ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[١] وبين الكلمتين أربعون سنة[٢].

﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

ولما يبلغ الاستكبار إلى هذا العمق من الحمق، أن لا إله إلّا أنا، ظناً منهم ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ وهم يحسبونه علماً ألّا إله إلّا فرعون، ولا مرجع إلى الله، فلا علاج لهؤلاء الحماقى الأنكاد إلّا أخذاً ونبذاً:

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

هذه عاقبتهم يوم الدنيا فكيف - إذن - عاقبتهم يوم الدين، وقد تبين ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣].

ويا له من اختصار حاسم قاصم، أخذٌ ونبذ في اليم كما تُنبذ الثفالات وتحذف الحصاة، نبذ في ذلك اليم تمليصاً، أليم الذي ألقي فيه موسى تخليصاً، هذا مأمن وملجأ، وذلك مكمن عليه ومهلكة ومضجع ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٢٩ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: كلمتان قالهما فرعون... كان بينهما أربعون عاماً فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٥.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾:

جعل تكويني لإمامتهم النارية يعني أنه تعالى ما منعهم عنها كما لم يمنعهم قسراً عن كفرهم، فخلى بينهم وبين ضلالهم وإضلالهم، ثم يذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[1].

ف ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ بين مثلث التكوين تخييراً في ضلال وإضلال، ثم إيكالاً لهم إلى أنفسهم جزاءً وفاقاً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2] - ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[3] ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[4] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[5]. هكذا جعلناهم بما بغوا وطغوا، كما عكسناه لآخرين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[6] وأين جعل من جعل، والآخر تشريعي إلى كونه تكوينياً جزاءً وفاقاً[7].

ولقد كانت الفراعنة في كلّ التاريخ أئمة الضلال ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مناوئين لأئمة الهدى الذين يدعون إلى النور.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ﴾ بدعواتهم اللعينة ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ حيث لَيَحمِلُنَّ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٣.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٥.
(٤) سورة الزخرف، الآيتان: ٣٦، ٣٧.
(٥) سورة مريم، الآية: ٨٣.
(٦) سورة السجدة، الآية: ٢٤.
(٧) نور الثقلين ٤: ١٣٠ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال: إن الأئمة في كتاب الله عزّ وجلّ إماما‌ن قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم، قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١] يقدمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عزّ وجلّ.

﴿أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[١] ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

فكل لعنة تابعة لضلال من ضل بإضلالهم، «اتبعناهم» إياها مع تابعيهم، كلاً على قَدَرِه وقَدْرِه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٣]، فـ «من سن سنة سيئة كان عليه وزمن عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيءٌ».

فهم من المقبوحين في الدارين، والملعونين في النشأتين، عائشين أجواء الاشمئزاز والتقزُّز، خلاف الضفة الهادية، حيث تعيش جوّ الإعزاز والتعزز.

وكما فرعون وملأه هم أقبح المستكبرين في التاريخ، كذلك موسى الرسول عليه السلام هو أفضل الرسل في التاريخ الرسالي بعد خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد جاء ذكره في الذكر الحكيم مائة وستاً وثلاثين مرة في أربع وثلاثين سورة بتفصيل قصصه أو إجماله كما تقتضيه الحال ويناسبه المجال، مما يدل على أن له المكانة الثانية بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الرسالة النبوة الإمامة، فقد كان ﴿رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[٤] إماماً من أولي العزم (٣٣: ٧ و٤٢: ١٣) كما وكتابه إمام (٤٦: ٥٢) وفرقان وضياء وذكر (٢١: ٤٨) فيها هدى ونور (٥: ٤٤).

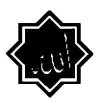
وبين التوراة الحاضرة والقرآن اختلافات شاسعة في قصص موسى وهارون مع فرعون:

فالقرآن يوحّد فرعون الذي أخذه ورباه والذي أرسل إليه، والتوراة

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٣.
(٢) سورة يس، الآية: ١٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٤.
(٤) سورة مريم، الآية: ٥١.

تفرق[١] ثم وهنا بازغ النداء الرسالي إلى موسى من الشجرة المباركة في القدس بعد الرحيل عن مدين، وهناك في مدين نفسه[٢] وهنا ألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى، وهناك لم يؤمنوا بل عارضوا موسى[٣] وهنا صانع العجل هو السامري، وهناك هارون النبي عليه السلام [٤] وهنا ملقي العصا هو موسى عليه السلام وهناك هو هارون بأمر موسى عليه السلام [٥] وإلى أمثال هذه من اختلافات تكشف عن اختلاقات توراتية أهمها البشارات المحمدية فيها، وقد نذكرها مقارنة بطيات الآيات.



(١) سفر الخروج ٣: ٢٣.
(٢) في التوراة أن أبا زوجة موسى هو يثرون كاهن مديان دون شعيب.
(٣) الخروج الإصحاح ٧ و٨.
(٤) الإصحاح ٣٢ من الخروج.
(٥) الإصحاح السابع من الخروج.

الفهرس

تتمة سورة الفرقان

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص